وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

زقاق الأكاسيا

تأليف: راضية تجّار   ترجمة: د. ندى حسون

زقاق الأكاسيا

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة

الرواية العالمية

زقاق الأكاسيا

تأليف: راضية تجّار

ترجمة: د. ندى حسون

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

كوچه اقاقيا

الكاتب: راضيه تجار

الناشر: چاپ دوم، ١٩٦٤

المترجم: د. ندى حسون

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

زقاق الأكاسيا / تأليف راضية تجّار؛ ترجمة ندى حسون. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م. - ٢٨٠ص؛ ٢٥ سم.
(المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية؛).

١-٨٩١,٥٥ ت ج ا ز ٢- العنوان ٣- تجّار ٤- حسون
٥- السلسلة

مكتبة الأسد

ست صوان على رؤوس ستة رجال. كانت السيّدة الأمّ[١] قد قالت:

- افتحوا الباب المطلّ على زقاق الأكاسيا.

كانت للصواني أغطية مخملية، وعلى الصينية الأولى المرآة والشمعدانات التي كانت أعاليقها في شكل حربة تلمع تحت نور الشمس.

كانت دِلنَواز قد التصقت بزاوية ملاءة السيّدة الأمّ المصنوعة من قماش الفوال، وكان فمها نصف المفتوح يظهر مكان سنّيها الساقطتين. كانت ضفيرة شعرها قد قيّدت ببكلة شعرقماشيّة كبيرة إلى الخلف.

دخل حاملو الصواني باحة الدار بهدوء وحذر. انزلقت بعض قطع نُقل[٢] الـ" بيد مشك "[٣] من فوق إحدى الصواني، وتفتتت على سطح الآجر الكازاخيّ[٤].

كانت زبيدة الطويلة النحيلة العبوس قد غطّت شعرها الملون كجناح الديك بمنديل أسود، وكانت تبخّر بالحرمل وتتجه نحو سكّان زقاق الأكاسيا بنظرة غاضبة:

---

(١) والدة ميرزا (المترجمة).

(٢) ما يؤكل للتسلية كبعض أنواع الحلوى الجافة والمكسرات (المترجمة).

(٣) نوع من الحلوى يشبه الملبس إلى حد ما ويصنع من السكر واللوز أو الجوز ويعطر بالزعفران وخلاصة نبات الـ " بيد مشك " وتعني حرفياً الصفصاف المسك (المترجمة).

(٤) من أقدم أنواع الآجرّ، كان الجنود الكازاخيّون، حين دخلوا إيران، يبنون بيوتهم منه. واستخدم في بناء شواهد عظيمة من الآثار الفارسية (المترجمة).

- الحرمل وحب الحرمل، ثلاث وثلاثون حبّة حرمل تفقأ عين الحسود، جار الطرف الأيمن، والطرف الأيسر، والخلفيّ، والمقابل...

كان المشهدي[١] أسد الله يهز المنّ[٢] عن بتلات الورد الأحمر الذي كان قد بهت لونه ممسكاً مقصّ تقليم الأشجار بيده، وكان يراقبهم عن بعد. خلف سكان زقاق الأكاسيا، كانت نساء عدة قد تباطأن رغبة في رؤية جهاز عروس ميرزا أبي تراب الجديدة، وكنّ قد وضعن سلال التسوّق أرضاً وأخذن في التهامس.

- ابنة من هي؟... من الحيّ السفليّ؟ لكن ماذا عن زوجته الأولى؟... هيهات!.

- لتفقأ عين الحسود.

قالت زبيدة هذا وهي تصنع دوائر افتراضية في الجو بالمنقل المملوء بالحرمل، وكانت جمرات النار تلهث وتنفث من أفواهها دخاناً رماديّاً. كذلك كانت دلنواز قد التصقت بالسيّدة الأمّ، واضعة وجهها في تجويف خاصرتها وتراقب. كانت النظرات ثقيلة، لكن حين ترتدي ثوباً من الألوان الساطعة، كيف يمكنك أن تبقى خفيّاً تحت نور الشمس؟.

دار أول رجل من حاملي الصواني حول نفسه مرّات عدّة، وعرض صورة الورد والحديقة والنافورة والنوافذ الشمسيّة الشبيهة بالسلسلة في

(١) المشهدي تطلق على من زار ضريح الإمام علي بن موسى الرضا في مشهد. (المترجمة).

(٢) حشرة ضارة تصيب الورد (المترجمة).

زجاج المرآة المتموّج. ثمّ وضع الصينيّة على الأرض بمهارة، وعلا صوت طقطقة الأعمدة الزجاجيّة.

حتى الرجال الخمسة ركبهم وأنزلوا الصواني، وجففوا العرق عن جباههم بعمائمهم الحمر، وأخذ كلّ منهم قدحاً مملوءاً بالشراب من الصينيّة الكبيرة الموضوعة على حافة البحرة الحجريّة، وشربها عن آخرها.

أخرجت السيّدة الأمّ قطعة نقدية ملفوفة من الكيس الأزرق المخمليّ الذي علّقته إلى رقبتها بخيط ذهبي تحت ثوبها المصنوع من قماش الجورسيه وأعطتها للرجال، وبدورهم فتحوا غطاء الجهاز وهم يقولون " يا علي ". وضعوا صندوق آلة دقّ الرزّ ذا الغلاف المخمليّ الأحمر اللون، والقدرالصغيرة والموقد، والطست والخزانة الصغيرة ووعاء الغسيل النحاسي، والمرآة والشمعدان الزجاجي، ولوازم السماور النحاسيّ المزيّن بشريط أحمر على الأرض وذهبوا.

أُغْلِق الباب المقابل لزقاق الأكاسيا وساد الصمت.

طلبت السيّدة الأمّ إلى المشهديّ أسد الله وزبيدة أن يحملا الجهاز إلى الغرفة الموجودة في الطابق الأعلى من البناء. قالت زبيدة بغضب:

- لِمَ لم يأتِ أحد منهم؟!

صعدت السيّدة الأمّ، دون أن تجيب عن سؤالها، الدَرَج الجانبيّ لباحة الدار، الذي يصل الطابق الأول بالثاني، لتذهب إلى الغرفة الموجودة في آخر قسم الليوان، التي تزيّن نوافذها ستارة زهريّة اللون مصنوعة من قماش التول؛ تلك الغرفة التي كانت قد وضعت فيها خزانة من خشب الجوز

مزيّنة بصورة محفورة لآدم وحوّاء، وعلى رفّها مرآة علاها الغبار مع مصابيح مطفأة في شكل زهرة الشقائق.

طلبت السيّدة الأمّ إلى المشهدي أسد الله أن يغيّر مكانها، ففي ذاكرة خشب الخزانة يتضوّع العطر المصنوع بيد السيّدة الصغرى، العطر الذي مازال فوّاحاً بعد سنوات طويلة.

ذهبت دلنواز، التي كانت خلف جدتها، نحو الخزانة الخشبيّة وحضنتها بيديها الصغيرتين:

" لا، لا يأخذها! إنّها لأمي ".

لم تقل لكن لو كانت قد قالت، لكانت ستقول هذا.

أغمضت زبيدة جفنيها بقوّة. مدّت السيّدة الأمّ يدها إلى كيس المخمل الأزرق وأخرجت قبضة من لبّ الفستق واللوز، ووضعتها وسط قبضتها الباردة والرطبة.

- تعالي جانباً يا عزيزتي. نريد أن نغيّر مكانها فحسب.

مسحت دلنواز بيدها الصغيرة على وجه حواء الحزين، التي كانت تأخذ التفّاحة من فم الأفعى. أُخِرجت الخزانة من الغرفة.

تزامناً مع ارتفاع صوت حلقة الباب، ذهبت زبيدة إلى باحة الدار. لم تكن قد فتحت الباب بشكل كامل، رأت أمامها امرأتين سوداوين، طويلتي القامة، أعينهما سود كالقير، تضعان على رأسيهما ملاءتَي صلاة. قالت إحداهما:

- نحن جواهر ومرواريد. أتينا لنقل جهاز السيّدة ماه منظر.

نظرت زبيدة إليهما بحزن وتراجعت ببرود.

" هيهات! أتيتما لتكنسا مكان سيدتي وتهيّئا الطريق لبديلتها ".

تنحّت، ورأت من ذاك المكان الذي تقف فيه كيف تصعد المرأتان الدَرَج متباهيتين لتفهماها أن هذا البيت سيكون مكاناً لتجولهما منذ الآن. تباطأت وجلست على أول درجة:

" التفاخر طبق فوق طبق، والكلاب حوله تنبح! "[1].

كانت تضع رأسها على حافّة الدرابزين وقد سمّرت نظرها إلى ماء البحرة الفيروزي؛ البحرة التي حطّ غراب على المجرى المحيط بها وأخذ يدقّ بمنقاره سمكة تمزّق بطنها. صوت السيّدة الأمّ جعلها تقفز من مكانها.

- لا يصيبك الذهول يا زبيدة. الآن وقت الجلوس؟ انهضي وأحضري الشمعدانات!

كان صوت طقطقة الأعمدة البلوريّة يـمزق قلبها: " إنّ ماه منظر قادمة ".

كانت جوانب باحة الدار الصغيرة، التي تتصل بالباحة الكبرى بباب خشبيّ ذي مصراعين، قد غطّيت بالأوراق البالية. كان الباب

(١) أي أن محدث النعمة يتفاخر والكلاب حوله تنبح، ولا يستطيع التكبر على من يعرف سابقة فقره وعوزه (المترجمة).

يدور على محوره ثلاث مرّات يومياً فقط. حين كانت تعبر منه زبيدة بزبديّة نحاسيّة يتصاعد منها بخار لطيف، وقت الفطور والغداء والعشاء. وعلى الرغم من أن تلك الباحة كانت كقلعة منيعة في وجه دلنواز، إلا أنّها كانت تحاول بأيّ حجّة أن تعبر من ذلك الباب، وأن تطأه بقدميها. ما كانت ستراه كانت قد رأته من قبل أيضاً: أعشاب ضارّة، حديقة ميتة، حوض البركة المكسور، وآثار دم حمامات البئر التي كانت القطّة قد مزقتها. لكن هذه المرّة أيضاً، كالعادة، ارتعشت زاويتا شفتيها واسودّت الدنيا في عينيها.

وضعت قدمها على الدرجتين، وذهبت من الدهليز الضيّق إلى الغرفة القبليّة؛ الغرفة التي كانت قد علّقت أمام بابها ستارة طبعت عليها رسوم. كان يُسْمَع صوت صلصلة. فتحت الباب بهدوء برؤوس أصابعها. رائحة القطن المدخّن، فضلات الحمائم، وخبز متعفّن!

اصطكاك أرجوحة سوداء كانت تذهب وتأتي.

مع صوت الباب، تحرّك رأس مثقل بأحمال من الألم والتفكير. لهب قطعتي فحم أضرمتا في ذلك الوجه القمريّ، فأحرقت جلده. كانت قد علّقت يد يابسة في الهواء كغصن شجرة، وحطّت حمامة على حفر الأصابع ووضعت بيضها.

تقدمت دلنواز. نظرت إليها المرأة الشعثاء، انحنت ووضعت أخمصي قدميها اللتين غُطيتا بتنورة بالية على الأرض. وقفت، وخطت خطوتين.

علت صلصلة حلقات السلسلة التي كانت قد غاصت في عقب قدمها المتجمّدة المقيّدة، كانت تستطيع أن تديرها بها حول دائرة ذات قطر محدود فقط.

كانت الحمامة لا تزال واقفة على اليد اليابسة، وكانت تحدّق إليها وجهاً لوجه بعينين داميتين. ألصقت دلنواز ظهرها بالباب بفم نصف مفتوح، تقدّمت السيّدة الصغرى وتقدّمت، ولمّا وصلت مقابلها حنت كف يدها وأخذت تضرب على فمها بشكل متتابع لي لي لي لي لي لي لي. طارت الحمامة واستدارت، وارتطمت بالسقف وبالجدار ثمّ اصطدمت بزجاج النافذة الأحمر المكسور نصفه. لم يكن هناك طريق للهرب. ثمّ تثاقلت وسقطت على الأرض إلى جانب البيض المكسور. كذلك تراجعت دلنواز بسرعة وهرعت إلى الخارج، ذلك أنّ السيّدة الأمّ كانت قد يئست من نداءاتها.

- أين أنت يا دلنواز؟ أين أنت؟!

كانت قبضة من لبّ الفستق واللوز قد تناثرت إلى جانب حلقات السلسلة، وكانت السيّدة الصغرى قد جلست القرفصاء وأخذت تلتقطها حبة حبة.

* * *

طلبت مرواريد وجواهر إلى زبيدة، وهما ترتّبان آخر قطعة من جهاز العروس، في الغرفة التي يفوح منها عطر الياسمين، أن تخرج لتقفلا الباب. كانت زبيدة قد جلست متجهّمة وعابسة على عتبة الغرفة، وقد سمّرت

نظرها إلى مرافقتي زوجة ميرزا أبي تراب الجديدة، اللّتين ستطّلعان على أسرار البيت.

- هل غرقت سفينتك يا أخت؟(1)

قالت جواهر وابتسمت. فتحت مرواريد مصراع الباب المواجه للإيوان ووقفت تنتظر. نهضت زبيدة من مكانها وألقت نظرة على باحة الدار من النافذة. كانت السيّدة الأمّ ودلنواز تجلسان إلى جانب البركة، وتفتتان الخبز للسمكات الحمر والسود، وعلى مسافة قريبة منهما كان المشهديّ يقلّم الفروع الصغيرة المصفرّة لشجرة التوت الشاميّ.

- يا زبيدة! زبيدة! أغلقي النافذة! لقد غطّى التراب الأثاث كلّه. ما إن ارتفع صوت السيّدة الأمّ، أدخلت زبيدة الستارة زهريّة اللون التي جذبتها الريح الخفيفة خارج النافذة.

جلست مرواريد وجواهرعند ميلة درج الغرفة تنتظران، ومن فور ابتعادها أقفلتا الباب وراءها، ثمّ أسرعتا وسبقتاها في نزول الدرج. كانت الريح تتلاعب بملاءتيهما، وكان يُسْمَع صوت همسهما وضحكهما.

سلّمتهما السيّدة الأمّ لله في جوابها لوداعهما، وأغلقت زبيدة الباب خلفهما بشدة، وأغلقلت المتراس.

- لا قدّر الله أن يصبح المتسول ذا قيمة. تف! تف!

قالت هذا وذهبت نحو المطبخ.

* * *

---

(1) يقال للشخص الحزين المهموم الذي أصابه ما يكره (المترجمة).

كان عطر ورد الحديقة، الناعم والجوريّ وورد مريم المزروع في الأصص الفخاريّة ذات الرسوم البارزة الموضوعة على زوايا البركة، يمتزج بعطر البهارات والزعفران الذي أثقل جوّ البيت.

كانت مصابيح الكيروسين ذات القواعد العالية الموضوعة هنا وهناك، بصوت الوزوزة الذي تصدره، تحدث ثقباً في قلب الظلام. كانت باحة الدار قد ملئت بأسرة ميرزا وأقاربه الذين كانوا قد لبّوا دعوة السيّدة الأمّ للمساعدة في إقامة وليمة العرس. كانت السيّدة الأمّ لا تزال تحتفظ بذكرى جميلة منذ أوّل حفل عرس أقامته لابنها ميرزا؛ سبعة أيام بلياليها على قدم وساق، الألعاب البهلوانيّة التي كانت تصنع براعم ورد من الطست المليء برغوة الصابون وتنثرها على رؤوس المدعوّين، المطربون الذين كانوا لا يضعون آلاتهم أرضاً إلا حين يريدون ترطيب حلوقهم. كان الناس قد أتوا من الأحياء السبعة البعيدة.

عميت عين الحسود الذي لا يسود؛ إذ لم تمض سنة على ولادة دلنواز حتى أصاب كنّتها المسّ ولم ينفع علاج ولا دواء، واضطرّ ميرزا إلى إخلاء الدار الصغيرة وتقييدها بالسلاسل هناك.

ما حدث أنّ الموائد فرشت مرّة أخرى، ووضعت أنواع مختلفة من صحون الخضرة وزبادي المخلّل والجيلاتين ومثلّجات الفواكه وقوارير زجاج مثمّنة مملوءة بالشراب المخلوط بالزعفران، والعيران المعطّر بالأعشاب ليكون ابنها في مأمن من لعنة الأرض، بعد ذلك يمكنها أن تتنفّس الصعداء، وتفكّر في تذكرة لزيارة تراب كربلاء الحسين الطاهر.

جلس ميرزا إلى جانب الخوان، وألقى عباءته على كتفه، وكان يزلق حبّات سُبحة الشاه مقصود[1] الصغيرة المتجانسة من تحت أصابعه. كان حاجباه الكثيفان مقوّسين، وكانت عيناه تحدّقان إلى الأسفل بنظرة ثقيلة وذكيّة. وبينما كان يصغي إلى كلام أفراد الأسرة والأقارب، رفع رأسه فجأة وألقى نظرة فاحصة. كانت هناك، بعيداً عن المائدة الممتدّة في كنف شجيرة الورد الأحمر، تضغط إلى صدرها اللعبة القطنيّة التي صنعتها زبيدة بيديها، فنهض من مكانه ودار حول الخوان ثمّ خرج وراء دلنواز.

- لماذا تقفين هنا يا سيّدة فشفشة؟![2].

هزّت دلنواز رأسها واستدارت، وفجأة أخرجت الغصّة المخفية في حلقها أمام ميرزا، فجمع ميرزا أبو تراب القسم السفليّ من عباءته وجلس مذعوراً على ركبتيه.

رفعت دلنواز يديها إلى الأعلى وأحاطت بهما عنقه، ووضعت رأسها على كتف والدها وشهقت تبكي. احتضنها ميرزا، هي واللعبة معاً، وأخذها إلى البركة، كانت النافورة تدور وتصنع في الجوّ دوائر كالفضة.

غسل ميرزا وجه البنت وألقى رذاذاً على ضفائر شعرها، ثم عاد إلى خوان الطعام ممسكاً يدها:

---

(١) سبحة بلون أخضر ليمونيّ فاتح تجذب الأنظار، ثمينة جداً، وتصنع من معدن يؤخذ من جبل في نواحي قندهار (المترجمة).

(٢) فشفشة أي فتّاشة أو مفرقعة، اللعبة النارية المعروفة، كناية عن السرعة في الحركة (المترجمة).

- بسم الله.

امتدت الأيدي إلى أطباق الأرزّ وزبادي الخضار المطبوخة باللحم، وحملت الريح صوت امرأة، تجلس في زاوية ضيقة بين امرأتين، إلى مسامع نساء عدّة أخريات:

- يجب أن تأتي عروسه الجديدة ليُعْلَمَ حينها مَن سيُدَلّل؟

ارتسمت الابتسامات على الشفاه.

* * *

كانت دلنواز تقف أمام باب المطبخ المسودّ من الهباب والبخار، وكانت تحدّق إلى زبيدة التي كانت ترتب بمهارة جبلاً من الأواني المغسولة. لم تكن زبيدة، التي كانت ترى نفسها الحاكم المطلق في المطبخ، تسمح لأحد أن يدخل حرمه حتى لزوجها أسد الله، الذي كان يفرش وسائل النّوم للضيوف في زاوية من الدار.

- ليكن عشائي سمّاً يا بنتي، لِمَ بكيتِ ؟ لِمَ أَدْمَيْتِ كبد زبيدة؟

التمعت عينا دلنواز:

- هل تعطيني عشاءها؟

هزّت زبيدة رأسها:

- فقط هذه الليلة.

ضغطت دلنواز يديها إحداهما بالأخرى. سكبت زبيدة الرزّ من قدر فرغ نصفها، ووضعت إلى جانبه قطعة من الرزّ المزعفر الملتصق في قعر القدر

وسكبت فوقه ملاعق عدّة من القيمة[1]. سارت دلنواز بالزبديّة النحاسيّة وفوقها قطعة من الخبز لتحتفظ ببخار الطعام.

- انتبهي كي لا تراكِ السيّدة!

خطت دلنواز خارج المطبخ خطوات خفيفة سريعة، وعبرت الباب الخشبيّ الفاصل بين الباحة الكبيرة والباحة الصغيرة، وغابت في الظلام خلف الباب. كلّ شيء ظلّ وظلمة، لا قمر ولا ضياء. كانت أغصان الصنوبر العالية المتشابكة المتراصّة كأن أيديها قد تشابكت كي لا تدع ذرّة من شعاع القمر تقع على حوض البركة المكسور، ولا على قامة الأعشاب المتسلّقة المنحنية.

حبست دلنواز نَفَسَها في صدرها لتمرّ من أمام القبو، فلم تكن تريد أن تنحني، فيرونها من الزجاج المغبرّ القريب من أرض الدار. بالتأكيد كانوا يجلسون، كالعادة، بأعين عمودية ووجوه صفر طوال على أكياس قطع الفحم، ويعرضون أرجلهم ذوات الحوافر.

قيج قيج! جرينغ جرينغ!

مرّت من الدرجتين اللتين تصلان باحة الدار بمدخل الممرّ. كان ثمّة نور أصفر اللون يسطع من مصباح هوائي معلّق إلى الجدار على أرجوحة قماشيّة وسط الغرفة، ويد يابسة بأصابع متوسلة من أقمشة قديمة كثيرة كانت معلّقة بين الأرض والسماء. تقدّمت بهدوء، ووضعت الزبدية

(١) بطاطا مطبوخة بمرق رب البندورة مع اللحم والحمّص المقشور والليمون المجفّف العُمانيّ.(المترجمة).

النحاسيّة على الأرض قرب الأرجوحة. تراجعت السيّدة الصغرى بقوة، وجلست على الأرض منكمشة، وبقيت صامتة وهي تحدّق إلى الفضاء الأسود.

توقفت الأرجوحة عن الحركة، وارتفع رأس مثقل بحمل من الألم والأفكار، ذو شعر أشعث وملوّث بالرماد، وعينين سوداوين لوزيّتين ممتلئتين بحرارة الجنون، محدّقتين إلى ما يقابلهما. في البداية استقرّت القدم التي كانت مقيّدة بالسلسلة على الأرض، ثمّ بدأت القدم الأخرى بالحركة كالظلّ.

جرينغ جرينغ!

كانت اليد المتوسّلة قد بقيت في حالة مرتفعة. وصلت دلنواز بهدوء إلى الزبديّة النحاسيّة وجذبتها لتضعها أمام والدتها. أخذت المرأة الزبديّة، لكنها تراجعت نحو الجدار وأخذت تضرب عليها باستمرار...

دنغ! دنغ!

مع كلّ ضربة كانت تتناثر في الهواء حبّات الرزّ المضمّخة بالقرفة والزعفران. أخذت تغنّي:

بذرة ذات رائحة لم يكن يعطيني... حين كان يعطي، كان يعطي قشرتها.

ألصقت دلنواز ظهرها بالجدار.

- سيّدة دلنواز! أين أنت؟

كان الصوت صوت زبيدة ممتلئاً بالخوف والهلع. كانت دلنواز تهمّ بالعودة، لكنّ يداً ثقيلة بثقل الجبل هبطت على كتفها وجذبتها نحوها. علت صرخة في الجو:

- يا قمر بني هاشم!

أصبحت اليد المحيطة بها كالحلقة أضيق وأضيق.

قالت زبيدة:

- أقسمت عليك بروح كلّ من تحبين!

كانت دلنواز قد التصقت بصدر أمّها. أصبحت الحلقة أضيق.

علا صوت زبيدة المرتجف مرة أخرى:

- يا بنتي! لا تمزّقي وردتك!

كان صوت ضربات قلب قوية يسمع تحت قلب دلنواز. أي كلام كان في هذا القلب؟

قبضت يد على ضفيرة دلنواز من الخوف،وعلا صوت صراخها. انفرجت حلقة اليد عن جسد البنيّة، وعلا صوت زغردة في الغرفة:

- لي لي لي لي لي لي لي

أُخِذَت دلنواز من الغرفة، ومن الممرّ إلى باحة الدار. ولمّا عبرت الباب الخشبيّ فقط انفرجت قبضة زبيدة. كانت باحة الدار الخارجية كمهد مملوء بالعطر والنور، كانت فُرش الضيوف الغارقين في نومهم، ورقرقة النافورة الهادئة التي تغرّد على سطح الماء قد أطارت الكابوس المرّ الذي كانت دلنواز

قد رأته. " حي على خير العمل ". كان الزهر النيلوفريّ قد تفتّح على سماء البيت. كسر الأشخاص المعدودون الذين كانوا قد نهضوا ليتوضؤوا سطح الماء الذي تجمّد ليصبح كالبلّورالنافر. حطّت أصوات الغربان التي كانت ترفرف بأجنحتها داخل أغصان الصنوبر على جناح الفضاء. كانت زبيدة قد هيّأت في زاوية من الغرفة أدوات الشاي الخاصّة بالاستعمال اليوميّ. كان السماور الفحميّ يغلي، وكان الماء يتصبّب من رأسه، وكان بخار الماء يتصاعد من جوانب الإبريق ذي الورد الأحمر ويجعل الكؤوس والصحون الخاصّة بالشاي المصفوفة على الصينيّة ضبابية. جلست ومسحت عنها الرطوبة بقماش أبيض قطنيّ غليظ.

كانت السيّدة الأمّ أرقة متعبة، كالعادة، وكانت تدلّك ثديها الأيسر بيدها اليمنى وتهمس بالذكر في انتظار انتهاء ميرزا من صلاته. كانت تتألّم منذ مدّة، وهي الآن تنتظر فرصة لتتكلّم مع ابنها ميرزا.

دخل المشهديّ أسد الله الغرفة وهو يحتضن خبز سنگک(١) رُشّ عليه السمسم، وأعطاه لزبيدة لتلفّه للسفر.

لمّا سلّم ميرزا من صلاته قبّل تربة السجود وأدار رأسه يساراً ويميناً، وجلس متربّعاً والتفت نحو قبلة وجه أمه:

- هل تتألّمين ثانية؟

ألقت السيّدة الأمّ نظرة حذرة إلى دلنواز: الشعر الأسود المتناثر وحجم الجسد الصغير تحت اللحاف الأطلس المزين بالورد.

---

(١) نوع من الخبز يوضع في التنور ويغطى بأحجار صغيرة (المترجمة).

- هس! لا أريد أن تستيقظ!

وانحنت لتلتقط علبة السجائر الفضية. قسمت سيجارة " هُما " بالشفرة إلى قسمين. وضعت نصفاً خلف المطاطة الموجودة داخل العلبة بدقّة، وأشعلت النصف الثاني.

- منذ أيّام عدّة أريد أن أقول لك هذا الكلام...

لم يعد في إبقاء " السيّدة الصغرى " هنا مصلحة. دعها تذهب!

اهتزّ ميرزا بوضوح. لم يجب عن كلام أمّه بتغيّر قطّ، لكنّها أحست باشتعاله، فصبّت الماء على النار:

- هس! ما أقوله فيه مصلحة للجميع. عروسك الشابّة بلا تجربة، ولو أتت ورأتها فستهرب. نحن النساء نعرف طبيعة المرأة أكثر. هل يحترق قلبك لأجل السيّدة الصغرى؟ إذاً، خذها. ليلة أمس زغردت؛ إنها تعرف يقيناً أن شيئاً ما حدث. هذا لا يرضي الله. كلّما ابتعدت كان أفضل. ربما ستضرب هذه الريح رأسها فتصحو.

تحت اللحاف الأطلس المورّد؛ ضغط جفنان أحدهما على الآخر كما يضغط القلب والحلق. سقطت دمعة كبيرة مالحة من زاوية عينها، ثمّ تبعتها قطرة أخرى. غابت الشمس تحت الغيم.

* * *

صُفّت الموائد والكراسي البولنديّة[1] في محيط الدار كلّه، ومُدّت على الطاولات أغطية بيض كتانيّة ذات حواش مطرّزة، وغطّيت الجدران بسجاد حريريّ ذي رسوم جميلة، منسوج بدقّة. وفي أماكن عدّة من باحة الدار كانت مصابيح الكيروسين العالية تنشر نورها، ووُضِع لوح على سطح البركة غُطّي بالسجاد. كان ثمّة نسيم ينبئ بقدوم الخريف المبكّر في منتصف الصيف يعبر بين الأشجار، وكانت أوراق الورد الجوريّ والياسمين الرازقيّ وورد مريم ترتعش. كان الرجال العمّال، متعبين لكن يقظي القلب، يجلسون حول الخوان الذي بسط في باحة الدار وقد ألقوا أيديهم في الرزّ جميل الرائحة المرتعش، تحت ثقل الطعام المطبوخ باللحم والخضار. كان قرص القمر الفضيّ قد انسكب من بين أغصان الأشجار وأوراقها إلى الأسفل، وكان يتلألأ على الآجر الكازاخي ّالذي غطّى أرض الدار. كان صوت الهمس مستمرّاً إلى وقت النوم. وصل النوم المتجوّل وألقى برأسه على الأعين والأيدي والأرجل المتعبة.

فرش المشهدي أسد الله وسائل النوم، ودعا الضيوف إلى الاستراحة.

- قبل أن تغمض عينيك، دعنا نحتس كوباً من الشاي معاً.

وضعت السيّدة الأمّ كوب الشاي أمام ميرزا أبي تراب، الذي كان قد ألقى عباءته على كتفه، وأخذ يحرّك حبّات المحسَب عسليّة اللون.

---

(1) نوع من الكراسي الخشبيّة منحنية في بعض أجزائها، وقد دخلت للمرة الأولى إيران مع المهاجرين البولونيين (المترجمة).

- أصبحت أصمّ أبكم مرة أخرى يا بنيّ؟ لن أسامحك بحليبي إذا جلست وأحرقت قلبك بالغصّة. خذ مرآة وانظر فيها! خطوط جبهتك، شعرك المتساقط، اللون الأزرق تحت عينيك... ماذا تفعل بقلبي يا بنيّ؟ لم أرك كبيراً بسهولة.

قلّب ميرزا المحسب، فأصدرت الحبات صوتاً واستقرّت كلّها في جهة واحدة، فوضعه جانباً وتأوّه:

- ليغفر الله لي يا أمي!

انزلقت السيّدة الأمّ نحوه:

- ذنبها في عنقي يا بنيّ. أتمّ الأمر الليلة! السنّ المتسوسة يجب أن تقتلع وتلقى بعيداً.

نهض ميرزا من مكانه وسار إلى جانب باب الغرفة، كان المشهديّ أسد الله يجلس على درجة المطبخ يدخن النارجيلة.

- هل نذهب يا مشهديّ؟

تحرّك المشهدي:

- أنا جاهز يا سيدي.

لكن لم يكن قد أتمّ كلامه حتى صرخ، وألقى جانباً الجمرة التي سقطت فجأة على يده. تراجع ميرزا. كانت عينا الأمّ تلتمعان كعيني عقاب، وكان أنفها يبدو حادّاً، والخال الكبير على خدّها الأيمن يبدو أكبر من ذي قبل. فتحت فمها لتقول شيئاً لكنّها كبتت الكلام الذي لم يخرج، وخرجت من الغرفة.

أطفأت السيّدة الأمّ المصباح، كان الليل مظلماً، وممتلئاً بالرموز والأسرار.

أشعلت نصف سيجارة وجلست قرب رأس دلنواز، كانت النـــار تولّد رماداً.

كان المشهديّ أسد الله يحاول أن يخرج رأس المسمار(١) العريض من الجدار. كانت حلقة السلسلة قد قرضت لحم قدم السيّدة الصغرى، وكانت تظهر بقع حمر وزرق في أماكن عدة منها. كانت المرأة تتلوّى وهي تقول: يا ويلي، يا ويلي! احتضنها ميرزا أبو تراب من الخلف، وقفل حلقة اليدين خلف جسدها. أفلتت المرأة من يده وهي تنوح، فثبّتها ميرزا أبو تراب في زاوية الجدران المثلثة وقيدها بكل قوّته. كان لا بدّ من السيطرة على هيجانها. أخذ المشهديّ نفساً عميقاً وقال: انتهى. كان جلدها الأحمر قد أصبح أكثر التهاباً، وكان الدم قد توضّع على بياض عينيها. ألقاها ميرزا بحركة على كتفه وقال: بسم الله، وخرج من الغرفة. اختلط صوت حشرجة أنفاس المرأة بصوت أنفاسه. عبروا الباب الخشبيّ بين باحتي الدار، ولم يكن يُسْمَع غير صوت الماء الرقراق الذي يصبّ على الحديقة. كان الضيوف غارقين في النوم، والأشجار تحيط بهم كقلعة. عبرا في هذه الحال منحنيين أكثر مما يجب، وليس من الباب المواجه لزقاق الأكاسيا بل من الباب الذي كان يُفْتَح على الشارع. كانت عربة بحصانين أسودين تقف أمام الباب. وضع ميرزا الجسد المنكمش على فراش العربة الجلديّ وهو يلهث، ووضع قدمه في الرِّكاب.

---

(١) هذا النوع من المسامير رأسه في شكل وردة (المترجمة).

ركب المشهديّ أسد الله أيضاً وأمسك لجام الحصان بيد، وباليد الأخرى أدار المهماز في الهواء...

- هيي...هيي!

كان صوت وقع حوافر الحصانين يُسْمَع على الحجارة المرصوفة في الشارع، وكان النسيم الذي يعبر من خلال عُرفي الحصانين ورائحة جسديهما يصل إلى أنف ميرزا؛ النسيم نفسه الذي كان يحمل رائحة جسد المرأة.

* * *

كانت الراقصة تدور على لوح البركة الخشبيّ، وكانت ترتدي سروالاً من الساتان الأحمر وتنورة قصيرة واسعة ليمونية اللون زينت حاشيتها بالمسكوكات الثمينة. كانت تدور بحذاء ضيق المقدمة ذي كعب نحاسي، وترسم أنصاف دوائر موزونة على سجادة صوفية ناعمة ذات أرضية قرميدية، وكان شلال ذهبي قد غطّى كتفيها تحت أنوار الفوانيس الملونة ومصابيح الكيروسين العالية. لمّا كانت تصاب بالدوار من صوت اصطدام الصنوج الصغيرة المثبتة على الأصابع تصبح كالساحرة التي لا مفرّ لها، وكان صوت الساز(١) والطنبور يزيد من هذا الدوار. كانت ثمّة ستارة فاصلة سوداء شاملة تفصل قسم الرجال عن قسم النساء، وكان برق الغيرة من جهة وشرر النفور من جهة أخرى يبدوان في نظرات النساء.

أعلى المجلس كان مكان العروس والعريس، الذي زُيّن بسجادة حريرية عليها رسم ليلى والمجنون، لكن العروس كانت تجلس وحيدة،

(١) آلة وترية تشبه البزق (المترجمة).

وكان العريس يجلس في جمع الرجال ببذلة سوداء كارزونيّة وقميص أبيض ذي ياقة آخونديّة[1] وشعر متباعد مدهون بالبريانتين، وكان بحركة رأسه ويده الموضوعة على صدره يرحب بالمدعوّين.

كانت ماه منظر ترتدي ثوباً أبيض ذا طبقات متعددة من قماش التول والدانتيل، وصدر مثقل بالأحجار الملونة والجواهر المصمّمة على شكل دمع. كانت نظرتها مسمّرة إلى الأسفل، وكانت تنظر إلى الأرض. كان الشيفون الموضوع على رأسها قد غطّى نصفه وجهها المزيّن، ونصفه الآخر تُرِك منسدلاً ليلتهب تحت الأشعة الحمراء والصفراء المنبعثة من الفوانيس المعلّقة فوق رأسها.

كانت دلنواز، التي كانت تجلس على الكرسي البولونيّ إلى جانب السيّدة الأمّ وقد وضعت رأسها على تجويف خاصرتها، تراقب ماه منظر بطرف عينها. هذا العقد نفسه والقرطان نفساهما، كانت في صندوق السيّدة الأمّ، التي كانت أحياناً تعطيها إياها لمشاهدتها. كانت تفوح منها رائحة صدر أمها وأذنيها. والآن...

علا صوت الساز والطنبور، وكانت الصنوج الصغيرة التي وضعتها الراقصة في إبهاميها وسبابتيها تضرب بنظام موزون أيضاً، وكانت تنحني برأسها إلى الخلف وتقترب إلى الأرض بالشعر الشبيه بالشلّال.

---

(١) نسبة إلى الآخوند وهو الشيخ أو القارئ، وهذا النوع من القمصان لا ياقة له يُرتَدى من دون ربطة عنق (المترجمة).

وضعت زبيدة وعاءً بلورياً مملوءاً بالمثلّجات ذات الألوان السبعة وقد تلألأت في قمّتها وردة شمعدان في صينية فضيّة، وكانت لا تزال تنحني أمام ماه منظر حين بدأت ريح قوية تهبّ. ارتعشت رؤوس أشجار الصنوبر والصفصاف المجنون، واشتدّ هبوبها إلى درجة أنّها قلبت المصباح العالي وحملت معها السجّادة الجداريّة، فصرخت النساء ونهضن من أماكنهنّ، وتوقفت الراقصة عن الحركة، وقُطِعَ صوت الساز والطنبور. ارتعشت يد زبيدة وانقلب الإناء، وانطبعت بقعة كبيرة من ألوان سبعة على غطاء الطاولة. تقدّمت مرواريد وجواهر تجريان، وأمسكتا بالعروس من تحت إبطيها واصطحبتاها إلى غرفتها. استقرّت البقعة وأصبحت أكبر وأكبر، واتّخذت شكلاً غريباً. كانت دلنواز الواقفة جانب مكان العروس الخالي، وقد وضعت يديها على طرفي الطاولة الصغيرة، قد أخرجت من داخلها صخباً شديداً.

* * *

كان ميرزا أبو تراب وعروسه الشابّة قد أمضيا وقتاً في غرفة العروسين، وكان لا يزال يوجد وقت طويل حتى الصبح.

من الغرفة الملاصقة لغرفة العروسين كانت تعلو أصوات ضحك نساء يستذكرن خاطرات شبابهنّ ويروين حكايات، وكانت مرواريد وجواهر تقفان خلف الباب تسترقان السمع وتهمسان بهدوء. كانت السيّدة الأمّ تجلس إلى جانب فراش دلنواز، وكان شعرها الأسود منثوراً ومتموّجاً، وعيناها المائلتان حمراوين وحزينتين.

- خذيني... خذيني.

نظرت السيّدة الأمّ عاجزة إلى الليل، إلى الليل الذي كان قد حلّ خلف النافذة، وكانت ثمّة نساء عديدات قد تحلّقن حولها.

- خذيها، البعد يشعرها بالغصّة، تبقى يومين أو ثلاثة هناك فيزول هيجانها وتهدأ.

نهضت السيّدة الأمّ من مكانها ونادت زبيدة التي كانت في المطبخ تصنع الـ "كاتشي "[1]، فأبلغتها رسالة وعادت. بعد ربع ساعة كان المشهديّ أسد الله ينتظر في العربة أمام باب الدار، ركبت دلنواز،التي كانت تلبس رداءً، العربة لتغوص في قلب الليل الممتدّ.

كان الطريق من مختاري راهپور إلى مفرق قلهك طويلاً، وقد أطال لجاما الحصانين المتطاولان شبح بيت خال الأمّ أمام عيني دلنواز. ترجّل المشهدي أسد الله، وتقدّم وقرع حلقة الباب. مضى وقت طويل حتى ظهر ظل الخال عزيز عبر إطار الباب، فترجّلت دلنواز مرتعشة من برد منتصف الليل القارس.

- ابنة ابنة أختك اشتاقت إلى أمها.

هزّ الرجل رأسه مرّات عدّة متأسّفاً، وقد أحدث بياض شعره شرخاً في سواد الليل.

- أيها الزمن الغدّار... تف!

---

(١) نوع من الحلوى الرقيقة (المترجمة).

تقدّم واحتضن البنت.

- أهلاً وسهلاً يا عزيزتي.

نزل أسد الله بالمهماز على عنقي الحصانين.

- انتبه إلى دلنواز كروحك.

دار نصف دائرة وابتعد مسرعاً. كان قد توقّف في مصاف باباد، حيث كانت حمرة الشفق تنبئ بحرارة الليل.

* * *

كان عزيز الله خان على فراش النوم ودلنواز إلى جانبه، وكان الخال يحاول أن يجعلها تنام، ودلنواز تحاول استمالة قلبه:

- أريد أن أرى أمي.
- أمك نائمة يا بنتي العزيزة.
- أريد أمي.
- قلت إنها... نائمة.

استلقت دلنواز على ظهرها وأغمضت عينيها، واستلقى الخال أيضاً. كم صبر حتى علا صوت شخيرها.

خرج من الغرفة على أطراف أصابعه ودخل البستان، وعبر من الطريق الرمليّ الذي كان يمرّ من جانب الأشجار في شكل أفعى ملتوية.

" لا تخف... لا تخف إنه ظلّ! "

كان يقول ذلك لنفسه ويمضي، وكان ضوء المصباح الخافت الذي كان يُرى من نافذة الغرفة في نهاية البستان يمنح قدميه القوة.

على ارتفاع أربع درجات من الرمال التي تغطي أرض البستان يوجد باب ذو مصراعين ولا يوجد قفل يغلق متراسه، وثمّة غرفة صغيرة كانت زاوية ستارتها زهرية اللون قد أزيحت جانباً. ألصقت دلنواز وجهها بالزجاج " يا ويلي..." كانت هناك وسادة ممزّقة العنق ملقاة على الأرض وسجادة بسيطة قاتم وبرها ممدودة عليها.

كانت الأم تجلس هناك ورأسها منحن إلى صدرها. فتحت دلنواز متراس الباب وخَطَت إلى داخل الغرفة. رفعت السيّدة الصغرى رأسها بهدوء وسمّرت نظرتها الملتهبة إليها. كانت تلتمع فيها بارقة من الوعي، وفجأة عادت وانطفأت.

- دلنواز!

علا صوت، متعب ويائس من عمق حنجرة مجروحة. تقدمت دلنواز وأمسكت يدها. كانت اليد حارّة، حارّة جداً، وبكلّ القوة التي كانت في ذراع الطفلة أنهضتها من مكانها. كانت المرأة منصاعة لها كأنها كانت جذر روحها. انحنت دلنواز ورفعت السلسلة، التي كان أحد طرفيها في قدمها والآخر حرّاً، عن الأرض. هل كان الخال أحنّ من الآخرين؟! قادت الأمّ نحو الباب. خرجت السيّدة الصغرى بهدوء وانصياع، وخلف ثوبها البالي كانت السلسلة في يد دلنواز. عبرتا معاً من فوق المروج الرطبة بالندى ومن تحت السماء التي كانت تتحول من الأزرق القاتم إلى الأزرق الفاتح، ثمّ خطتا إلى الطريق الرملي وعبرتا من جانب الأشجار وكتف إحداهما إلى

جانب كتف الأخرى. حال وصولهما مقابل باب البستان الكبير، وسَحبت دلنواز المتراس وخرجتا. سهل واسع... نسيم بارد جعلهما ترتعشان كلتاهما. عبرتا الطريق؛ هضبة في تلك الجهة، وهضاب أخرى في البعيد. كان خطّ الانسياب قد انكسر ثانية؛ وقفت السيّدة الصغرى بتردّد، لكنّ دلنواز قادتها إلى الأمام مرة أخرى. صعدتا إلى أعلى الهضبة بصعوبة وبطء، حيناً هذا إلى الأمام وحيناً ذاك... في أعلى نقطة من الهضبة وقفت دلنواز والسيّدة الصغرى أيضاً. سقط ذيل لباس العروس من يد البنت جرينغ! رفعت السيّدة الصغرى يدها اليسرى نحو السماء. قالت دلنواز:

- اذهبي!

وأشارت إلى البعيد.

كانت المرأة متردّدة، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف. مرّة أخرى أشارت إليها دلنواز إلى سطح الهضبة التي كانت في الطرف الآخر.

- اذهبي! قلت اذهبي!

سارت السيّدة الصغرى خطوة، وخطوة أخرى. هبطت من أعلى الهضبة حيث كانت أشعة الشمس تشرق من الجهة المقابلة، عند ذلك تطاولت دلنواز من فوق أعلى هضبة كشفتها حتى تلك اللحظة، تطاولت، وتطاولت، وتطاولت وفي ذهنها ذي السنوات السبع نمت فكرة. لم تقل لكن لو قالت لكانت قد قالت:

- " هل الشمس أيضاً؟!"

* * *

كانت السيّدة الأمّ قد لفّت الملاءة الفوال الأزرق حولها، وكانت تقف على عتبة الباب الذي يفتح باتجاه الشارع تنتظر والفانوس في يدها. وأمام الشمس التي كانت تشرق شيئاً فشيئاً، كان نور الفانوس الأصفر يخفت، وكانت قامة مأمور تقسيم المياه الذي كان يحمل الرفش ويزيل القاذورات من مجرى الماء تصبح أكثر ضياءً.

كانت السيّدة الأمّ تضغط بكتفها على جدار الحيّ الطيني وتقرأ:

- " الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات... ".

تساقط ورق الشجر، وحمل النسيم نُتَف الورق من هذا الجانب إلى ذاك الجانب.

كسر صوت الضيوف الذين كانوا قد استيقظوا من نوم ليلة الأمس ليشهدوا صباح ليلة العرس سكون الصباح. أنزلت السيّدة الأمّ التي ملّت الانتظار فتيل الفانوس وأطفأته بحركة، ثمّ ألقت نظرة على المصطبة الإسمنتية أمام البيت، نظّفت غبارها برؤوس أصابعها وجلست على حافتها. كانت سعيدة لأنها في مأمن من أعين سكّان زقاق الأكاسيا المتطفلة، وكان الباب الذي يفتح على الشارع أكثر كتماناً للأسرار. قلق غريب جعل حركة الشفتين الجافتين الرقيقتين أسرع.

- هل سلّم الطفلة إلى عزيز الله خان؟ ماذا لو كان الحصانان قد جمحا؟ لِمَ لم يأتِ هذا الرجل إذاً؟ في أي قبر أنت يا مشهديّ؟

- السلام على حضرة والدة ميرزا أبي تراب المكرّمة!

ارتعدت المرأة، إذ لم تكن تنتظر رؤية أحد غير المشهديّ.

جار في منتصف العمر، متوسط الطول، ممتلئ الوجه، ضيق العينين، يرتدي بذلة جميلة الخياطة، ويحمل عصاً ذات قبضة فضيّة. رفع القبعة عن رأسه، وقال وهو يحني رأسه:

- مبارك! إن شاء الله تعلو أصوات السعادة دائماً من هذا البيت. ماذا تفعلين في هذا الصباح الباكر هنا؟ هل يستطيع هذا الحقير فعل شيء؟ صدّقيني أنا مستعدّ للخدمة.

نهضت السيّدة الأمّ من مكانها، وأجابت عن سؤاله بسؤال آخر:

- السلام عليكم سيد رفقاء! كأنّ السيدة الوالدة وابنتها لم تحسبانا أهلاً، إذ لم تلبّيا دعوتنا و...

احمرّ وجه الرجل الممتلئ:

- كما تريدين. صدّقي أنهما...

- اسمح لي أن أكمل كلامي... لو لم يكن الأمر كذلك لكانتا قد أتعبتا أقدامهما وزيّنتا مجلسنا بحضورهما. لا بدّ أنّهما كانتا تتوقّعان أن يسلّمهما ابني ميرزا بطاقة الدعوة بيده، في حين كنّا نعدّهما من المقرّبين، وكنّا نظنّ...

تنحنح السيد رفقاء:

- انتبهي! انتبهي! قسماً بروحك العزيزة لم يكن في ذهننا ذرّة من هذه الخيالات الواهية؛ فمن القضاء والقَدَر، منذ أيّام عدّة عاد الألم إلى رِجل السيدة الوالدة مرّة أخرى، والصبيّة أيضاً جلست إلى جوارها. فمنذ أن

توفيت أفخم الملوك وأسرعت إلى الدار الباقية أصبحت هذه البنت مسكينة ومسؤولة عنّا نحن الاثنين.

نقل العصا من هذه اليد إلى تلك اليد:

- بالمناسبة، السيدة والصبية كانتا قد شاهدتا مجلس فرحكم وسروركم من الإيوان، ولا سيّما تلك الألعاب الناريّة أول الليل، التي كانت ابتكاراً، لكن...

أدارت السيدة وجهها بملل إلى الجهة اليمنى، وقالت:

- أرجو أن يجعل الله عاقبتها خيراً. لا أعرف ماذا حدث.

سأل الجار بفضول:

- اعذريني! هل تنتظرين ميرزا أبا تراب؟

أجابت السيّدة الأمّ بحدّة:

- لا، ليس كذلك يا حضرة السيد رفقاء! مكان ابني ميرزا دافئ وثير. أي عمل لديه ليأتي إلى هنا؟

ضرب الجار، ضاحكاً، بأسفل العصا جذع الشجرة الواقعة إلى جانب النهر بقوة وإحكام:

- في الحقيقة أثْبَتّ بهذا الفعل أنّ الخير في كبار السنّ.

ضغطت السيّدة الأمّ على أسنانها:

- لِتعمَ العين التي تطاله بسوء، بعد سنتين يبلغ ميرزا الرابعة والأربعين من عمره، لا تزال لديه الفرص.

تنحنح الجار ثانيةً:

- لم أقصد إساءة الأدب. من باب المزاح فقط، ولا سيّما أن الوالدة تحمل همّ ابنها الأوّل إلى حدّ كبير. هل من دواء، علاج، ربما تصحو؟

حملت السيّدة الأمّ الفانوس المطفأ عن الأرض، ثمّ عبست وضغطت على فكّيها وأجابت بحدّة:

- ننتظر استجابة دعاء أمثالكم. الطبيب والدواء كانا بلا نتيجة.

ربّما كان دعاؤكم مستجاباً، في تلك الحال أيضاً سيلقي ميرزا ظلّه على زوجتيه. ألن يكون قادراً على اثنتين؟

وضع السيد رفقاء قبعته على رأسه، وحنى رأسه بوجه أحمر:

- لِمَ لا؟ اللعنة على من ينكر ذلك.

سمّرت السيّدة الأمّ نظرها مرة أخرى إلى ناصية الشارع، حيث كان كنّاس المحلّة قد جعل من الأوراق المتساقطة هضبة مشتعلة. لكن بسماع صوت طقطقة النعال التي تحتكّ بأرضيّة الدار، وضعت يدها على مصراع الباب الخشبي. لم تكن الستارة القطنية الغليظة قد أزيحت من أمام وجهها بعد حتى أتت جواهر ومرواريد لاهثتين، وأرتاها المنديل الأبيض الذي يبدو كحمامة متعبة جريحة طلباً للبشارة. انفرجت شفتا السيدة الرقيقتان الجافتان عن ابتسامة، مدّت يدها وسحبت السرّ المكنون من بين القبضات المرتعشة وأخفته خلف جناح ملاءتها، ثمّ ذهبت إلى الغرفة المجاورة لتخفيه في قلب الصندوق الصغير وتحضر لهما بشارة مرافقة العروس.

كان صوت المزهر والطبلة والتصفيق يزحف إلى الداخل من النوافذ نصف المفتوحة، ويسلب النوم من أعين الجيران. حلّت زبيدة محلّ السيّدة الأمّ فوق المصطبة الإسمنتية أمام الباب. قالت بعبوس وتجهّم للرجل بائع الحليب الذي يضغط زمورالرّكاب ويسير على نحو سيّيء وغير منظّم:

- إنّك لم تحضر تحفة نَطَنْز(١) من الصباح الباكر حتى تصدر هذه الضوضاء والفوضى في الطريق.

وبانتظار ظهور شبح العربة، سمّرت نظرها إلى ناصية الشارع: " ما الذي حلّ بطفلتي البريئة؟ "

* * *

أوقف المشهديّ أسد الله العربة أمام المقهى، ونادى عامل القهوجيّ:

- ياسر! حبّة قند(٢).

أحضر العامل الدلو الزرقاء التي كان قد ملأها بالشعير كريه الرائحة بسرعة ومهارة، نثره على تراب ممرّ المشاة وغاب في جوّ المقهى العابق بالدخان والأنفاس ثمّ عاد ثانية.

ألقى المشهديّ سرّاً في أذني الحصانين وهو يمسح العَرَق بالمنديل عن ظهريهما وكفليهما. ووضع، وهو يناجيهما، قبضة يده التي انطوت على

---

(١) هناك اختلاف حول تحفة نطنز، والأغلب أنها نوع من الفاكهة المجففة تشبه الإجاص لا تُزْرَع إلا في نطنز، ويُرَشّ عليها الطحين والجوز وتدعى جوز قند (المترجمة).

(٢) القند هو مكعبات السكّر التي تستخدم لتحلية الشاي وما شابه بدل السكر العادي (المترجمة).

بياض حبّات عدّة من القند أمام فميهما. وبحركة الرأس سلّم على صاحب المقهى الذي كان وجهه، الغائب خلف الزجاج المغطّى بالبخار، يبدو سميناً معافى.

بعد لحظة وضع قدمه على مدخل المقهى، فقرع صاحب المقهى الجرس الموجود فوق رأسه.

دنغ! دنغ! دنغ!

- سفرك سعيد يا مشهديّ. عجباً! إنّ نجم سهيل في هذه الناحية! هل ضللت الطريق؟

التفت عدد من الأشخاص الذين كانوا يجلسون بسرور على المصاطب نحوهما، وتبادل واحد أو اثنان التحية أيضاً من بين شفاههما المغلقة.

جال نظر المشهديّ حوله بعينيه الزرقاوين، ومسح بيده على رأسه الذي تساقط معظم شعره، ثمّ جلس على ركبتيه فوق مصطبة خالية.

- آخر مرّة أتيتُ فيها لم تكن موجوداً. يجب أن تُسْأَل أنت أين كنت أيها الرجل.

نقل المشهديّ قطعة القماش الغليظة المتسخة التي كان قد ألقاها على إحدى كتفيه إلى الكتف الأخرى وحرّك طاقيّته على رأسه، وأظهر بابتسامة أسنانه الصفر،وقال بصوت مبحوح:

- زرنا ولايتنا وعدنا. أقمنا عرساً ومأتماً.

حمل نارجيلة من صفّ النراجيل المصطفّة بعضها إلى جانب بعض، وجلس إلى الجانب الرماد ينفخ على الجمرات:

- منذ أن كانت الدنيا هكذا كانت! إمّا أفراح وإمّا أتراح. قُلْ لي الآن ماذا تأكل يا رجل؟

مسح المشهديّ أسد الله بيده على ذقنه:

- خاكينه[1] مع الدبس، ويدعمها قدح من الشاي المرّ أيضاً.

وأضاف بهدوء:

- مرّ كالسمّ.

وضع صاحب المقهى النارجيلة مقابله، وأعطاه أنبوبة الخرطوم.

- على عيني!

غيّر المشهديّ جلسته فجلس على ركبة واحدة، ووضع أنبوبة الخرطوم في زاوية شفتيه ووضع مرفقه على عظمة ركبته. ألقى نظرة بطرف عينه على روّاد المقهى؛ كان بعضهم مشغولاً بالكلام، وبعضهم يتناول الفطور أو يدخّن النارجيلة. في زُرْقَة صباح المقهى كان بضع أشخاص قد تحلّقوا أيضاً حول خزانة الذكريات، فكانوا يحدّقون إلى زاوية وقد وضعوا على أكتافهم لباساً من الفرو.

---

(١) طعام يتكوّن من البيض المخفوق المطبوخ بالسمن، والمضاف إليه الطحين والسكّر أحياناً (المترجمة).

نظر المشهديّ أسد الله إلى الناحية الأخرى، كان من الممكن رؤية المنظر المقابل من خلف الزجاج المبلّل بالعرق من أماكن عدّة. كانت ريح خفيفة تهبّ وتحرّك أوراق الأشجار، وتذكّر أنه كان قد خرج من بيت سيّده مرّتين في غضون ليلتين متقاربتين، وكان في كلّ مرّة قد قطع وردة من الغصن، ربّما لهذا السبب أصبح قلبه مضطرباً؛ فيشعر بحرقة في عينه، ويشعر بألم في أنفه.

استدار بلا قصد، ووجّه سبّابته جهة اليمين:

" يا ضامن الغزال[1]! أقسم بغربتك أني لست مذنباً؛ أمروا فنفّذت. إن نظرت بعين لطفك إلى تلك التعسة فسأكون نذلاً إن لم آتِ بهذه العربة لزيارتك."

مسح زاوية عينه بالإبهام والسبّابة وسحب مخاطه إلى داخل أنفه. وضع ياسر صينية الفطور أمامه وقد جعلت ابتسامة مليحة أسارير وجهه دقيق القسمات تنفرج:

- ماذا حدث يا مشهديّ؟ هل غرقت سفنك لا قدّر الله؟

تنهّد المشهديّ:

- لا تضع يدك على قلبي أيّها الشابّ لأنّه غارق في الدم.

أمسك لقمة صغيرة ووضعها في فمه، ثمّ لقمة أخرى. لكن سرعان ما وضع الصينية جانباً واحتسى قدح الشاي المرّ، ثمّ وضع أنبوب النارجيلة في زاوية فمه ثانيةً وسحب دخانها إلى صدره.

---

(١) ضامن الغزال هو الإمام عليّ بن موسى الرضا حسب قصّة معروفة (المترجمة).

بعد ساعة ركب العربة وسلك طريق البيت، كانت الريح توصل صوتها إلى مسامع الأشجار التي حملت أوراقها معها:

- القلب السعيد لا خبر لديه عن قلبه الحزين

الجسم السليم لا خبر لديه عن جسمه المريض

ليس ذنباً، فهذا رسم قديم

فالحُرّ لا خبر له عن أسره(١).

* * *

كان الكلام عن الأشواك مرّاً ولاذعاً؛ كانت الأشواك تلسع قدمَي السيّدة الصغرى، وبحروف ناعمة وصغيرة توضّع الدم على التراب الظمآن، كان التراب الذي كان جُحراً للأفاعي يتكلّم عن الخلاص. كانت المرأة تتقدّم بثوبها البالي في مواجهة الريح، لم يكن محزناً إن علقت شجيرة يابسة بذيل ثوبها ومزّقته أكثر أو انزلق حجرٌ وجعلها تتعثّر على الأرض. لا، لم يكن من خوفٍ إن كان رأس مسمار السلسلة المكوّنة من ألف حلقة قد اقْتُلِعَ من مكانه، وكان ينسحب خلفها وهي تسقط وتنهض فأصبح رفيق دربها، وكذلك رفيق أيامها ولياليها المظلمة. كانت لا تزال تمدّ يدها اليسرى فحتى لو سقطت على الأرض مرّات عدّة، لكن في كلّ مرّة كانت تنهض من مكانها، ترفعها كما كانت في البداية.

أصبح بياض عينيها دامياً، شفتاها ممتلئين بالعطش، فمها جافّاً وجراحها متفتّحة. كانت تسير سقوطاً وزحفاً إلى تلك الجهة التي كانت اليد

---

(١) شعر لبابا طاهر العريان الهمداني (المترجمة).

تقودها إليها. والآن من ذاك العلوّ، في النقطة نفسها التي كانت بداية زحفها، كانت تقف بُنَيَّةٌ ترى حلم الخلاص، على الرغم من أنّ رؤياها الصادقة كانت قد اسْتُبْدِلَت بكابوس مرّ حين كانت الأمّ تسقط على الأرض وتنهض ثانية؛ لكن... لا تريدها مقيّدة بالسلسلة مرّة أخرى. كان على الأم أن تذهب، ألم تكن تظنّ دائماً أنّ كل ما في الوجود كائن خلف تلك الهضبة وذاك الجبل وتلك القمّة العالية؟ أنّ الجنّة كانت تبدأ من ذلك المكان الذي كان الجبل قد اتّجه فيه إليها؟ ألم تكن زبيدة قد حكت لها هذه القصة مرات ومرات؟ في تلك الليالي كلّها التي كانت تذهب فيها من شدّة الخوف، الخوف الأسود، إلى فراشها وتضع قدميها بين قدميها النحيلتين، تطوّق عنقها بيدها وتتغلغل في صدرها رائحة الحنّاء والبودرة المبيّضة.

" ملك الشمس، مضى ومضى ومضى راكباً على حصان أبيض مجنّح حتى وصل إلى طرف ذاك الجانب من الجبل، حينها نزل بهدوء شديد. يا له من جوّ، أي عالم وشجر! أيّ خضرة وريحان! أي قصر، لَبِنَة من ذهب ولَبِنَة من فضة "[1].

إذاً، كان على الأم أن تذهب؛ كان يجب أن تذهب من الطريق الذي يوصلها إلى القصر، ألم يدلّها ذلك السرو الجبليّ، الذي كان يقف وحيداً على الصخر، بإصبعه الخضراء على الطريق؟

نظرت دلنواز إلى أمّها إلى أن اختفت في انحناء الهضبة، ثمّ عادت جرياً جرياً، انزلقت، ركضت، طارت. هبطت سفح الهضبة، كانت جرادات صغيرة تقفز من أمام قدميها، وكانت تعرض قوس قزح المختفي بين

---

(١) مقطع من قصة للأطفال (المترجمة).

أجنحتها. مرّت حين ذهابها من جانب حقل قمح يتماوج تحت نور الشمس الذهبيّ ويتلألأ، كان القمح يغتسل في بياض كلون الضباب، وهو الآن يميل إلى الصُفْرَة. وكانت السوق ملأى بالحليب، كانت تفوح منها رائحة ياقة الأمّ. تباطأت دلنواز لحظة، ثمّ توقفت وأراحت نفسها.إنّها رائحة الحياة. مدّت يدها واقتلعت سنبلة، وفصلت الحبّات واحدة واحدة ونثرتها على كفّ يدها. قسمت خطّ الحبات الصغيرة بحنان إلى قسمين، وألصقتها بعضها ببعض كنصفي وجه التصقا ببعضهما. كانت، وهي تستلقي على كتف السوق الحنون، تحدّقها. كم بقيت هكذا؟

نهضت نصف نهوض على صوت خشخشة السوق البعيدة، وفتحت عينيها. كان الخال القادم من البعيد يقترب في كلّ لحظة أكثر، وحين رآها ركض باقي الطريق. كان قد مدّ ذقنه إلى الأمام، وكانت نظرته حادّة كالألماس. لمّا وصل إليها، دون أيّ سؤال، رفع يده الثقيلة ونزل بها عليها:

- إلى أين؟ إلى أين ذهبتِ بها أيتها البنت الوقحة؟!

ارتعشت أوراق الورد الحمراء والذهبية وتساقطت، فتحت دعسوقة خائفة جناحيها وطارت نحو الجنوب، في البعيد لسعت شوكة قدم السيّدة الصغرى وخرج دم، دم طازج. أطلّت قطرة من الدمع من زاوية عينها اللوزية وتساقطت بهدوء. دفن صراخ الخال قلب دلنواز الصغير تحت ثقل غصّة كبيرة.

- الويل لكِ إن لم نجدها!

* * *

أنزل ميرزا أبو تراب يده الثقيلة بهدوء على وجنة ماه منظر الشاحبة، وأزاح خصلة الشعر التي كانت قد تبلّلت بملوحة الدمع. كانت المرأة مستلقية على الفراش الذي نُثِرَت عليه حبّات عدّة من نُقْل الـ (بيد مشك) فمنحته عطراً جميلاً، ومدّت فوقها لحافاً من الأطلس عليه طاوس كان قد بسط ريشه سحبته حتى أسفل عنقها. كان شعرها الأشقر قد انسدل على الوسادة ذات الوجه المصنوع من قماش الساتان، وكانت عيناها تحدّقان إلى عيني زوجها بحياء ممزوج بدلال.

ألقى ميرزا أبو تراب نظرة على الستارة التي كانت معلّقة أمام الباب الذي يفصل غرفة نوم العروسين عن غرفة النساء الواقفات لاستراق السمع. حينئذ حنى ركبته واقترب بشفتيه من شحمة أذنها بحذر وقال شيئاً ما همساً ثمّ نهض. زاوَجَ زاوية الستارة المفتوحة مع نظيرتها بدقّة، ثمّ تقدّم نحو المدفأة وأطفأ المصباحين المضاءين، وأزاح زاوية الشبكة عن المرآة وفتح ذراعي مشط جيبيّ عن بعضهما، مشّط شعره إلى الخلف ونظر إلى صورة المرأة التي استلقت بعينين مخمورتين والنُقْل بين شفتيها.

- من الأفضل أن تنهضي، فما إن أخطو إلى الخارج فسيندَفِعْن كالجراد والنمل حولك، فقد حان الوقت لتمسحي على رأسك ووجهك.

ذهب وأخذ بذلة عرسه عن الكرسي البولونيّ ولبسها. مضغت ماه منظر اللوزة الصغيرة التي كانت في فمها. أخذ ميرزا أبو تراب الرداء الزهريّ اللون الساتانيّ المطرّزعلى ياقته عنقود عنب الذي كان على المشجب الخشبيّ المنصوب على الجدار وألقاه نحوها:

- البسيه! القمر المحتجب أجمل.

مرّرت ماه منظر يدها البيضاء على اللحاف، وقبضت على ياقة اللباس. جذبته إلى الأمام وحدّقت إلى تلألؤ عنقود العنب، أحدثت بظفرها تخريشاً على القماش، وقالت بصوت فيه عِرْق من غيرتها الخفيفة:

- هل يمكن أن أسأل لِمَن كان؟

ألقى ميرزا أبو تراب نظرة إلى داخل زجاج المرآة الذي جعله شعاع النور أكثر وضوحاً الآن، وأغلق زرّ ياقة قميصه وقال:

- لِمَ لا؟ هو فنّ يد أمّ دلنواز كان من نصيبك، لم يكن وفياً لها.

تفحّصت ماه منظر الرداء بوسواس أكثر، نهضت من مكانها بهدوء واندفعت إلى الأعلى أمام عين الرجل، فجعّدت شعرها ولبست الرداء. انحنت وأخذت الدبوس المزيّف الشبيه بالألماس عن اللحاف وهدّأت به موج الشعر. تقدّمت بهدوء نحو المدفأة وأزاحت الشبكة البيضاء من أمام المرآة، وبأحمر الشفاه القاني جعلت لون انحناء شفتيها قاتماً ثمّ دلكت الشفتين إحداهما بالأخرى، وحدّقت إلى صورتها برضا.التقطت بأطراف أصابعها قطعة من البودرة من علبة صغيرة خزفية في شكل قلب كانت قد قسمت بجدار رقيق إلى نصفين، ثمّ فتّتها بين إصبعيها ودلّكت وجهها بمسحوقها، وأخرجت من قسم آخر أحمر الخدّين ودلكت به وجنتيها.

أدخل ميرزا أبو تراب، الذي كان يقف أمام الباب، القسم الخلفي من حذائه بوساطة (السَكَجة) واستعدّ للذهاب. ذهبت ماه منظر نحوه وتأبّطت ذراعيه:

- أستحلفك بالله عُدْ بسرعة. إن قلبي يتصدّع من دونك هنا.

ابتسم ميرزا أبو تراب:

- عجباً! إنّ الإنسان لا يشعر بغربة في بيته.

وهمس:

- إن رأيتِ الطفلة فلاطفيها! بناء اللبنة الأولى مهمّ جداً.

فتّتت ماه منظر قطعة اللوز المتبقّية في فمها تحت أسنانها:

- على عيني!

هزّت ضربات عدّة الباب الموجود بين الغرفتين. خرج ميرزا أبو تراب من الغرفة ولم يكن قد قطع الفسحة السماويّة للمنزل حتى فتحت جواهر ومرواريد مصراع الباب بهزّات عدّة ودخلتا الغرفة.

أغلقتا الباب خلفهما بسرعة وأمسكتا يد ماه منظر، أجلستاها على الكرسي وجلستا على الأرض تحت قدميها وأمطرتاها بالأسئلة، لكن بصوت خافت إلى درجة أن النساء الجالسات خلف الباب للتنصت قد يئسن من سماع كلامهنّ وذهبن إلى باحة الدار لتناول الفطور.

على المائدة الواسعة المفروشة بالقماش الأبيض المنشّى، كانوا قد وضعوا خبز تافتون[1] وخبز[2] رُشّ عليه السمسم بشكل مائل. كانت أواني البلّور ذات القواعد، الملأى بمربيات الكرز وزهر النارنج والتوت البريّ، تلمع في الظلّ المضيء لأحد صباحات آخر الصيف، وعلى رأس مخروط

---

(١) خبز سميك مستدير (المترجمة).

(٢) سبقت الإشارة إليه.

الجبن والزبد المحلّيّ وضع ورد الحنة والشمعدان الذي كان يبشّر بشروق نهار سعيد.

كانت السيّدة الأمّ تجلس، وملاءة الصلاة على رأسها، إلى جانب السماور النحاسيّ الفحميّ الذي كان الماء يغلي داخله ويتصبب من رأسه، وكانت تلمّع الأواني المعدنيّة بقماش أبيض غليظ. ولأنّ الضيوف كانوا قد جلسوا حول المائدة صبت الشاي بلونين لتدور به زبيدة، ثمّ وضعت رأسها على أذنها وحرّكت شفتيها. هزّت زبيدة رأسها وذهبت إلى المطبخ وأحضرت زبديّة خزفية ذات ورد أحمر ملأى بحلوى الكاتشي جميلة اللون يفوح منها عطر ماء الورد والزعفران والسمن الكرمانشاهي الذي يسلب اللبّ، لكن لم تكد تخرج من المطبخ حتى ظهرت جواهر عند الباب بوجهها الذي لفحته الشمس وشعرها المجعّد، ممسكة زاوية ملاءتها بأسنانها وقد وضعت يديها تحت إبطيها:

- أعطني كاتشي السيدة لآخذه!

نظرت إليها زبيدة بذهول:

- سيدة؟ أية سيدة؟

حدّقت جواهر إلى عينيها، ورقّقت صوتها وقالت:

- السيدة ماه منظر!

حكّت زبيدة أسنانها بعضها ببعض:

- لهذا البيت سيدة واحدة لا غير.

ابتسمت جواهر بسخرية، وقالت بصورة أقوى:

- بالتأكيد، لكن من المسلّم به أنه بعد ذلك ستكون ماه منظر هي سيّدة البيت وليس شخصاً آخر.

نظرت زبيدة بغضب:

- لا صبر لي على المشاجرة معك؛ فمعلوم من أيّ طينة أنت. امسكي وخذيها، دعيهم يعطوك ذاك التاج الذي سيضعونه على رأسي.

علا صوت السيّدة الأمّ:

- زبيدة... سيدة زبيدة!

- أتيت سيّدتي العزيزة.

وصلت زبيدة إلى باحة الدار، وأشارت السيدة إلى المائدة التي أصابتها الفوضى وإلى الضيوف الذين كانوا قد سبقوا إلى جمع مائدة الفطور.

- أين أنت يا امرأة؟!

عقدت زبيدة زاويتي ملاءتها خلف عنقها، وبدأت تجمع وسائل المائدة.

لم يمض أكثر من ربع ساعة حتى أزيحت الستارة أمام باب الدار وسُمِع صوت المشهدي أسد الله:

- زبيدة! أنا المشهدي يا زبيدة!

أسرعت زبيدة ووصلت إليه:

- أتيت؟ أتيت؟... أين أنت يا رجل؟

وحين اقتربت أكثر توقفت وحدّقت إلى فمه.

- قل خبراً سعيداً يا رجل.

سكت المشهدي أسد الله وهو يمسح عرق الحصانين بمنديل حريري.

- لِمَ تأخرت إلى هذا الحد؟ إن قلبنا انشغل عليك. أين كنت كلّ هذه المدّة؟

طوى المشهديّ المنديل ووضعه في جيبه:

- ما شأنك أنت؟ قولي للسيدة أن تأتي بنفسها!

تقدمت زبيدة نصف خطوة ووقفت حيث يقف الحصانان.

- أين الطفلة؟
- في المكان الذي كان مقرراً أن تكون فيه.
- إذاً لماذا تجعلنا نضطرب ونقلق؟

أخرج المشهدي أسد الله مكعّبات عدّة من السكّر من جيبه، ووضعها أمام فمي الحصانين.

- ألن تجيبني؟
- يا امرأة، اذهبي وقولي للسيّدة أن تأتي!

نظرت زبيدة إلى القلادة والحبّات الملونة التي انتشرت على ناصيتي الحصانين، ومسحت بيدها على جبينها الذي كان يبدو خالياً:

" أيها الجبين؟ أين ستجلسني؟ "[1].

عادت إلى باحة الدار وأوصلت رسالة زوجها إلى للسيدة، فجاءت السيّدة الأمّ مسرعة أمام الباب:

- ذهبت بنصف عمري يا رجل، قل! أهي بخير أم لا؟

نظر المشهدي في عيني السيّدة مباشرة وقال:

- إنّها بخير وسالمة.

رفعت السيّدة الأمّ يديها إلى السماء:

- الشكر لك يا إلهي، الشكر لك مئة ألف مرة.

- عِشْتَ يارجل، أرحت بالي تعال الآن لتتناول فطورك!

أخرج الرجل غليونه من حزامه:

- هذه الشوكة التي غرِسَت في حلقي لا تَدَع شيئاً ينزل.

- عمّ تتكلّم؟

- الورد الذي قطفته.

- ما هذا الكلام؟

- أخاف يا سيدتي!

- مِمّ؟

- من أن يغضب الله لها يا سيّدة.

---

(1) مثل سائر، حيث يقال إن الجبين دليل على قسمة الإنسان ونصيبه يجلسه إما على الذهب وإما على الرماد (المترجمة).

ضغط بإصبعه على تبغ الغليون دون أن يشعله. ضحكت السيّدة الأمّ ضحكة جافة:

- لماذا تتصوّر أشياء باطلة يا رجل؟ كأنّك فعلت شيئاً! أخذت السيّدة الصغرى لتغيّر جوّاً، وأخذت الطفلة أيضاً لترى أمّها. ما العيب في هذا الفعل؟

اغرورقت عينا المشهديّ بالدمع:

- هل أنت متأكّدة يا سيدة؟
- طبعاً متأكّدة.

وعادت إلى باحة الدار دون أن تقول كلمة أخرى.

أشعل المشهديّ أسد الله عود ثقاب، وأشعل الغليون بسحبتين قويتين أو ثلاث:

-" إن كان الأمر كما تزعم السيدة، لِمَ إذاً كان قلبها يحترق إلى هذه الدرجة؟ "

سحب عزيز الله خان المعلم عبّاس من الغرفة الخربة في نهاية البستان، التي غابت خلف السقالة:

- إلى متى ستنام كالميّت؟ انهض أيها الرجيل الذي يسيل مخاطه! أهكذا تحفظ الأمانة؟

ضرب المعلم عباس بيديه على رأسه:

- يا أبا الفضل! السيّدة الصغرى؟

أصبحت عيناه الحولاوان أكثر حَوَلاً، وساقاه القصيرتان ملتصقتين ببعضهما. سحب ماء أنفه إلى الأعلى، ورفع يديه المرتجفتين.

- هل ضاعت؟ كيف؟

مدّ رأسه إلى الجانب الذي كانت فيه غرفة السيّدة الصغرى. كان مصراعا الباب مفتوحين والريش متناثراً على الفراش. لم يكن هناك أثر لأيّ طائر:

- طار الطائر من القفص؟ كيف حدث هذا؟
- كيف؟ في منتصف الليل وأنت تشخر أيها الرجيل الأبله!

تأوّه المعلم عباس:

- بروح رسول الله...

صرخ عزيز الله خان:

- إنك تقبض راتباً لتحرس البيت أم... عقلك ليس هنا.
- انحنى المعلم عباس:
- بروح تراب أبي كنت أرى مناماً، لذا أصبح نومي ثقيلاً، الآن، ماذا حدث؟
- أيها الأحمق! لقد أحضروا دلنواز، ألم تعرف؟... حينئذ كنت ترى مناماً؟

قال بصوت كالصافرة:

- السيّدة دلنواز؟!

وسمّر نظرته إلى عينين دامعتين كانتا تنظران إليهما من خلف الباب البعيد لغرفة الطابق الثاني من العمارة.

- السيدة الصغيرة هناك.

قذفه عزيز الله خان بركلة إلى الأمام:

- أعلم مَن هناك أيها الأحمق! حدّثنا عن الشخص الذي ليس هنا. انصرف! سِرْ، لنرَ!

انتفض المعلم عباس كمن استيقظ من نوم ثقيل وركض نحو باب البستان. فتح الباب، ولمّا وصل عزيز الله خان توقّف ليسبقه، وعندها أغلقه وسار:

- يعني لم تقل نور العين أين تركت أمّها؟ يا قمر بني هاشم! إن لم تكن قد وقعت حتى الآن بيد نذل، تكون محظوظة جدّاً.

صعد عزيز الله خان بخطوات واسعة الهضبة إلى قمّتها؛ وذقنه إلى الأمام، ويد الريح قد جعلت حلقات شعره الأبيض مضطربة، وسار المعلم عباس أيضاً بخطوات قصيرة خلفه وهو يعرج:

- أرجو من الله ألّا يكونوا قد رموها في النهر. لا إله إلا الله، منذ ثلاث ليالٍ كانوا قد أخرجوا جسد امرأة من النهر. وكيف كانت؟ لا ابتلى الله بذلك حياً، عارية كما ولدتها أمّها.

صرخ عزيز الله خان وهو يهبط منحدر الهضبة:

- حثّ السير بدل الثرثرة أيّها الرجيل!

وضع المعلم عباس أصابع يده الأربع على عينيه وركض خلفه لاهثاً:

- على عيني يا سيدي! أنا غلامك، مولود دارك. لو تكلّمتُ فإن ذلك من حرقة القلب وليس ثرثرة. ليت الإنسان يستطيع الحصول على الأصل والنسب.

كان عزيز الله خان قد وصل إلى أعلى الهضبة، ووضع يده على عينيه كالمظلّة. كان قد عرف هذا السهل وهذه الهضبة منذ سنوات، وكان يعرف زواياها وأطرافها ككفّ يده.

كان قد داس بقدمه على هذا التراب شبراً شبراً، لكنه في هذا الصباح المضيء لم يكن يرى غير ليلٍ مظلم. نظر بدقّة أكثر إلى هناك حيث كان ينتهي انحدار الهضبة، وكانت تُرى هيئة أشجار عدّة مصطفّة في المكان الذي يتقدّم فيه نهر بهدوء حيث كان رجل قد حمل صناديق توت على حماره وهو يقرأ الغزل.

سار عزيز الله خان مرة أخرى وهو يسمع أنفاس المعلم عباس السريعة والمتقطعة خلفه. هذه المرة هبط منحدر الهضبة؛ انزلق، ركض، توقف، ونظر إلى الخلف. كان المعلّم عباس يتقدم وهو يعرج، فناداه بصراخ ثمّ تابع السير. مرّ بين صفّ الأشجار، وحدّق إلى قلب النهر الذي كان يمرّ بسرعة.

" الويل لي! كم صنت الأمانة يا أختي! آه أيتها السيّدة الصغرى..."

كان يطلق صوته ولا يصغي إلى بكاء الرجل الذي كان أحول وأعرج، وذنبه أنّه في منتصف الليل حيث لم يكن عليه أن يستسلم إلى النوم، سقط لا يعي ولا يسمع، وترك الحبل على الغارب.

- اخرس أيها الرُجَيْل عديم المسؤولية، لو كنت يا ملعون الأب قد تركت النوم بعينين مفتوحتين لما كنّا الآن قد وقعنا في هذه المصيبة.

توقّف المعلم عباس، وكان قد أخفى وجهه بيديه.

كان ثمّة لوح حجريّ كبير قد جعل الطريق ضيّقاً، فتوقّف عزيز الله خان لحظة واتّكأ عليه:

- ماذا أقول لزوجها؟ ماذا أقول لأختي وزوجها، ماذا أقول لجيش من العائلة؟

فجأة سكت وأصغى إلى صوت خشخشة، بعد ذلك دار حول اللوح الحجريّ بعجلة ونظر إلى الأرض... بضع حلقات من السلسلة. بضع حبات من سلسلة رماديّة كذيل أفعى تتحرك على الأرض بحركة خفيفة. انحنى، كان زوج من العيون السود، يحترق لمعانهما كفحم مذاب ويصبح رماداً، ينظر إليه.

كانت السيّدة الصغرى قد زحفت داخل تجويف اللوح الحجري، وكانت تحدّق إلى الأمام وقدماها في حضنها.

جلس عزيز الله خان بركبتيه اللّتين كانتا ترتجفان أمام اللوح الحجريّ على الأرض:

- آه يا مسكينتي، ويلي... يا بنة أختي التعسة.

انكمشت المرأة وتراجعت، وسجد المعلم عباس مبتهجاً، ومرّغ وجهه بالتراب.

- إلهي شكرك! شكرك مئة ألف مرة!

زحف عزيز الله خان إلى الأمام أكثر:

- هل تعرفينني يا سيدتي؟ أنا عزيز خالك.

لمعت في نظرة المرأة شرارة من الوعي، وانطفأت بلمحة.

- أحسنت يا سيدتي! لقد لجأت إلى مكان جيّد. منذ البداية كنت فتاة عاقلة؛ عاقلة وسيّدة. والآن أعطيَني يدكِ! وتعالي اخرجي! تعالي فدلنواز تنتظرك.

مدّت يدها، كشخص يريد أن يسحر أفعى حدقت إلى عينيه. أمسك ساعدها العاري وجذبها بهدوء نحوه. انحنت السيّدة الصغرى وخرجت من تحت الحجر.

وقفت على قدميها بصعوبة، وأبقت قدميها مفتوحتين وحنت كتفيها، كأنّ الحجر لا يزال فوق رأسها. قفز المعلّم عباس من مكانه كقطة عرجاء، وأمسك نهاية السلسلة.

- أخطأتُ حين نمتُ، أجرمتُ حين نمت.

حدّقه عزيز الله خان بغضب:

- اخرس أيها الضبّ!

ومسح العرق عن جبهته.

خطت السيّدة الصغرى أول خطوة، سحبت سحليّة نفسها من كَنَف شجيرة، طارت جرادة وعرضت الألوان المتداخلة خلف جناحيها، خطت خطوة أخرى، وثانيةً كان صوت النهر متناغماً مع أصوات أقدامهم.

رجلان وامرأة، في صباح يوم سماؤه مشمسة بلا شوائب، يهبّ فيه نسيم عليل من السماء إلى الجنوب.

لمّا أفلتت نهاية السلسلة من يد الرجل ووقعت على الأرض إلى جواره، وجّه عزيز الله ركلة إلى رِجل المعلّم عباس، وقبض على ذراع السيّدة الصغرى:

- "إلى أين تذهبين أيّتها السيّدة الصغرى؛ عروس أبي تراب سيّئة الحظ؟ ".

أنَّت المرأة وتوقفت، وترطّبت الأرض بقطرات من الدم، فنزع عزيز الله خان قميصه بسرعة وقسمه نصفين، وجلس على الأرض ورفع قدمها اليمنى. كانت قطعة من الزجاج المكسور قد أحدثت شقاً عميقاً في جلد باطن قدمها ولحمه، فأخرج الزجاجة.

أنّت السيّدة الصغرى:

- يا ويلي... يا ويلي.

وبصوت متعب، صوت متعب ومنكسر كنبع يشقّ طريقه بصعوبة من وسط حجر صلد غنّت بصوت منخفض:

- ذهبت إلى ضفة النهر

رأيت البلبل يغرّد

قلت للبلبل المجنون

تعال لنذهب إلى البيت

احضّر لك النارجيلة

أنفث دخانها

يا ويلي... يا ويلي

يا ويلي... يا ويلي

ربط عزيز الله خان الجرح، وقبّل قبضتها الملوثة بالتراب، أمسكها من تحت إبطها وقال:

- لنذهب!

لم يكن هناك خطر إن رآها الجيران، الذين يدعونها الأميرة القاجارية، نصف عارية ومضطربة. فقط كان الخجل من الدم الذي كان يبقى على الأرض من آثار قدمي ابنة أخته، كأنّ أخته كانت في تلك الجهة من مدينة طهران مع زوجها وأولادها وعذاباتها، وهو في هذه الجهة من المدينة بلا زوج ولا أولاد وبقلب يفيض بالملل.

قطعوا باقي الطريق بهدوء تام، وابتعدواعن أطراف النهر، ثمّ انعطفوا حول حقل القمح. موج داخل موج من الذهب الخالص، تفوح منه رائحة حليب، حليب طازج.

ضغطت المرأة على الأرض بقدمها أمام هذا البحر الأصفر، وأخذت تشمّ كأنثى القطّة بقوة، ولم تتحرك من مكانها ثانية.

- لِمَ لا تسيرين يا سيدتي؟

فجأة حرّرت ذراعها من يد عزيز الله خان وركضت،انفلتت السلسلة من يد المعلم عباس وسُحِبَت على الأرض.

- يا ويلي... يا ويلي!

انسحبت السيّدة الصغرى نحو حقل القمح وهي تصرخ، مزّقت ثوبها عن جسدها وتدحرجت على الأرض، وركض الرجلان خلفها، وصل عزيز الله خان إليها وأمسك يديها بقوة، وتموّجت سوق القمح وتكسّرت من حركة يديها وقدميها الشديدة، كان المعلم عباس قد وضع يده على عينيه وانحنى على الأرض، كم استمرّ هذا الجدال غير المتكافئ؟ في النهاية توقّفت السيّدة الصغرى عن المقاومة متعبة، وغاصت بوجهها بين سوق القمح المتكسّرة، وتوقّفت عن الحركة.

جلس عزيز الله خان يلهث كالهرّة التي نصبت كميناً للفأرة، لكن السيّدة الصغرى كانت هادئة. كانت تتنفّس في صدرها عطر السوق المكسورة مع كل نفس، ولم تنهض من مكانها. هل هي رائحة دلنواز؟

رفع المعلم عباس رأسه وألقى نصف نظرة، وانحنى عزيز الله خان وأبعد السنابل المتكسّرة والذهبيّة الملتصقة بشعر السيّدة الصغرى، وفي الوقت نفسه كان منشغلاً بالحديث معها، فكان ينسج كلمات مع بعضها ويخرجها ومن كلّ عشر كلمات كان يلفظ اسم دلنواز تسع مرات.

بعد ساعة كان رأس المسمار قد غاص في الجدار في الغرفة الصغيرة الموجودة في نهاية البستان؛ رأس المسمار الذي يمسك رأس السلسلة، السلسلة التي كانت تضغط بأسنانها على لحم قدم السيّدة الصغرى.

قدح ماء، وزبديّة طعام، وعينان لوزيتان لبُنَيّة كانت تراقب من خلف الأبواب الجانبية، وهي تمصّ إبهامها. إنّها سلسلة ساحل الألم.

* * *

مدّ أحمد عليخان يده وأنزل لفّة الكريب السميك الثمين من الصف الثالث للخزانة الجدارية. أخرجت نيمتاج يدها البلوريّة التي كانت قد زُيّنت بسوار ذهبيّ في شكل أفعى من تحت ملاءتها، وخرّشت على القماش برأس ظفرها:

- يا إلهي كم هو ناعم!

كانت قد أزاحت الملاءة حتى فرق رأسها، وكان يظهر بريق شعرها الذهبيّ المجعّد في شكل حلقات، وقد سمّرت حدقتي عينيها الزرقاوين في عيني الرجل وضحكت بملء فمها:

- اقطع خمسة أذرع ونصفاً يا أحمد عليخان!

ألقى الرجل لفّة القماش على الطاولة الخشبية، وانتزع صورتي الملاكين الورقيين اللتين كانتا على رأسي لفّة القماش ووضعهما في جيبه. " من أجل الأولاد "، وأدار اللفة على الطاولة:

- وهذه خمسة أذرع ونصف.

أدخل نصل المقص في طيات القماش وقال:

- مبارك!

تمزّق القماش بعضه عن بعض بصوت يشبه صوت الأنين. مدّت نيمتاج يدها وأخذت القطعة، ووضعتها على رأسها ونظرت إلى نفسها أمام مرآة صغيرة ملتصقة بالجدار:

- ما من أحد أيضاً ليخبرني هل يليق بي أو لا؟!

كان أحمد عليخان يقف صامتاً محدّقاً إلي الطاولة. ألقت نيمتاج القماش على الطاولة:

- حينما أذهب إلى البيت سوف أسأل عمّتك إن كانت تليق بي أو لا.

ما شاء الله، ألف ما شاء الله؛ إنها أكثر تفاؤلاً من الجميع، وأكثر حيويّة.

أخذ أحمد عليخان قطعة القماش وطواها، ولفّها في صحيفة قديمة وربطها بخيط قطنيّ بإحكام:

- مع السلامة.

ابتسمت المرأة:

- أنت لا تبيع الحنظل يا حاج! هل من كلمة! حديث!

مسح أحمد عليخان بيده على لحيته:

- لا إله إلا الله! من أين تعرفين عمّة العبد الفقير؟!

- من أين؟! حسناً، أنا مستأجرة عندها. لو لم تكن مهملاً لأقاربك لكنت رأيتني في تلك الأنحاء. إنّ ما تقوله المخلوقة حقّ، إن العالم عالم بلا وفاء.

تأوّهت مرة أخرى، وجالت بنظرها على صفّ الأقمشة:

- اقطع لي من القماش الجورجيت ذاك ذي الورد المخمليّ بمقدار ثوب واسع بكمّين كالحلقة.

دخلت متسوّقة جديدة المحلّ، فردّ أحمد عليخان على سلامها. أنزل لفّة قماش أخرى بسرعة وقصّ القماش ووضعه داخل الربطة السابقة. انشغلت المتسوّقة بمشاهدة الأقمشة التي كانت تغطي الجدار كالشلّال الملون من السقف إلى منتصف الجدار.

- هل تطلبين شيئاً؟

- كم أصبح حسابي يا أحمد عليخان؟

أخرج أحمد عليخان دفتراً مغلّفاً بالجلد، وكتب عليه أسطراً عدّة بالخط الديوانيّ.

- لا شيء يستحقّ.

ابتسمت نيمتاج:

- صاحبه يستحقّ.

قال أحمد عليخان:

عشرة تومانات والباقي يبقى إلى أي وقت آخر تمرّين فيه من هنا.

أخرجت المرأة النقود من محفظتها، ووضعتها على الطاولة:

- تفضّل!

أضافت بعد صمت:

- لا تَدَع عمّتك تنتظر! إنها مسنّة ولن تعيش طويلاً. هذا لا يرضي الله.

ثمّ خرجت من الباب وهي تنزلق وسط ملاءتها السوداء المموّجة.

أخذ أحمد عليخان نفساً عميقاً:

- اللعنة على الشيطان! هو بعينه، بذاته، فقط ينقصها ذيل.

واتجه إلى المتسوّقة التي كانت تقف منتظرة:

- تفضّلي!

أنزل باب الدكّان، كان وقت صلاة الظهر. جلس على أطراف أصابعه وأدار المفتاح في القفل، وتأكد من إغلاقه ثمّ سار بهدوء. لم يكن الطريق من الدكّان إلى البيت طويلاً، وكان قد اعتاد قطع هذه المسافة من الطريق مشياً. اشترى من بائع الكبدة سيخين من الكبدة وأكلهما، فحينما يشبع بطنه كان مزاجه السيّئ يتحسن. قطع شارع " مولوي "، وانعطف إلى حيّ صفر القصّاب، فاشترى من بائع جائل كان يبيع ذهب ورامين[1] شمّامتين وتابع طريقه. ردّ السلام على اثنين من المارّة، وعلى أطفال عدّة عراة كانوا يبحثون

(١) المقصود به بطيخ محافظة ورامين الأصفر (المترجمة).

عن عشرة شاهيات[1] وقران[2]. توقف أمام بيت ذي باب خشبيّ رحل عنه لونه، وجدران منتفخة مبنيّة من مزيج الطين والتبن. كانت ثمّة شجرة دلب معمّرة عالية قد ألقت أغصانها على باب البيت. كان الباب نصف مفتوح، ومطرقته في شكل يد أسد مزيّنة . أدخل أحمد عليخان رأسه في ظلمة الرواق وصرخ:

- سلام يا عمّتي العزيزة! هل تسمحين لي؟

حين سماع الصوت، غيرت المرأة التي كانت تجلس في نهاية الغرفة المقابلة للرواق جلستها على فراشها القطنيّ الصغير، وضحكت بملء فيها:

- سلام على وجهك القمريّ يا عمّة!... تعال!... ادخل يا أحمد عليخان، يا عديم الوفاء!

دخل الرجل البيت، نظر إلى المدخل المضيء للرواق الهلاليّ الذي يصل الدهليز بباحة الدار الملأى بالورد والأشجار حيث كانت الشمس الخافتة تغطي وجه طين البركة والشمشاد المغبرّ. وضع فردتي حذائه إحداهما إلى جانب الأخرى أمام الباب، ودخل الغرفة.

- كيف الحال والأخبار يا عمّتي؟

انزلقت المرأة العجوز إلى وسط الغرفة، وتقدّمت ومدّت يديها نحوه، كان غطاء رأسها قد سقط، وكان شعرها الشبيه بالقطن يلمع، وكان الدمع

---

(١) الشاهي عملة معدنية زهيدة (المترجمة).

(٢) القران عملة فضية تقسم إلى عشرين شاهياً (المترجمة).

يجري من عينيها الزرقاوين على الجلد الذي عكّرت صفاءه التجاعيد الصغيرة.

- كيف الحال؟ كيف الأحوال؟ ألا يجب أن تأتي كي تزور عمّتك العجوز؟

قبّلته، حيث كان منحنياً، وتابعت:

- انظر! قدماي متورّمتان كالقربة.

أخرجت ساقي بنطالها القطني الرخيص بصعوبة من داخل ساقي جوربيها الطويلين القطنيّين السوداوين ورفعتهما:

- انظر! إنّها الخيار بعينه!

ثم قلبت شفتها:

- لا أحد لديّ يا بن أخي، لا أحد، ولا عمل، لا طبيب، لا دواء، لا سياحة، لا زيارة.

وضع أحمد عليخان الشمّام جانباً، واتّكأ على الوسادة في صدر الغرفة.

- ثانيةً لا تشكرين يا عمّتي العزيزة، إن الله يغضب.

- على ماذا أشكر، وعلى ماذا؟ على وحدتي، على عجزي، على الألم الذي أصبح مؤنسي من الصباح إلى المساء لا يتركني؟

حدّق أحمد عليخان إلى الباب نصف المفتوح على باحة الدار، وفردة الستارة المزاحة جانباً. كانت امرأة تغربل الرزّ خلف الشمشاد المغبرّ، ومع كل حركة كان يسقط موج في تنورة ثوبها المتغضّن.

- أين تركيزك يا أحمد عليخان؟

كان جلد وجه الرجل قد تجمّد، وكان ينظر كأن لا أحد هناك.

- اللعنة على الشيطان!

استدار والتفت إلى المرأة العجوز:

- كنت تقولين...

مدّت العمة نفسها على الأرض، تناولت موسىً وطبقاً صغيراً، ثمّ قسمت الشمّامة نصفين، وألقت بذورها في قدح إلى جانب السماور، ووضعت نصفها فوق عتبة النافذة، وقطّعت القسم الثاني قطعاً هلالية ووضعتها أمامه.

- تعال كُل، كل لترطّب حلقك أفضل من كلامي هذا الذي يصيبك باليأس!

أخذ أحمد عليخان قطعة ووضعها في فمه، ومضغ في البداية بلذّة، ثم عبس:

- أوف، إنّها فاسدة.

تناولت العمة إناءً ممتلئاً بقطع سكر النبات والـ " شَكَر بنير"[1] ووضعته أمامه:

- كُلْ من هذا وحَلِّ فمك! هذه بتلك. هذا صنعته لي جارتي، خذ لأولادك أيضاً.

---

(١) نوع من النِقل يتكون من السكر والطحين ومعطرات كالزنجبيل والفانيليا (المترجمة).

ثمّ ضيّقت عينيها وحدّقت إلى وجه أحمد عليخان:

- كيف هي السيّدة صنم؟ هل لا تزال تتشاجر معك يا بن أخي؟

جال الرجل بنظره في باحة الدار من زاوية الستارة المزاحة ثانيةً، لكنّه لم يرَ غير شمس شَهْرِيْوَر[1] الباهتة التي تسطع على الدار والأشجار.

- متى؟ لم نتشاجر!

مدّت المرأة العجوز قدمها وبدأت فى تدليكها:

- قبيح هذا بعد أربعة أولاد كبار وصغار، وبنت منحوسة الحظ وصهر وحفيدة، قبيح.

هزّ أحمد عليخان رأسه:

- يجب أن يُقال هذا للسيدة صنم، ليس لي. كان مزاجها سيئاً منذ البداية، لكن منذ الوقت الذي مرضت فيه السيّدة الصغرى أصبحت نوراً على نور ولا سيّما أنهم أخرجوها من بيتهم وحياتهم هذه الأيام.

- مَن؟

- كأنّه لا علم لديك ولا خبر يا عمة. لقد تزوّج ميرزا أبو تراب ثانية. نعم... جاء الجديد إلى السوق[2]...

ضربت العمة بيدها على رجلها:

---

(١) الشهر السادس من السنة الشمسية (المترجمة).

(٢) مثل سائر وقد ورد في شعر سعدي الشيرازي: إن جاء الجديد إلى السوق فلا تكسروا خاطر القديم (المترجمة).

- ويلي! ويلي! ويلي! إلهي لا ترى خيراً في عمرك أيها الرجل. لا بدّ أن سبب هذه الخطط هو الشيطانة أمه، إنه لا يشرب الماء إلا بقولها. آه، آه، آه فَدَيْتُك أيتها البلبلة الحائرة! كل هذا الوقار ولم يبقَ لك سند ولا ظهر، أكان هذا مكتوباً على جبينك؟ آه...

تأوّه أحمد عليخان.

- نعم يا عمتي العزيزة. إن كنت لا آتي لزيارتك فبسبب المشاغل، وليس لأني نسيتك لا قدّر الله.

مسحت العمة الدمع الذي كان تحت عينها بيدها.

- أين ابنتها الآن؟ أستحلفك بالله، أحضر ابنتها دلنواز إلى هنا لأراها. لمّا أتت إلى الدنيا كنت عند رأس الأم، ومنذ تلك اللحظة وقع حبها في قلبي. الآن أحضرها إلى هنا... بالتأكيد إن سمحت السيدة صنم!

قال أحمد عليخان:

- بالتأكيد! أصلاً سأحضر السيدة صنم أيضاً لتنصحيها قليلاً.

تجهّم وجه العجوز:

- لا يا عمة، مطلقاً وأبداً. لمّا كانت لي قدمان وكنت أذهب وآتي قلتُ ولم تَعي قولي. في النهاية من أجل أمر تافه جعلت منه قميص عثمان، قطعت قدمي من بيتك، ما الذي يجعلني أنظر إلى وجهها ثانيةً وأسامحها؟

قال أحمد عليخان:

- أجارنا الله منكنّ أيتها النسوة! أقول لها، فتقول شيئاً آخر، وأنت الأخرى البريئة كذلك تنكرين كل شيء، في النهاية أنت أيضاً بسلامتك من وضع هذه اللقمة في فمي.

- بِمَ أذنَبْتُ أنا؟ أمك، غفر الله لها، وهي تموت أمسكت بيدي وقالت: انتبهي إلى ابني محمد علي كروحك! أردت أن تدعو لي المرحومة في ظهر الغيب، ليتني لم أضغط على نفسي ولم آتِ عند أخي، رحمه الله، وأقول إنّ هذه البنت هي فَرُّخ لقاء[1] التي أبحث عنها لأحمد علي. ليتني لم أقل هذا كلّه ليقبل. نعم، أنا فعلت ذلك وهذا جزائي...! يا للأسف.

بعد ساعة، قبّل أحمد عليخان جبهتها وخطا خارج دهليز البيت. كانت الشمس قد اختفت خلف قطعة من الغيم، وكانت ريح قوية تهبّ في الحيّ. استنشق أحمد عليخان هواء الخريف الذي جاء قبل أوانه ومضى. كان ماء النهر وسط الحي مثقلاً بقشور الفواكه والنفايات، وكان يجري ببطء. مرّة ثانية ردّ السلام على الأطفال العراة والحافي منتفخ البطن الذي كان يقف إلى جانب الجدار يقطر منه الماء ويرتجف مرتعشاً، واتجه نحو بيته.

* * *

في الغرفة ذات الأبواب الخمسة التي غُطّيَت نوافذها الشمسية بزجاج ملوّن، كانت السيّدة صنم قد جلست إلى المائدة مع بناتها الكبيرات والصغيرات، وكانت تصنع لهنّ لُقَمَ اللحم المدقوق[2].

---

(١) فرّخ لقا تعني جميلة الوجه، وهي شخصية ابنة ملك الفرنجة كما ورد في الأدب (المترجمة).

(٢) مدقوق اللحم ومخلّفات الـ "آبگوشت" وهو طعام مؤلف من اللحم والبطاطا والحمّص والفاصولياء. (المترجمة).

كانت البنات اللواتي كانت الزبدية قريبة إليهنّ قد مددن أيديهنّ في مَرَق الحمّص وأخذن يتشاجرن من أجل مخّ عظم القدم، بضربة خفيفة طردت السيّدة صنم الهرة التي كانت تمدّ رأسها وتموء، وبزجرة واحدة أسكتت البنات، ثمّ أبعدت شعرها إلى الخلف من حول وجهها السمين الأحمر والأبيض، ووضعت المزيد من خبز الـ " سنگک " في زاوية المائدة حتى لا يبيت.

لمّا سمعت صوت حلقة الباب قد عَلا في الدهليز، لبست الملاءة لكنّ البنات سبقنها وركضن بصخب وبأقدام حافية إلى باحة الدار الخارجية وعدن بأكفّ ملأى بقطع السكر نبات والـ (شكرپنير). دخل أحمد عليخان الغرفة، فاستشاطت السيّدة صنم غضباً لرؤيته:

-ليس معلوماً في أي قبر كنت إلى الآن، مضت ساعة والمائدة مفروشة، وأنا أتجادل مع خِلْفَتِك هذه.

ذهب الرجل دون أي جواب إلى غرفة المخزن وأخذ ملابس البيت الخاصة به عن مسمار التعليق ليرتديها، كان صوت السيّدة صنم يعلو وهي تشتم وتشتكي. ارتبك أحمد عليخان وشغل نفسه بتبديل الملابس.

منذ أحضرت إلى بيته وهي تلد له مرّة كلّ سنوات عدّة، لكن جميعهنّ بنات، وهذا ما جعل مزاجها يسوء سنة بعد سنة، ولا سيّما بعد زواج ابنتها السيّدة الصغرى ومرضها بعد الولادة. يجب أن يحني رأسه الآن لتمرّ هذه الريح.

ذهب وجلس إلى جوار الخوان، فتح طيّته وأمسك أول لقمة بيده، لكن لم يكد يضعها في فمه، علا صوت ضربات حلقة الباب. كانت البنات

يلعبن في زاوية الغرفة لعبة بقرة، عجل، أو صغير؛ فقفزن من مكانهنّ، لكن بسبب زجر أمّهنّ جلسن في مكانهن.

نهضت السيّدة صنم، وفكّت الملاءة المكوّرة ووضعتها على رأسها، ثمّ فتحت باب الدار فرأت خادم أخيها الذي كان يجلس على المصطبة إلى جانب الباب ويحدّق إليها بعينيه الحولاوين، فاضطرب قلبها.

في السنة الماضية، كان هذا الغلام المولود في بيت أخيها، قد أتى إليها مرتين، وجاء بأخبار سيئة في كلتيهما. لفّت الملاءة حولها أكثر:

- خيراً يا معلّم! ما الأخبار؟

نهض الرجل من مكانه وقال:

- لديّ عمل مع السيّد، يا سيدتي العزيزة!

قالت السيّدة صنم باضطراب:

- ما دمت موجودة فما شأن السيد؟ قل لأرى ما حدث؟

تأرجح المعلّم عباس على قدميه العرجاوين:

- والله لم يحدث شيء... فقط السيّدة الصغرى...
- السيّدة الصغرى؟ يا أبا الفضل!... أحمد عليخان...!

كان المعلم عباس قد أخذ يسعل سعالاً عالياً ومثيراً للشفقة. قفزت البنات واحدة تلو الأخرى من خلف الستارة ذات الرسوم الملونة ، وركض أحمد عليخان أيضاً حافياً إلى الدهليز، فوضعت السيّدة صنم يدها على قلبها حين رؤيته واتكأت على الجدار.

- ابنتي... انظر ما حدث لابنتي!

وجلست تئن.

- ويلي... ويلي... ويلي كان قلبي قد أحسّ أن شيئاً ما حدث.

فنهرها أحمد علي خان:

- أمسكي لسانك في فمك يا امرأة! دعيني أرَ ما حدث!

جلس أحمد عليخان بسرعة:

- الحقيقة أنهم أحضروا دلنواز إلى هناك، وهي أيضاً قد ذهبت في منتصف الليل إلى والدتها، وأخذتها إلى أعلى الهضاب وتركتها في أمان الله.

ضربت السيّدة صنم بكفّ يدها على رأسها:

- ألم أقل؟ يا رجل، ألم أقل لك اذهب وأحضر ابنتي إلى هنا؟ هل رأيت؟ ابنتي أفلتت من يدي.

تابع المعلم عباس بصوت كالصفير:

- بروح رسول الله لم يحدث شيء يا سيدتي، السيّدة الصغرى سليمة ومعافاة، وهي الآن في غرفتها بالقيد والسلسلة، تعالي وشاهديها! هادئة ورصينة، فقط...

ضربت السيّدة صنم على صدرها:

- انطق يا رجل! فقط ماذا؟

- فقط، قال أخوكِ تعالوا وخذوها إلى بيتكم لأنّ الأمانة صعبة يا سيدتي العزيزة!

ناحت السيّدة صنم:

- إلهي، كلّ من شرّد ابنتي لا يرى خيراً في حياته! أرجو، بحقّ هذا الوقت العزيز، أن يؤخذ كلّ من فعل هذا بسهم الغيب.

وضع أحمد عليخان يده تحت إبطها، وحاول أن ينهضها من مكانها.

- لا تلعني وتنوحي يا امرأة، سيعود علينا!

التصقت البنات، بعضهن ببعض، كحبات العنب، وكنّ يحدّقن إلى أمهنّ وشفاههنّ مضمومة.

- عزيزتي السيّدة صنم، ماذ حدث يا أختي؟ لماذا تهلكين نفسك؟

على حافة سطح الدار الخارجية كانت تقف امرأة نحيلة متوسطة العمر، ذات وجه لوزيّ غامق وعينين تركمانيتين، وتحمل بين يديها شيئاً من الغسيل. وقعت عليها عين السيّدة صنم من تحت رواق الدهليز، فمدت يديها وتابعت تنوح:

- أغيثي قلبي يا أشرف السادات العزيزة! أغيثي قلبي!

ضغطت على أسنانها بشدة، واصفرّ لونها وتمدّدت.

علا صوت نواح البنات، وفي لحظة ألقت الجارة الغسيل على السطح ووصلت إليها عن طريق درج السطح.

- أحضروا طيناً وتبناً!... طيناً وتبناً مرشوشاً بالماء...

ركض أحمد عليخان، واقتلع من جدار الزقاق قطعة من الطين الممزوج بالتبن، ثمّ رشها برذاذ ماء ووضعوها تحت أنف السيّدة صنم.

أسندت أشرف السادات رأسها إلى صدرها ودلّكت كتفيها. كان يُسْمَع صوت انتحاب المعلم عباس الذي جلس منكمشاً ومخاطه يسيل.

أرسل أحمد عليخان إحدى البنات إلى الغرفة لتحضر ملاءة أمها وجوربيها السوداوين:

- انهضي يا امرأة! انهضي وسيري! اشكري الله أنهم وجدوها، حين ترانا فستتحسن حالها.

ناحت السيّدة صنم وفتحت جفنيها:

- أشرف... أشرف السادات العزيزة! لا نَصَر الله أعداءك إلهي! لا تعرفين كيف يحترق كبدي.

ألبستها أشرف السادات جوربيها القطنيين السوداوين اللذين أعطتهما إياها إحدى البنات.

- صبَّرَكِ الله يا أختي! أنا أفهم ما تقولين، لكنّ الأمور لا تستقيم بالبكاء. انهضي! انهضي واسألي عن أحوالها، فالله أرحم الراحمين.

نهضت السيّدة صنم من مكانها، واستبدل أحمد عليخان الملاءة السوداء بملاءة صلاتها المغبرّة، ولبس هو أيضاً ملابس الخروج الخاصة به، وبعد قليل خرجا من الباب معاً. أغلقت أشرف السادات المزلاج أيضاً وأخذت البنات إلى بيتها عن طريق السطح. وحتى تهدّئ من روعهنّ وضعت طست الغسيل على ركبتها وأخذت تضرب عليه.

* * *

مرّة أخرى ألقى الصمت ظلاله على زقاق الأكاسيا؛ كانوا قد تأخروا حتى سلّموا الأشياء التي كانت معلّقة على الجدران، والكراسي البولندية النادرة، والطاولات الصغيرة، والمصابيح النفطية، والأواني التي استأجروها، وكل شيء، اقْتُلِعَت مخلّفات النقل الخشخاشي، النقود الملونة، والقرانات عن الأثاث وعاد كل شيء كما كان،عدا غناء البستاني العجوز الغريب في رثاء السوق المتكسّرة والشجيرات المدوسة، كان يقول إن عرس بيت ميرزا أبي تراب ختم بهجوم ليليّ على الورد.

الحال أن السيّدة الأمّ وماه منظر وزبيدة كنّ نساء ثلاثاً نُفِثَت أرواحهنّ في جسد البيت.

كانت السيّدة الأمّ كالعادة تصدر الأوامر برؤية ثاقبة وآمرة، وكانت زبيدة تتابع أمور البيت بمرارة وانقياد، وكانت ماه منظر تجول في البيت بدلال وتبختر وتدور فيه.

تلك الاثنتان، كانتا كالعادة تصلان الليل بالنهار، وهذه كالسمكة الصغيرة التي خرجت من النهر الحقير إلى البحر الكبير، كانت تقف، أحياناً، ساعات أمام اللوحات الجدارية الحريرية جميلة الرسوم، والزهريات البلورية، والمجسمات المرمرية والبرونزية، والزبادي، والصحون المرصعة التي تحمل رسوم طائر الجنة وتنظر إليها بإعجاب شديد.

من خلف زجاج الخزائن الجدارية كانت تنظر إلى الأواني ذات الورد الأحمر، والقوارير الكريستاليّة، والساورات ذات الأحجار الفيروزية، ثمّ تعود فتنظر إلى السجاجيد الجدارية الصغيرة ذات الإطارات؛ السجاجيد التي نُسِجَت عليها صورة حضرة علي مع الحسن والحسين، اللذين يقفان إلى

جانبه، وعلى مسافة ليست شديدة البعد عنهما يقف ابن ملجم الذي كان قد ظهر رأس سيف من تحت عباءته، وجماعة البط التي أخذت عباءة حضرة عليّ بمناقيرها وكانت تطلب إليه ألا يذهب.

لكنّ شيئاً من قطع الأثاث الثمينة هذه لم يحرّك الوساوس في قلبها كتلك الخزانة المغلقة المصنوعة من خشب الجوز. ففي أحد الأيام ذهبت إليها بعيداً عن عين السيّدة الأمّ وفتحت باب الخزانة، كانت قد قلّبت الملابس، وانتابها دوار غريب من رائحة عطر الياسمين الجميلة، وحينها مدّت يدها وأخرجت ثوباً كان يبدو أنعم من باقي الملابس جميعها.

لمن كانت هذه الملابس؟ للسيّدة الصغرى؟ لماذا يُحْتَفَظ بها؟ لترتديها صاحبتها؟ يا ويلي! لا قدّر الله أن يأتي ذلك اليوم، ضغطت على أسنانها بقوة، وكانت عيناها الصغيرتان قد أصبحتا أصغر من هذه الفكرة، قطّبت جبينها، وعضّت على زاوية شفتها السفلى بأسنانها ومضغتها. ألقت الثوب على يد الكرسي البولوني، وكانت قد نظرت إليه مدّة. ثوب أزرق بخيوط فضية زرق، خيط صدره بالتول، وزيّن محيط جزئه السفلي بكتل من خيوط الفضة.

سارعت فنزعت ثوبها وارتدته، وتسمّرت عيناها إلى صورتها في المرآة الطويلة. دارت حول نفسها وذهبت إلى الكرسي، وأمسكت جزأه السفليّ برؤوس أصابعها، ورفعته، بدا تلألؤ بياض ساقيها داخل الأمواج الفيروزية. قفزت عن الأرض وصرخت:

- إنها لي... هذه كلها... لي!

كانت قد شمت أسفل الثوب وإبطيه كالهرة الغاضبة؛ " آه،هذا الثوب كان يغطي جسد زوجة ميرزا؟ يعني أنه قد انسحب على كفلها وعنقها وساقيها؟ كان سبباً لمظهرها الفاتن ودهشة ميرزا؟ لقد لمسه في عصر أو ليل وساعد السيّدة الصغرى في نزعه؟ ".

كانت تقف منتصبة، ثمّ سحبت نفساً عميقاً وانحنت وأحدثت شقاً في تنورته بأسنانها، وبحركة كانت قد قسمته نصفين، ثمّ مزقت قطعة أخرى. ارتدت ملابسها ثانية، ووضعت القطعة الممزقة خلف صندوق مغلف بالمخمل:

- على الرغم من جمال تفاصيلك اذهب واغرب عن وجهي!

كانت قد وقفت أمام المرآة ومشطت شعرها، ثمّ كحلت عينيها ووضعت الكريم المبيض وأحمر الخدين على وجهها، لكن لمّا خطت إلى باحة الدار بقدمين حافيتين وشعر مصفف، كشعر الرجال، نظرت إليها حماتها على نحو أُجبرت فيه على العودة إلى الغرفة، فألقت ملاءة الصلاة على رأسها وجلست على حافة عتبة الغرفة، ومن ذاك العلو كانت تشاهد الورد والأصص.

كان ميرزا أبو تراب قد انتهى للتو من ضجيج العرس وصخبه ومشاغله، وانقبض صدره لعدم رؤية دلنواز، فوضع رأسه على أذن أمه وحدّثها عن المصلحة في إعادتها، لكن السيّدة الأمّ كانت تقول بتلكؤ:

- اصبر! حتى أول ليلة من الخريف... دع عروسك تشبع من رؤيتك والبنت من رؤية أمها.

لكنّ هذا الصبر مملّ، وهذا الملل كان يؤثّر في أخلاق ميرزا الحسنة؛ إذ إنه قد احترف السكوت هذه الأيام وتقوقع على نفسه.

- هل يصبح العرسان هذه الأيام ذوي أخلاق حسنة هكذا؟

كان يسمع تلميحات عروسه اللاذعة ولا يبدي اهتماماً، فكان كلّ يوم قبل طلوع الشمس ينهض من الفراش، الفراش المرطّب بعطر رأس ماه منظر وكتفيها، وكان يأتي إلى باحة الدار، فيتوضأ ويضع وجهه بين يديه ويؤذّن بصوت جميل ثمّ يذهب إلى الغرفة المجاورة ويحني رأسه أمام أمه التي يبدو أنها كانت مستيقظة حتى الصباح، ويمسح جبهته بالسجادة التي كانت قد صلت عليها، ويصلّي. بعد الصلاة، كان يطلب المغفرة لنفسه؛ ألم يكن قد قصّر في حقّ السيّدة الصغرى؟ بعد ذلك يجلس إلى المائدة، ويضع في فمه قطعة من الخبز الدوباري[1] التنوريّ الذي اشتراه المشهدي أسد الله، وكان يبتسم لماه منظر التي تدخل بملاءة من الفوال الأزرق الفضي خلسة كي لا تراه أمه. بعد أن يتناول الفطور كان يذهب. كانت الأم تقرأ آية الكرسي وتنفخ نحوه، وكانت ماه منظر تملأ منديله اليزدي بالياسمين الأبيض وعدد من ورد الحناء الأحمر. لمّا كان يركب العربة كان يطلب إلى أسد الله أن يقود بهدوء، وكان يضغط المنديل المملوء بالياسمين على وجهه ويفكر في السيّدة الصغرى، فالعطر الذي تصنعه بيديها مشهور للقاصي والداني، وفي دلنواز التي لو كانت موجودة لأعطته هذه الصرة، وفي الوقت نفسه كان يعرف أنه لو التفت لرأى ماه منظر على مسافة منه تتكئ على أحد مصراعي الباب بابتسامتها المليحة وتحدّق إلى أثر عجلات العربة الأربع.

(١) الخبز الذي نخل دقيقه مرتين (المترجمة).

كان المشهدي يقود ويهمس لنفسه، وكان يلقي النقود المعدنية للمتسولين الذين كانوا يتعلّقون بمؤخرة العربة. كانا يمران من ساحة الإعدام، كلوبندک، و سبزه میدان، كان ينزل هناك، فيودع المشهدي أسد الله ويخطو إلى مدخل السوق، وكانت تفوح رائحة الزعفران والقرفة والكمون و كزبرة البئر. لم يكن الطريق طويلاً إلى محلّه الذي كان إلى يمين سوق السجاد. كان يقطع الطريق بهدوء، وكان يحني رأسه لأصوات الأجراس التي كانت على أبواب الدكاكين، ويتبادل السؤال عن الأحوال مع أصحابها، ليعود بعد يوم طويل حافل بالعمل والجدّ إلى زقاق الأكاسيا.

* * *

كانت زبيدة في حركة منذ الصباح، فقد لفّت بقجة حمام السيدة وذهبت قبلها بساعة إلى حمام صحرا، ثمّ عادت لترافقها مرة أخرى إلى باب الحمام. جلست في المقصورة مدّة حتى خرجت السيدة من وسط البخار الأصفر، وحينها أخرجت نصف سيجارة من علبة سجائرها الفضية، أشعلتها وأعطتها إياها، مرة أخرى عادت وهي تجري إلى البيت، فأشعلت النار في مدخنة السماور الفحمي. بعد مدة، بدأ الماء يغلي، فخمّرت الشاي وذهبت لاستقبال السيدة. فتحت الباب، وانعطفت من منحنى زقاق الأكاسيا، وتركت الستارة مرفوعة أمام الباب لتدخل البيت. كلّ هذا العناء كالكلب الوفيّ الذي لا ينتظر كلمة حنان من صاحبه، كانت قد بدأت تلهث. مجرّد أنّه كان من المقرر أن يأتوا بدلنواز الليلة كان يكفيها، فكان جفنها الأيمن يرتجف وقلبها يرفرف فرحاً.

كانت السيّدة الأمّ تجلس على فراشها الصغير وتستند إلى المتكأ، وقد وضعت أمامها قدح شاي نحيلاً من وسطه ذا حافة مذهّبة، يتلألأ فيه الشاي كالعقيق. وقعت عين السيدة عليها؛ فسألت مبتسمة:

- أنت سعيدة يا زبيدة، أليس كذلك؟

جلست زبيدة على ركبتيها إلى جانب بساط السماور، وفركت يديها، إحداهما بالأخرى:

- إنها تذوب في قلبي كالسكّر.

تأوّهت السيّدة الأمّ:

- آه... طفلة بلا أم! جعلتها تكبرعلى قلبي. منذ أتت إلى الدنيا وقطعت حبلها السرّيّ وقع حبها في قلبي، والآن أعقد الأمل عليها، لكن حسناً أن ابني ميرزا يأخذ نصيبه من هذه الدنيا، فإلى متى سيجلس إلى جوار زوجته المجنونة ويتعذّب؟

ظهر ظلّ ماه منظر من خلف زجاج الباب المشجّر، فسكتت السيّدة الأمّ. كانت ماه منظر ترتدي بلوزة من الدانتيل الأحمر وتنورة سوداء مزمومة تفتح بثنية من الخلف، وتنتعل نعلين ذوي سير فضيّ كانت تظهر منهما أصابعها الدقيقة المحنّاة. حين دخولها، فاحت رائحة الياسمين في الغرفة، فألقت السيّدة الأمّ نظرة حادّة إليها:

- هذه ليست ملابس البيت، لطالما حاولت تلك المسكينة ألا تصيبها بقع أو يذهب لونها وأن تستخدمها في وقتها... الآن

جلست ماه منظر هادئة بلا صوت، وهمست السيّدة الأمّ: عديم الأصل والنسب الذي يرى الأشياء فيأخذها لنفسه .

وقالت بصوت أعلى:

- لقد تركتها حتى تكبر دلنواز...

أغلقت ماه منظر الزرّ العلويّ للبلوزة، وتابعت السيّدة الأمّ:

- إضافة إلى ذلك، رأس عارٍ!

ضمت ماه منظر شفتيها:

- لا يوجد رجل.

عبست السيّدة الأمّ:

- لا تطيلي لسانك يا بنت، كيف لا يوجد رجل؟!

وأشارت إلى العمارة العالية في الجانب الآخر من زقاق الأكاسيا، التي كانت تطلّ نوافذها على الدار:

- كل كلمة تقال مرة واحدة في هذا البيت.

وأضافت بعد صمت:

- تلك أيضاً من قِبَلي.

أشعلت نصف السيجارة، وسحبت دخانها وأخرجته من أنفها على شكل حلقات:

- لم يحدث أن يبقى مزاجي على ما يرام يوماً.

أغلقت عينيها، ومسحت بيدها على ثديها الأيسر:

- ذلك إضافة إلى هذا الألم الذي لا يريد أن يتركني.

صبّت زبيدة قدحاً آخر من الشاي ووضعته أمام السيدة، وبإشارة من السيدة وضعت قدح شاي آخر أمام ماه منظر.

قالت زبيدة:

- يا سيدتي، اذهبي إلى طبيب، تداوي! هل أنت مجبرة على تحمّل الألم؟

تأوّهت السيّدة الأمّ:

- طبيبي هو الله، إن نظر إليّ نظرة لطف فستكون روض الروح وعرق العافية، وإلا فالأمر منته ويجب التفكير في أمتارعدّة من القماش للباس الآخرة.

قالت زبيدة:

- لكن، يا سيدتي، قيل منذ القديم: "منك الحركة ومن الله البركة ".

هزّت السيدة رماد سيجارتها في المنفضة:

- دعينا! لم تسأليني من رأيت اليوم في الحمام؟! نعم... السيدة رفقاء. كانت قد أخذت رقماً خصوصياً، وكانت بالمصادفة إلى جوار رقمي. لمّا أتت سارة المدلّكة لتنظف جسدي بالكيس أخبرتها، وبلا مقدمات أتت بكأس ماء ولقمة كبيرة من الخبز والجبن والريحان إلى النمرة. وبلا مقدّمات صبّت الماء على كتفيّ وقبّلت وجهي، وقالت: " يا للأسف رفقاء لا يريد أن

يتزوج وإلا كنت سأقول: كل شكواكِ مقبولة يا عروس ابني ". بعد ذلك، جلست تتكلّم كلاماً كشعوذة السحر، كم تكلّمت عن نفسها، عن ابنها، عن حفيدتها آفاق؛ كم افتخرت بتجارة رفقاء أيضاً. كانت تقول إنّه عطّل مكتبه ووكالته ليستورد البضاعة؛ تظن أنه بسفينة مكسرات استوردها سيصبح تاجر ثمار مجففة، كانت تتكلّم وأنا أفكر: عجباً! هي في مثل عمري وسنّي وصحيحة ومعافاة هكذا!

ضحكت زبيدة:

- سيدتي! لو كنتِ قلتِ ما شاء الله... أو شيئاً ما.

ردّت السيّدة الأمّ كلامها بحركة اليد:

- لا تخافي يا عزيزتي! باذنجان بم لا تصيبه آفة[1]... الخلاصة أنه بعد اللتيا والتي قالت ما في قلبها: " تركتِ آفاق حفيدتي وأخذتِ عروساً مبهرجة؟! "

توقفت يد ماه منظر، التي كانت تضفر الخيوط على جانب السجادة، عن الحركة:

- بالتأكيد أعطيتها جواباً جيداً، قلت: كنت أريد أن آخذ لابني ميرزا امرأة لا تكون كبيرة في السنّ ولا محدثة نعمة. قلت: أردت في الحقيقة عروساً صغيرة بلا ثروة.

---

(١) مثل سائر يقصد به أن الأشخاص عديمي الإحساس لا يصيبهم أذى نفسي أو جسدي (المترجمة).

ابتسمت زبيدة بسخرية، وسحبت ماه منظر خيوط السجادة المضفورة وسحبتها حتى اقتلعت من جذورها. فجأة تجهّم وجه السيّدة الأمّ، وأسندت رأسها إلى المتكأ وهمست بهدوء شديد:

- لولا القلق على دلنواز، لِمَ البقاء؟

ليلة أمس رأيت أمي، غفر الله لها في المنام، كانت تضع على رأسها ملاءة بيضاء. أتت إلى عتبة الباب تنادي:

" فاطمة العزيزة، فاطمة العزيزة! "

قلت: لم لا تدخلين يا أمي؟

قالت: " الوقت ضيق، انهضي وضعي ملاءتك على رأسك لنذهب ".

نظرت زبيدة إلى ماه منظر التي فتحت الباب بهدوء وذهبت.

نهضت، ووضعت الوسادة تحت رأس السيدة، وساعدتها لتستلقي. وضعت كذلك غطاءً فوقها، ووضعت مروحتها الحصيرية إلى جانب يدها.

- نومنا، نحن النساء، إلى الجهة اليسرى. تعرفين ذلك.

دارت السيدة نصف دورة وتأوهت:

- هل ذهبت؟ بسبب هذه الكلمة الواحدة التي فهمت أنها لها؟
- من؟

وضعت السيّدة الأمّ المروحة أمام عينيها حائلاً من شعاع الشمس:

- أتكلم عن هذه البنت؛ ماه منظر.

وبعد قليل علا صوت شخيرها.

لمّا مدّت زبيدة خوان الغداء وفاحت رائحة الأرز بالأعشاب والسمك في الغرفة، مهما نادت ماه منظر لم تأتِ، انزعجت السيّدة الأمّ:

- اتركيها! عديمة الحياء. لم يمضِ شيء على وجودها هنا حتى بدأت تتطاول.

لمّا جاء ميرزا أبو تراب عصراً سأل أمّه عنها، فأشارت إلى الأعلى وتأوهت. جلس ميرزا أبو تراب عندها ساعة ثم صعد إلى الطابق العلوي بحجة أنّه يريد استبدال ملابسه والاستعداد للذهاب إلى بيت عزيز الله خان.

- سيدة ماه منظر! أين جواب السلام؟ لماذا لم تضيئي الشمعدانات، ولماذا خطوط جبهتك متداخلة؟ أين الشامة فوق شفتك؟

كانت قد جلست في زاوية الغرفة ويدها تحت ذقنها، وكانت قد وضعت ركبتيها في حضنها. أشاحت ماه منظر بوجهها بطفولة، وأدارت إليه ظهرها.

- دعيني أرَ يا سيدة السيدات! هل تخاصمتِ مع سادتك؟

جلس على حافة الكرسي البولوني وانحنى نحوها:

- ماذا حدث؟ لِمَ لا تتكلمين؟

تصدّعت ماه منظر كالرمّانة:

- إن لم أكن مناسبة لكم فلِمَ أتيتم لخطبتي؟ هل أرسلت إليكم لتأتوا وتأخذوني؟ يا له من استخفاف وإهانة؟ يا له من كلام جارح!

نظر إليها ميرزا متعجباً:

- عمّ تتكلمين؟ من استخفّ بك وأهانك؟

- من؟ أمك. وأمام خادمة البيت أيضاً، يا إلهي كم أنا تعيسة الحظّ!

وضعت رأسها على ركبة ميرزا وبدأت تنتحب باكية:

- إن الله لا يرضى بكسر قلب يتيمة هكذا. صحيح أني نشأت على مائدة أعمامي، لكنهم لم يكونوا أناساً قليلي الشأن.

أدخل ميرزا أصابع يده خلال تجاعيد ضفيرتيها:

- لا تنزعجي من كلام أمي، هي كبيرة البيت واحترامها واجب. لو صفعتني صفعتين لما رفعت رأسي لأسألها لماذا؟ أنت أيضاً لك مكانتك.

رفعت ماه منظر رأسها، ونظرت إليه بعينيها الدامعتين.

- قل إذاً أنكم أحضرتموني إلى منزلكم من أجل الخدمة. بالنسبة إليك لا اعتراض لديّ، أما لأمك فأبداً.

انحنى ميرزا وقبّل جبهتها ذات الألوان المركّبة التي كانت تلمع في ضوء الغروب الأحمر، وأزاح خصلة الشعر التي التصقت على خدّها الأيمن.

- أيّ كلام هذا؟ أمي كبيرة هذا البيت، دعيها تحكم. أنت أيضاً ياعزيزتي حاولي أن تفتحي مكاناً لك في قلبها. إن أردت أن تأخذي مكانها أيضاً يمكنك ذلك، لكن، بالتدريج وليس في ليلة واحدة، " يجب أن تمرّ

سنوات حتى يصبح الدم حليباً "[1]. الآن، انهضي واغسلي وجهك بالماء، البكاء وقت الغروب غير مستحبّ... يا عليّ!

وضع يده في يدها وأنهضها من مكانها، ساعدها لتضع ملاءة الصلاة على رأسها وقادها نحو الباب، ثم أصغى إلى آخر كلمات الأذان. إلى أن عادت ماه منظر، مدّ السجادة ووقف للصلاة. عادت ماه منظر بوجه ويدين تقطر ماءً، ووقفت أمام المرآة، وجففت وجهها بالجزأين الأماميين من الملاءة. أشعلت عود الثقاب وأضاءت الشمعدانات، ثم رفعت ستارة التول وانشغلت بتزيين وجهها؛ تمشيط الشعر، وضع أحمر شفاه على الشفتين، أحمر خدود على الوجنتين، كحل في العينين، شامة فوق الشفة.

لمّا سلّم أبو تراب في صلاته، انحنى ليقبّل قرص السجود، فجلست ماه منظر وأخذت تدغدغ باطن قدمه، فاستدار ميرزا نحوها، وَسُمِع صوت السيّدة الأمّ من باحة الدار:

- ميرزا يا بُنيّ! لم يكن موعدنا منتصف الليل.

تحرّك ميرزا أبو تراب ونهض من مكانه، ذهب إلى جوار النافذة وأزاح ستارة التول. كانت أمه ترتدي ملاءتها السوداء وتقف وسط الدار، وإلى جانبها زبيدة تحمل الفانوس. فتح ميرزا مصراع النافذة:

- سآتي حالاً يا أمي.

قالت ماه منظر:

---

(١) جزء من بيت للفردوسي ذهب مذهب المَثَل (المترجمة).

- إلى أين؟

استبدل ميرزا ملابسه بسرعة:

- سنذهب لإحضار دلنواز.

تجهّم وجه ماه منظر. قال ميرزا وهو خارج من الغرفة :

- حين أحضرها لاطفيها، هذه وصيتي الوحيدة.

جلست ماه منظر على الأرض واتكأت إلى الجدار. تشكّلت غيمة من الآه التي خرجت من صدرها، وذهبت لتبكي على شجيرة الورد.

* * *

عبر المشهدي أسد الله مفترق قلهك، ومرّ إلى جانب مجرى النهر. كان قرص القمر الفضيّ ينعكس على تغضّنات الماء، والأشجار المتداخلة على طرفي النهر قد ألقت برؤوسها على كتفه أيضاً. كان ميرزا أبو تراب يدير حبّات السبحة في يده وهو يتكئ برأسه على الخلفية الجلديّة للعربة، وكانت السيّدة الأمّ تنظر إلى الهضاب المنحنية على حاشية الطريق. كانت الهضاب كفوج من القطط يجلس بعضها خلف بعض. لمّا ظهر شبح بيت عزيز الله خان، جذب المشهديّ لجامي الحصانين وقال بصوت عال:

- لقد وصلنا.

وقبل أن يضع ميرزا قدمه على الركاب، قفز إلى الأسفل. التقط قطعة حجر وضرب على الباب المغلق. بعد دقائق عدة سُمِعَ صوت احتكاك حذاء على حبات رمل البستان، ثم سمع صوت أنين الباب:

- من أنتم؟

كان المعلّم عباس قد سمّر عينيه الحولاوين أمامه، وكان يحاول أن يميز وجوه الضيوف في الظلام.

- السلام عليكم يا سادة، أهلاً وسهلاً بكم يا سادة.

كان الفانوس يتحرك في يده إلى اليمين واليسار، وكان يعرج على قدمه كالعصفور.

- البيت بيتكم، لقد شرّفتمونا. تفضّلوا من هذه الناحية ياسادة!

زحف نسيم بارد من فتحات ملاءة السيدة الأمّ الكمريّة(١)، وجعل عمودها الفقري يرتعش. طوال المدّة التي كانت فيها السيّدة الصغرى كنّتها لم تَخْطُ إلى هذا البيت غير مرة واحدة فقط مع ابنها، وكانت تلبية لدعوة تبادل الزيارات التي يقوم بها أقارب العروسين بعد العرس طبق المألوف. فجأة قفز طائر صغير من عمق الظلام، وتقدّم بسرعة بجناحين مفتوحين وقلب نابض، وبشكل مباشر ومستقيم أتى إلى حضن أبي تراب، لفّ ميرزا يديه حول جسدها وضيّقها.

- آه يا عزيزتي الحلوة... السيّدة فشفشة!

مرّت دقائق بقي فيها الأب والبنت متعانقين، حتى خرج عزيز الله خان من قلب الظلام، واستقرّ في دائرة من ضوء الفانوس:

---

(١) كان يستخدم قديماً وهو مؤلف من قطعتين إحداهما حول الخصر (المترجمة).

- بارك الله! تشرّفنا جداً جداً! أهلاً بكم. تفضلوا إلى الداخل! تفضلوا من هذه الناحية.

فتح ميرزا حلقة ذراعيه لكن لم يترك اليد الصغيرة الباردة المتعرقة. كان يعجبه أنّ النور غير كاف لإظهار خطّ الدمع على وجهه. كانت المصابيح والشمعدانات قد أضيئت داخل القاعة، وكان محيط الأرض كلّه مفروشاً بالوسائد المصطفة. نهض الحاضرون من أماكنهم حين دخولهم احتراماً، ومن النظرة الأولى رأوا أحمد عليخان، والسيّدة صنم، وعدداً من المقرّبين من الأسرة الذين كانوا يحضرون معهما دائماً في كلّ عزاء أو عرس.

- لا تخجلوا... أرجوكم تفضلوا!

بعد أن انتهى تبادل المجاملات الأوليّة غرق المجلس في الصمت. أدار المعلّم عباس وعاء الفواكه وأطباق الحلوى، ثم جاء دور الشاي المصبوب في أكواب موضوعة في قواعد فضيّة ولها قبضات.

أخرجت السيّدة الأمّ كوبها من القاعدة الفضية وقالت:

- إنّ شرب الشاي في قواعد فضية لا يساوي الإحراق بالفضة في ذاك العالم.

حرّكت السيّدة صنم الهواء أمام وجهها بطرف ملاءتها، وقالت:

شرب الشاي في قاعدة فضيّة فيه معصية؛ لكن امتلاك قاعدة، وزهريّة، ووعاء، وآنية فضيّة من أجل العروس حلال؟

قالت السيدة الأمّ ببرود:

- من أجل العروس أم الابن؟

قالت السيّدة صنم:

- كأنك نسيتِ ما كان في جهاز عرسك وما لم يكن؟

سعل ميرزا أبو تراب وقال:

- آ... بالمصادفة قُلْتِ فضة وذكّرتِني بذكريات سفري الأخير إلى النجف الأشرف، فبعد سنوات التقيت بصديق أصفهاني كان يعمل في ترميم الأبواب المشغولة بالفضة. ليتكِ كنتِ ورأيتِ ماذا قال عن معجزات الإمام.

قالت السيّدة صنم:

- كنت تريد أن تدعو من أجل شفاء زوجتك المسكينة؟

مسح أبو تراب بيده على لحيته:

- فعلت هذا أيضاً، لم يَفُت الوقت بعد... أنا متفائل.

ضحكت السيّدة صنم بسخرية:

- واضح أنك كنت متفائلاً، إذ أحضرت إليها ضرة!

التفت أحمد عليخان نحوها، ونظر إليها بغضب وقال:

- صلي على النبي يا امرأة.

كانت الفواكه قد بقيت كما هي دون أن تُلْمَس، وكان الشاي المرّ قد أصبح ثقيلاً في الأفواه. فقط دلنواز كانت تتكئ على ركبة والدها، وتأكل خلسة قليلاً من حلوى الـ" نان نخودتشي"[1].

قال عزيز الله خان:

- الآن تفضّلوا! حلّوا أفواهكم.

ثمّ تابع بعد توقف:

- الأفضل أن نذهب إلى أصل الموضوع.

وضع ميرزا أبو تراب رأسه في أذن دلنواز، ومسح بيده على رأسها، وبقبلة على خدها ختمت بقول " على عيني ". قطعت دلنواز الصالة بطولها وخرجت من الباب.

قال عزيز الله خان:

- منذ مدّة وابنة أختي العزيزة تسكن هنا، كان هذا الانتقال – ظاهرياً – بأمرك يا جناب ميرزا. حسناً جداً، أنا ليس لديّ أي اعتراض سوى أن أقول إن الأمانة صعبة؛ ذلك أنه في منتصف إحدى الليالي تأخذ البنت المعذّبة بيد أمها، وتتركها أعلى الهضبة في أمان الله. لقد انقضى نصف عمرنا حتى وجدناها، بعد ذلك أرسلت إلى أختي وزوج أختي العزيز، كانا قد طلبا أن يأخذا ابنتهما، أي أنهما ظنا أني تجرأت وقلت تعالا لتأخذاها، لكن

---

(١) حلوى جافة تصنع من طحين الحمّص والسكر الناعم والسمن، ويعدّ باستخدام قوالب صغيرة (المترجمة).

لا... مادام السيد ميرزا أبو تراب موجوداً فما شأننا نحن؟ قلت وقتها في غياب حضرتكم، وأقول الآن أمامكم، أنتم قرروا وواجب علينا التنفيذ.

أرادت السيّدة صنم أن تتكلّم، فنهرها عزيز الله خان:

- اسكتي يا أختي! اتركي تدبير الأمور في يدنا اليوم، وتفضّلي بعدم التدخّل.

أخذت السيّدة صنم تحرّك الهواء أمام وجهها أسرع من ذي قبل.

التفت ميرزا أبو تراب إلى الحاضرين:

- في البداية يجب أن أشكر عزيز الله خان على حسن ظنه، ثم في المقابل أعلمكم جميعاً أني لم أقصّر قطّ في سبيل سلامة أم ابنتي وراحتها. أنتم اقترحوا وأنا أطيع، لكن أن آخذ ناموسي وأضعه وسط جمع من الغرباء الذين لا عقل لهم، فأبداً.

سأل أحد الضيوف:

- لِمَ لا تعالجونها في البيت؟

قالت السيّدة الأمّ بعصبيّة:

- من أين عرفتم أننا لم نفعل؟ لم يبقَ طبيب لم نحضره، ولا دواء لم نعطها إياه. أتظنون أن الاحتفاظ بمجنون في البيت أمر سهل؟

قالت السيّدة صنم:

- لم تنجزي أمراً عظيماً، فقد كان واجبك، لكن لو أردت حقيقةً إرضاء خاطر ابنتي المسكينة لكنتِ صبرتِ حتى تتحسن ولم تحضري إليها ضرة وتشرديها.

توهجت السيّدة الأمّ:

- لقد صبر ابني ست سنوات كاملة، وتعذّب بلا فائدة، لا يرضي الله أن يدفع شخص ثمن ما يفعله غيره، لا بدّ من وجود حكمة في هذا الأمر، إضافة إلى ذلك ألم تسمعوا أنهم قالوا منذ القديم: حين تبحث عن العيوب ضع نفسك مكان الناس وكن منصفاً وانظر إلى عيوبك؟ أليس ابني بشراً؟ إلى متى سيضع رأسه على وسادة خالية؟ هل تريدون أن تصيبه لعنة الأرض؟

تجهّم وجه ميرزا:

- أمي!

أشارت السيّدة الأمّ بيدها:

- لا تتكلّم أنت! دعنا نحسم الأمور الليلة! دعني أقل إن ابنتهم أيضاً منذ اليوم الأول لم تكن في حال جيدة، ولو كانت سليمة لما وصل الأمر إلى هنا.

أخرج أحمد عليخان السبحة من جيبه وقال:

- لا إله إلا الله. لا تلقي الإهانات أيتها السيدة المحترمة!

ضربت السيّدة صنم فجأة بيديها على ركبتيها وقالت:

- يا الله ! إلهي! إلهي، أنت شاهد كيف يلقون العيب والعار على ابنتي التي كانت كطاقة الورد. ياعفة الملوك... يا شاباجي السيّدة... يا سيدة مخصوص... يا شاه غلام.. يا سيد مرتضى... قولوا شيئاً! هل كان في ابنتي عيب منذ البداية؟ أو أنّ ألف موهبة كانت تنبثق من كل إصبع من أصابعها؟ أعطيتكم ابنتي التي كانت في الثالثة عشرة كالآنية البلورية،هل نسيتم؟ ذلك التطريز... والحياكة بالصنارة... وصنع المربى والمخلل والطبخ المتقن....!

رفعت يديها إلى السماء وقالت:

- إلهي، أقسم عليك بحق قلب زينب الكسير ألا تتجاوز عمن خرّب عش ابنتي! إلهي بحق نور هذا المصباح لا تغفر لذاك الذي...

نهضت السيّدة الأمّ من مكانها وقالت:

- لا قدرة لديّ على تحمّل هذه الجلبة وهذا الهراء، ميرزا! انهض يا بنيّ!

ضرب أحمد عليخان بكف يده على جبهته:

- أمسكي لسانك في فمك يا امرأة!

تحلّقت النساء الزائرات حول السيّدة صنم وحاولن تهدئتها، والتفّ عزيز الله خان والرجال الضيوف حول ميرزا أبي تراب.

- اجلسوا... كونوا واسعي الأفق، والله لن أدعكم تذهبون هكذا.

في الغرفة الملاصقة للصالة كانت دلنواز تجلس وحيدة وأذنها ملتصقة بالجدار، وكانت تفسّر الكلمات الغريبة في ذهنها لنفسها. ماذا يحدث؟

غاصت برأسها على وسادة الريش، وفكّرت في أمها الأسيرة في الظلام في آخر البستان، وفكرت في والدها؛ في ذاك الذي يقبع خلف هذا الجدار.

من خلف النافذة المغلقة المواجهة للبستان كانت تعلو مناجاة مخنوقة. نهضت ووقفت على السرير وأنزلت مزلاج النافذة وفتحت مصراعيها، وجعل النسيم المعطّر ستارة التول تلامس وجهها. كان المشهدي أسد الله والمعلّم عباس قد أشعلا كومة من الأوراق، وجلسا على صفائح القصدير وانسجما بصورة حميمية.

أغلقت دلنواز النافذة، وعادت ثانية إلى جدار الصالة وألصقت أذنها:

- هنا... حديثاً... قد صنعوا... أمين آباد... أقول

عرفت صوت جدتها، ثم صوت أبيها:

- من المستحيل أن أدعها... تحت أيدي رجال غرباء...
- سيدي العزيز! لقد تقدّم العلم... لِمَ هذا التعصّب القاسي؟
- لا تلعبوا بِقَدَر ابنتي...

اختلطت الأصوات، ثمّ سمعت صوت والدها ثانية:

- تريدون أخذ زوجتي إلى دار المجانين؟... حسناً جداً... خذوها... نفقتها عليّ... لكن مسؤولية... كلّ ما يحدث لها... عليكم.

سمعت صراخ جدتها:

- أذكياء جداً... تحضرون... جناب ميرزا... أبو تراب أفندي... لا...النفقة... عليكم... والمسؤولية أيضاً!

وكان صوت الخال أعلى من باقي الأصوات، إذ ساد السكون بعده:

- لديّ اقتراح... أنا أيضاً... الآن أبقوها مدّة... في بيتكم... حتى إن شاء الله... يتغير... قرار جناب ميرزا.

قفزت دلنواز عن السرير، وفتحت الباب، وركضت إلى الحديقة. كان الرجلان يدخنان الغليون ويتحدّثان.

سَلَّت نفسها بمشاهدة نور المصباح الخافت في نهاية البستان، واتجهت كالخفّاش إلى تلك الناحية حيث لم يكن يوجد جدار بارد ولا كلمات كقطرات الشمع المذاب.

لمّا وجدوها بعد ساعة، كانت تجلس على درجتين منخفضتين خلف باب الغرفة الآجريّة الصغيرة التي يدخلها نور خافت من الخارج كالطفل في الرحم، وكانت قد وضعت إصبعها في فمها وأخذت تمصّها.

في الجهة المقابلة من الباب، كانت السيّدة الصغرى تجلس منكمشة على الأرض والسلسلة في قدمها، ويدها إلى الأعلى، وكانت تستند بوجهها إلى النقطة نفسها التي كان فيها وجه دلنواز، وكان الحد الفاصل بينهما هو مصراعا الباب الخشبيّ الأزرق لا غير.

حين العودة، كانت دلنواز تنتحب في حضن والدها، وكان المشهديّ أسد الله يضرب بالسوط جسدي الحصانين، والسيّدة الأمّ تقرأ آية الكرسي. كان القمر قد التفّ بشبكة من الغيم الأسود تنبئ بإعصار وشيك.

* * *

يا نُقْلي، يا سكّر نباتي، أيّتها اللؤلؤة، أيّتها الوحيدة!

كانت يد السيّدة الأمّ الممتدّة بتلك العروق الزرق البارزة تتجوّل خلال شعر دلنواز المجعّد المتحرّر من شريط الشعر، وكانت تهمس بأغاني المحبّة. لكنها بقيت كما هي تضع ركبتيها في حضنها بعناد، وتتكئ بجسدها على زاوية ضيقة بين الجدارين وتبكي.

مضت ساعة منذ بدأ هذا الغيم المتجهّم في الهطول، ولم تنفع مواساة الجدّة ولا وعد زبيدة ووعيدها، ولا نظرة ماه منظر وابتساماتها أحياناً؛ أي منها لم يستطع أن يواسيها.

" أريد أمّي... أريد أمّي ".

لم تقل، لكن لو قالت، لكان هذا ما قالته.

تحرّكت السيّدة الأمّ، ودلّكت بيدها اليمنى ثديها الأيسر وقالت مضطرّة:

- يا زبيدة! اذهبي وأحضري حقيبتها من الخزانة!

ذهبت زبيدة، وعادت بيد ممتلئة. نظرت دلنواز إلى أثر دموعها على الجدار، فبدا لها كرسم غزال صغير.

أخذت السيّدة الأمّ الحقيبة الصغيرة الخضراء المنقّطة باللون الأبيض التي تفوح منها رائحة الجلد الجديد من يد زبيدة وفتحتها، فوضعت دلنواز يدها أمام وجهها وشاهدت من بين انفراج أصابعها.

- انظري! هل من أحد يملك هذه الأشياء الجميلة، فينوح بدل أن يفرح؟

حرّكت الكرة الزجاجيّة الصغيرة، فتساقطت قطع الثلج بهدوء على أغصان شجرة خضراء وأوراقها؛ دفتر من أربعين ورقة ذو غلاف شطرنجيّ، قلم رصاص علامة التمساح لم يكن قد بُرِيَ بعد، ممحاة ملوّنة بالأخضر والأحمر والأبيض. كانت السيّدة الأمّ تخرجها واحدة فواحدة من داخل الحقيبة، ثم تعيدها إلى مكانها ثانية، لكن الأصابع كانت ملتصقة بعضها ببعض، وكان صوت البكاء يعلو.

- لا أريد! لا أريد! أريد أمي!

هذه المرّة قالت، قالت بصوت عال، بقوّتها كلّها بحيث أنّ السيّدة الأمّ عبست:

- تعالي يا زبيدة! تعالي احمليها كلّها وخذيها وضعيها في مخزن الفحم. لا تريد، لا تريد. حينما تأتي "هُما " الغسّالة يوم الثلاثاء أعطيها إياها لتأخذها إلى ولدها.

أغلقت الحقيبة وأعطتها لزبيدة، ثمّ أشعلت نصف سيجارة واستندت إلى متكأ خلفها.

بعد دقائق، كانت دلنواز قد بدأت بالتحزيق، فألصقت زبيدة فمها بشحمة أذنها:

- تعالي، لنذهب إلى السيدة صدّيقة لأريكِ علبة التسلية!

حين خرجت الاثنتان من الغرفة ويد إحداهما في يد الأخرى، أطفأت السيّدة الأمّ سيجارتها في المنفضة، واستلقت بشكل مائل:

- " آه كم هي صعبة تربية طفل بلا أم ".

* * *

لمّا كان مزيج العرق والدمع المالح ينسحب على وجه السيّدة صنم السمين الأبيض، كانت تكنس أرض الغرفة الترابيّة وتغنّي بأنين أيضاً:

- يا بنتي، وضعتِ الأمل في قلبي يا بنتي، يا بنتي، ليتك كنتِ سالمة وفي بيتك وتعيشين حياتك، وكنت أكنس تحت قدميك يا بنتي. يا ابنتي كنتِ أجمل أبنائي يا بنتي.

كانت أشرف، السادات الجارة القديمة ورفيقتها الدائمة، تجلس على حافّة عتبة الغرفة، وأنبوب خرطوم النارجيلة في زاوية فمها، ورذاذ دمع في عينيها، وكانت تحدّق إليها. كانت الملاءة قد انزلقت عن رأسها، وكانت ضفيرتاها اللتان تداخل فيهما البياض والسواد ترتفعان وتنخفضان على صدرها العظميّ مع كل سحبة تسحبها من النارجيلة:

- يا امرأة! ليكن قلبك عند السيّدة زينب التي كان جبل من الحزن على كتفيها، وأعطت الجميع درساً في الصبر. ألم تري ابنة السيّدة عالمتاج؟ لم تترك على جسدها قطعة ثوب سالمة، كانت قد سقطت في زاوية الغرفة لا تأكل طعاماً ولا تتحدّث بكلام، ألا تذكرين كيف كانت تعوي منذ طلوع الصبح إلى الليل وتضرب رأسها بالأرض؟ لكن مَن كانوا حولها لم يَدَعوا

الشكّ يدخل قلوبهم، فأخذوها إلى عتبة الإمام الرضا وربطوها إلى الضريح المطهّر، وبقدرة الله لم يمض أسبوع حتى عطست وتكلمت.هل تتصورين أن حال ابنتك السيّدة الصغرى أسوأ من حالها؟ أو أن عمل الأئمّة الأطهار، بلا تشبيه، كعمل الطبيب الذي يطوي وصفة العلاج فتشفي في ليلة؟ لا يا أختي العزيزة، ليس لهم عمل أصلاً. فقط يجب ألا يخامرك الشكّ، ويجب أن تجعلي إيمانك قوياً. والآن، لا تسحبي يد الحاجة، وقولي يا علي!

وضعت السيّدة صنم المكنسة على الأرض، ورفعت يديها نحو السماء وناحت: يا علي... يا علي!

علا صياحها في الغرفة وخرجت من الباب. ركضت بناتها الأربع كباراً وصغاراً ووقفن لمشاهدة الأم بحيرة. جلست أشرف السادات إلى جانب المرأة، ووضعت يدها على قلبها وقرأت دعاء الصبر. غابت السيّدة صنم عن الوعي في حضنها، وضغطت أسنانها بقوة واصفرّ لونها كالزعفران. دلّكت أشرف السادات كتفيها وصاحت بابنتها الكبرى:

- اركضي وأحضري رشّاشة ماء الورد يا بنت!

وبأطراف أصابعها أزاحت الشعر الملتصق بجبهة السيّدة صنم ووجنتها:

- تكلّمي يا أختي! توسّلي بالأئمة الأطهار! لا تبقي شيئاً في قلبك!

أخذت رشاشة ماء الورد من يد ابنة السيّدة صنم، ورشت قطرات ماء الورد الصغيرة المعطّرة على رأسها ووجهها. أخذت السيّدة صنم نَفَساً عميقاً، وتحرّكت وفتحت جفنيها وبدأت تنوح مرّة أخرى:

- يا بنتي، يا بنتي، يا بنتي! يا ويلي، يا ويلي، يا ويلي. كنتِ ابنتي الأولى، في الثالثة عشرة من عمرك، سيّدة ذات شخصية، كقمقم الذهب، كانت الأسرة تحار أمام فنّك. أي قطعة لم تحوكيها؟ أي أنموذج من الخياطة لم تصنعيه؟ أتوا وقالوا: السيّدة صنم! هل تزوّجينها؟ قلت: إنّ رائحة الحليب لا زالت تفوح من فم ابنتي، فماذا تفعل مع الزوج؟ لقد وَقَعْتُ في فخّ البلاء، ألم أقع؟ والآن أرمي هذه الطفلة البريئة في النار؟ أين ذاك الورد الذي وضعه زوجي على رأسي؟ لكن هل تركوا الأمر؟ كانت أسرة ميرزا هذه أسوأ الجميع، التصقوا بي كالغراء ولم يتركوني، أتوا وذهبوا حتى رُبِطَ لساني في النهاية. الإنسان مغفّل يا أختي، فقد رأيت أنّ لهم عزوة، جلالاً وعظمة. رأيت أن لديهم خادمةً وغلاماً وبستانيّاً وعربةً، فقلتُ لنفسي: لِمَ أغلق طريق سعادتها؟ أعطيتهم إياها وذهبت، لم تمض سنة حتى انقلبت أحوال ابنتي.

إلهي! لا سامح الله أم زوجها إذ إنّ ما نعانيه بسببها. يا إلهي! لقد أحرقوا ابنتي، والآن يريدون أن يلقوا رمادها مع الريح.

أخرجت أشرف السادات البنات اللواتي أصابتهنّ الغصّة من الغرفة، ورفعت النارجيلة عن عتبة الغرفة وأعطتها إياها. نفخت في الرماد المتوضّع على جمرات النار، ووضعت أنبوب الخرطوم بقوة في زاوية فمها.

- لا تغفلي عن ابتلاء الله يا أختي! إن الله يحبّ الصابرين. ثقي أن الله الذي أخذها منك سيعيدها إليك سريعاً جداً، وسيأتي يوم تقرئين فيه:

"أدم عليّ النعمة منتصراً يا رب... أول أمس، وأمس، واليوم "[1] خذي نفساً عميقاً لينفرج قلبك.

أخذت السيّدة صنم نفساً عميقاً، فقلقل الماء في الجرّة البلوريّة للنارجيلة. قفزت عروسان حمراء وبيضاء " شهين ومهين " من بين أوراق الورد الحمراء، وكانت البنات يشاهدن من جانب الستارة المزاحة، فتأوّهن بهدوء وتحلّقن حول أمّهنّ وغرقن في مشاهدة لعب العروسين في ماء النارجيلة.

هزّت أشرف السادات رأسها:

- حينما تأتين بها فسأقرأ لها ختم " أمن يجيب ".

مرّة أخرى توضّع رماد الصبر على القلب الذي كان يحترق، واختفى أثر الحرق.

* * *

وضع أحمد عليخان الفانوس على المصطبة أمام الباب، واتّجه إلى عزيز الله خان الذي كان يسير وقد نفد صبره:

- خيراً، لم يحدث أمر مهم!

توقف عزيز الله خان ووضع يده في جيب صدريّته، وأخرج ساعة جيبه وسمّر نظره إلى صفحتها التي تظهر في الليل:

---

(١) شعر متداول معروف (المترجمة).

- كان موعدنا الخامسة عصراً، وليس التاسعة ليلاً. ليتنا كنا قد تصرّفنا على الفور، التأخير لم يكن أمراً صائباً.

دفع أحمد عليخان الفانوس إلى الخلف، وجلس على حافّة المصطبة، وأخذ بيده قبضة من سبحة الشاه مقصود واستخار. قال بعد صمت:

- إنّهم في الطريق، إنه لن يفعل ذلك لأجل الغريب؛ إنّها زوجته وهو مجبر على أن يرافقها.

في المنظر المقابل، كانت الهضاب، فجلسا ينتظران وقد احتضن كلّ منهما ركبتيه. كان الجوّ صافياً والنجوم تتلألأ، وكان ثمّة نسيم عليل قد هبّ في جسد القمح، وهمس مخنوق يصل إلى المسامع.

وضع عزيز الله خان الساعة في جيبه:

- هل أنت متأكّد أن ميرزا وعد أن يأتي في تلك الليلة؟

- مئة في المئة، حتى أعلم باليوم أيضاً: الثاني من جمادى الأولى، الساعة الخامسة عصراً.

- إذاً، نصبر ربع ساعة أخرى، إن لم يأتِ نحضر وسيلة نقل بأنفسنا ونأخذها.

لم يكن كلام عزيز الله خان قد انتهى حتى التفت الاثنان نحو الطريق الملتوي إلى جانب حقل القمح على صوت ضربات حوافر الحصانين، وشاهدا شبح العربة السوداء التي تتقدّم تحت نور القمر الخافت.

تقدّم الرجلان خطوات عدّة للاستقبال، وتوقّفت العربة مقابلهما. نظر الاثنان وسألا:

- عجباً! أين ميرزا أبو تراب إذاً؟

قال المشهديّ أسد الله وهو ينزل من العربة ويمسح بيده على رأسه خفيف الشعر:

- يسلّم عليكما ويعتذر، فقد طرأ أمر مهمّ.

كزّ أحمد عليخان على أسنانه:

- أهمّ من هذا؟!

حنى المشهديّ رأسه وقال:

- خادمكم في الخدمة.

سار عزيز الله خان نحو باب العمارة:

- ما شاء الله على هذه المعرفة!

سار أحمد عليخان خلفه أيضاً:

- لا جعل الله أي وردة شوكة. حين تذهب إلى سيّدك قل له إن الرجل يجب أن يكون عند كلامه.

عبر عزيز الله خان وأحمد عليخان من الطريق الرمليّ في البستان، الذي يصل إلى الغرفة الآجريّة الصغيرة، وتراءت السيّدة الصغرى تحت نور المصباح الهوائيّ المعلّق إلى الجدار، الذي أصدر صوتاً عندما فتح الباب بالسلسلة التي كانت تلتفّ حول قدمها كالأفعى، كانت قد وضعت رأسها في زاوية الغرفة وأخذت تغني بصوت منخفض:

- " بذرة ذات رائحة

لم يكن يعطيني

لمّا كان يعطيني

كان يعطيني قشرتها ".

لمّا علا صوت الباب، أدارت رأسها بهدوء، وسمّرت نظرتها الحارّة إلى كليهما، ولمعت بارقة من الوعي في عينيها.

تقدّم أحمد عليخان وقال:

- سلام يا بنتي العزيزة. كيف أنت؟

جلست متكوّرة أمامه على الأرض وهزّت رأسها:

- عزيزة أبيك، وهذا الحظ السيّىء كله.

قال عزيز الله خان:

- سلام عليكم يا سيدة السيدات الوردة! أتينا لنأخذك إلى السيّدة صنم. انهضي الآن كالبنات الجيدات وتعالي معنا، فقد تأخّر الوقت.

وضع يده تحت إبطها ورفعها، فصرخت السيّدة الصغرى وسحبت نفسها إلى الخلف. التصق بها عزيز الله خان بقوة:

- لا تتدلّلي، يا عروس ميرزا أبي تراب.

قبضت السيّدة الصغرى على وجهه، فتجهّم وجه عزيز الله خان، لكنّه لم يترك ذراعها:

- انهضي يا أمّ دلنواز!

أتى أحمد عليخان ليساعده:

- حينما تذهبين إلى هناك، فسنحضر إليك ابنتك أكثر لتريها.

نهضت السيّدة الصغرى ووقفت بسرعة. كانت قد أمالت زاويتي شفتيها إلى الأسفل، وكانت تحدّق بتأمّل إلى وجهي الرجلين. كانت الروح قد سرت في الجذر، كأنّه لم يعد يسمع غير صوت أنفاس ثقيلة هادئة.

سار الرجلان حول وردة المسمار الجداري ذي الرأس العريض، واقتلعاه من مكانه. وضعا ملاءتها على رأسها وأمسكا تحت إبطيها. مرّت ظلال سود ثلاثة تحت نور القمر الباهت من جانب البستان، ولمّا وصلوا أمام الباب رأوا المشهدي أسد الله ينتظر. ملأت الظلال حجم العربة الخالي، ونزل السوط على ظهري الحصانين.

كان أثر حركة الفانوس الأحمر المضاء إلى جانب العربة يحكي عن احتراق، وكان قمرٌ بدرٌ كالنحاس المذاب يلتهب في أعلى الهضاب، ليُظْهِرَ الأفعى التي التفّت حول نفسها في أرض العربة، التي كانت قد غرست نابيها أيضاً في قدم السيّدة الصغرى ولم تكن تتركها.

* * *

ذهبت ماه منظر، والملاءة على رأسها بقدمين حافيتين إلى جوار اللوح الخشبيّ الذي كانت قاعدتاه في المجرى أسفل البركة، وقالت لميرزا أبي تراب الذي كان يجلس على السجادة ويسبّح بأصابعه:

- العشاء جاهز، تفضّل!

كان مصباح الكيروسين المعلّق بخطاف موصول بجذع الشجرة، يخرخر على نحو خفيف وقد ألقى بظلّه على وجه دلنواز التي كانت تدور حول البركة وتحاول أن تضع الكرات البيض الصغيرة على ماء النافورة لكنها لم تفلح.

قبّل ميرزا أبو تراب قرص السجود، وطوى سجادة الصلاة ورفع يديه إلى السماء ودعا، وقال بعد قليل دون أن ينتبه إلى ماه منظر:

- سيّدة فشفشة، انظري إلى هناك!

على امتداد أصابع ميرزا في قلب الليل الأسود، كان ثمّة فانوس أحمر يحترق ويسقط.

أزاحت دلنواز بيدها خصل الشعر الأمامية، وأتت وهي تنظر إلى السماء وارتاحت على ركبة والدها. كانت طائرة من الورق تهزّ رأسها، وكان الفانوس يحترق على امتداد حركتها.

- لم يعد الطعام صالحاً للأكل، أسرعا!

لكنّ الأب والبنت كانا ينظران إلى السماء دون أن يجيبا.

- ألا تسمع صوتي يا ميرزا؟

نظر ميرزا إلى ماه منظر نظرة عابرة وقال:

- اذهبي ونحن سنأتي!

سارت ماه منظر بغيظ نحو الغرفة، لكن صوت دلنواز صاح فجأة:

- يا ويلي... يا ويلي احترقت طائرة الورق أيضاً.

تسمّرت في مكانها، الآن، كان الاثنان قد وقفا يداً بيد وهما دهشان من الفانوس الذي احترق وأصبح قطعاً عدّة. كانت ماه منظر أيضاً قد احترقت، لكنّ رمادها كانت تذهب به الريح هنا وهناك، وكانت توزّعه في أنحاء البيت كلّه، وهذا الشيء لم يكن يرضيها. مرة أخرى، سارت نحو الغرفة في حين كانت شعلة الغيرة تحرق روحها.

كانت المائدة مفروشة، وكانت الريح تحمل على جناحيها عطر طعام منزّلة الباذنجان والـ " قورمه سبزي"[1] المطبوخة بالسمن الكرمانشاهيّ.

كانت السيّدة الأمّ تجلس على فراش قطنيّ صغير، وكانت خطوط وجهها قد غاصت من ألمٍ مؤذٍ رتيب. وقع نظرها على ماه منظر، فقالت:

- هذا الطعام لم يعد صالحاً.

رفعت ماه منظر كتفها وجلست بهدوء، فرفعت السيّدة الأمّ صوتها:

- يا بُنيّ، ميرزا! أين أنتما؟ جمد الطعام.

ظهر الأب والبنت عند العتبة، وكالعادة، لمّا رأى ميرزا أمّه حنى رأسه؛ وأعطتها دلنواز الوردة الحمراء التي كانت قد قطفتها من الغصن. في لحظة هدأ ذلك الغضب والصخب كلّه، وحلّت محلّه ابتسامة حارة؛ ابتسامة سطع نورها فقط على دلنواز وميرزا، ولم يكن قد وصل منها نصيب إلى ماه منظر.

---

(١) طعام مؤلّف من اللحم المطبوخ بالمرق مع الفاصولياء الحمراء والشبت والبقدونس والسبانخ والليمون العُمانيّ (المترجمة).

أتت زبيدة والمشهديّ أسد الله أيضاً، وانتهى العشاء الذي مرّ بالأحاديث المألوفة، ولمّا أحضرت زبيدة الإبريق والطست لتغسل السيّدة الأمّ يديها ألقى ميرزا نظرة على وجهها الأصفر الشاحب وقال:

- كأنّك لست على ما يرام يا أمّي؟!

جفّفت السيدة يديها وقالت:

- الظاهر أني أشرفت على الموت يا ولدي.

قطّب ميرزا حاجبيه:

- كفّي عن هذا الكلام! لِمَ لا تذهبين إلى نور الحكماء ليزول التعب؟

تأوهت السيّدة الأمّ:

- طبيبي هو الله.
- كلامك متين، لكن ليس صحيحاً أن تجلسي هكذا يداً على يد.

ثمّ اتّجه إلى المشهدي أسد الله:

- خذ أمي غداً إلى نور الحكماء! سيدة زبيدة أنت أيضاً اذهبي معها!

هزّت السيّدة الأمّ رأسها أسفاً:

- قلبي يحدّثني أنه بلا فائدة، في البداية كانت بحجم حبّة الماش والآن بحجم حبّة البندق، كالصندوق المغلق، وفي هذه الحال أشرفت على النهاية.

داعب ميرزا شعر دلنواز التي كانت قد استلقت على ركبته:

- غداً يعاينك نور الحكماء ويقول رأيه، خيراً إن شاء الله.

خفّ نور مصباح الكيروسين وخفّ، فنهض المشهديّ ليضخّ النفط. سقط نصف شبكة المصباح وغرقت الغرفة في الظلام. تأوّهت السيّدة الأمّ مرّة ثانية:

- أيها القلب الغافل! مضى كلّ شيء.

قالت دلنواز بصوت عال:

- متى ستأتي الكهرباء إلى بيتنا؟

أشعلت زبيدة عود ثقاب وأضاءت مصباح الكاز، ومسح ميرزا أبو تراب بيده على شعر دلنواز وقال:

- قريباً، أعدك أنه حينما تعود أمي من سفر كربلاء فسيكون البيت غارقاً في النور.

تحرّكت ماه منظر، وقالت السيّدة الأمّ:

- لا تظنّ يا ولدي أنّ روحي قوية إلى هذا الحدّ، لقد تصدّعت روحي؛ فهذه الكأس الخزفيّة ستغدو قطعاً عدّة قريباً.

وضعت زبيدة قدح الشاي، ضيق الوسط، الذي كان يتصاعد منه بخار خفيف أمامها:

- لا تقولي هذا يا سيدة! عميت عين أرادتك بسوء، أخذ الله من عمر أعدائك! إن شاء الله ستعيشين مئة وعشرين سنة.

هزّ ميرزا رأسه:

- غداً سأذهب لأحضر لك التذكرة، وسأنهي الأمر في غضون أسبوع. أقول منذ الآن: ادعي لي يا أمي!

ضربت دلنواز يداً بيد:

- عزيزتي الغالية! هل ستحضرين لي دمية؟

انفرجت الشفاه عن ابتسامة، وشفتا ميرزا أكثر من الجميع.

- سيّدة فشفشة العزيزة! ما شأنك بالدمية؟ أليس من المقرّر أن تذهبي إلى المدرسة؟

ضمّت دلنواز شفتيها وقطّبت حاجبيها:

- لا أريد، لا أريد، أريد دمية.

جذبتها السيّدة الأمّ نحوها:

- وهل الذهاب إلى المدرسة أيضاً برغبتك؛ يجب أن تتعلّمي حتى تقرئي لي القرآن بعد موتي.

قلبت دلنواز شفتها:

- أنتِ لن تموتي.

لم تقل، لكن لو كانت قد قالت لكان هذا.

بعد أن بدّل المشهديّ أسد الله شبكة مصباح الكيروسين، أطفأت زبيدة مصباح الكاز. وضع المشهديّ المصباح على المدفأة وقال:

- سيدي! لديّ طلب.

مدّ ميرزا يده وأخذ ديوان حافظ عن الرفّ:

- قل يا مشهديّ!

أغلق عينيه وهمس بالفاتحة، مسح بيده ثلاث مرّات على حاشية الكتاب، وفي المرّة الأخيرة فتحه.

- نريد، بعد إذنك، أن نجمع متاعنا وأثاثنا ونسير إلى ولايتنا.

أغلق ميرزا الكتاب:

- الآن؟ ليس موسم ماء الورد.

- هذا صحيح! لكن...

ارتعشت يد زبيدة التي كانت تدير صينيّة الشاي وانقلب قدح، فالتفتت السيّدة الأمّ إلى ميرزا وقالت:

- قل، قل له أن يُخرج هذه الفكرة الفجّة من رأسه! يريد أن يذهب؟ مع السلامة لكن ليس مع زبيدة، زبيدة ستبقى هنا سواء ذهبت أو بقيت، وإن أراد عزرائيل أن يأخذني أيضاً فلن أغادر هذا البيت إن لم أطمئن على أن زبيدة جالسة على قلب الطفلة.

كان صوتها قد تهدّج، وأخذت يداها ترتعشان. تابع المشهديّ أسد الله خجلاً:

- لم أكن أريد أن أزعجكم، لكن قبل أيام عدّة كان أحد معارفي قد جاء من " قمصر " و...

رفعت السيّدة الأمّ صوتها ثانية:

- لا حاجة لأن تشرح لماذا وقع هوس الذهاب إلى الولاية في رأسك فجأة. أتظنّ أني لا أعرف؟ أعرف جيداً أيضاً. لكن اسمع منّي، إن فكرتك غلط من جذرها وأساسها. من هنا عليك أن تتوسل إلى الله والرسول، فربّما تُفْرَج، أم لا، لا تريد؟ اذهب إلى قبر والدك، ادعُ وتوسّل، تعوّذ. إن لم يفد فاذهب إلى الميتم وأحضر طفلاً وأرح رأسك ورأس هذه المرأة.

خرجت زبيدة تحمل أداة جمع القمامة المملوءة بقطع الزجاج كالظلّ، وعادت بيد خالية. جلست بهدوء أمام بساط السماور وأسندت كتفها إلى الجدار. كان المشهدي قد طأطأ رأسه وأخذ يلعب بحبّات السبحة.

كانت السيّدة الأمّ قد أسندت ظهرها إلى الخلف، وأخذت تتنفس بسرعة كبيرة، فنهض ميرزا أبو تراب من مكانه:

- دعيني أذهب لأحضر نور الحكماء.

أشارت السيّدة الأمّ بيدها وقالت:

- لا، لا داعي. اذهب ونم! أنا أيضاً سأنام، زبيدة؛ أعدّي لي المكان!

نهضت زبيدة وبسطت فراش السيدة، وكذلك بسطت فراش دلنواز.

ذهبت ماه منظر وميرزا، وبعدهما المشهديّ أيضاً.

أطفأت زبيدة مصباح الكيروسين وخرجت من الباب، ولمّا وصلت إلى جوار البركة التفتت ونظرت إلى الإيوان؛ كان ظلّان ملتصقان أحدهما بالآخر تحت نور القمر، وقد رفعا رأسيهما وكانا يشاهدان القمر. ارتعشت وأدارت وجهها. وصلت إلى الغرفة الواقعة في الجهة الأخرى من باحة

الدار. أزاحت الستارة، فرأت المشهديّ قد نام، ظهره نحوها ووجهه إلى الجدار.

كانت الشمس لم تشرق بعد حين مرّ ميرزا أبو تراب من زقاق الأكاسيا وبقجته تحت إبطه، وسار متجهاً نحو " حمام صحرا ". كانت الكلاب تنبح بعضها خلف بعض، وكان تنور خباز الـ" سنگک " مشتعلاً. استغرق الأمر ساعة حتى ذهب إلى الحمام وعاد. لمّا عاد اشترى خمسة أرغفة خبز سنگک مرشوش عليها سمسم. حتى وصل إلى باب البيت كان قد قسّم واحداً منها لكلب كان يتبعه ويهزّ بذيله. لمّا دخل البيت راى دلنواز جالسة إلى خوان الفطور وتنتحب باكية، وكان شعرها أشعث، وكانت السيّدة الأمّ تنصحها.

بعد ساعة، كانت دلنواز ترتدي الصدرية الرمادية المصنوعة من قماش التفتة وتضع حزاماً جلديّاً أبيض حول خصرها، وترتدي ياقة من التول الأبيض، ولبست على رأسها ملاءة ذات رباطين يُعْقَدان أسفل عنقها. كذلك تناول ميرزا القرآن من أعلى المدفأة وجعل ابنته السيّدة فشفشة تمرّ من تحته، ورأى أن أمّه قد قرأت آية الكرسي ونفختها على لبّ اللوز، ووضعت في يدها قِراناً لتتصدّق به في الطريق.

* * *

- خالتي العزيزة! خالة!

حين سماع أشرف السادات صوت نواح إحدى بنات السيّدة صنم التي كانت تناديها من سطح البيت، ذهبت إليها بسرعة وقد نزلت درج بيت

الجيران كلّ درجتين معاً، ووصلت إلى السيّدة صنم التي كانت تجلس أمام غرفة السيّدة الصغرى وتخرّش وجهها.

- يا ويلي... يا ويلي... يا ويلي... ابنتي!

أمسكت أشرف السادات يديها بقوة، لكنّ اليدين اللتين كانتا كسمكتين بيضاوين زلقتين انزلقتا من بين يديها، وكانتا تتحرّكان بشدّة إلى الأعلى والأسفل.

- ماذا حدث يا صنم العزيزة! لِمَ تفعلين هذا بنفسك يا أختي؟

كانت عين السيّدة صنم وأذنها عند السيّدة الصغرى التي كانت كالبحر الهائج. كانت تتقدّم وتتراجع إلى الحدّ الذي كانت تسمح به السلسلة.

كانت قطع الثوب الممزّقة قد تساقطت هنا وهناك، لكن كانت لا تزال تقبض على ما بقي ممّا كان يسمى ثوباً، وكانت البنات قد التصقن، بعضهنّ ببعض، وأخذن في النواح والحركة إلى هذه الجهة وتلك الجهة. صرخت أشرف السادات:

- إن كنت لا ترحمين نفسك فارحمي هؤلاء البنات البريئات! انظري كيف يرتعشن؟

ألقت السيّدة صنم نظرة إلى بناتها بشفقة، وحرّكت جسدها السمين كسفينة علقت في الوحل:

- أبحث عن وردتي الضائعة...

ضمن " ويلي " التي كانت تخرج من شفتي السيّدة الصغرى الجافة المغلقة، كان اسما دلنواز وميرزا يتفتحان مثل الحباب المنفوخ في الهواء ويمحى من جديد.

كانت السيّدة صنم تئنّ:

- كانت ابنتي سليمة معافاة، وكان عقلها كاملاً. لا أعلم ما أعطوها لتشرب، أولئك الظالمون، حتى صارت هكذا.

حين سماع صوت إغلاق الباب، وضعت أشرف السادات الملاءة على رأسها واتكأت السيّدة صنم برأسها، على ظاهر الجدار. سُمِعَ صوت أحمد عليخان يقول: يا الله، سيّدة صنم!... طيبة!... طاهرة!...

وتزامناً مع ارتفاع صوت بكاء السيّدة صنم من جديد، ظهر على عتبة الباب، فنهضت أشرف السادات من مكانها وسلّمت عليه:

- في الأقلّ قل شيئاً يا أحمد عليخان، لقد أهلكت نفسها.

كانت قد انتهت ولولة السيّدة الصغرى للتوّ، وكانت تذكر اسم دلنواز على نحو متتابع. اتجه أحمد عليخان نحو السيّدة صنم:

- هل تظنّين أنّ حالها يتحسّن بهذه الأفعال؟

ضربت السيّدة صنم بقبضتها المكوّرة على صدرها:

- إلهي لا ترى خيراً في عمرك أيها الرجل، كلّ ما أعانيه بسبب قلّة غيرتك، لا تتصرّف! لا تدافع عن أهلك وعيالك! لو كنت قد أمسكت ياقة

صهرك منذ اليوم الأول وقلت له إني قد أعطيتك طاقة ورد أمانة لما كان قد شرّدها في الغد، أتمنى أن يصيبه سهم الغيب.

ضرب أحمد عليخان بكفّ يده مرّات عدّة على جبهته:

- لا تفعلي هذا يا امرأة! لا تدعي! سيعود علينا.

- إلى درك جهنّم، إلى الموقدة، إلى الجحيم.

وضعت أشرف السادات يدها على فم السيّدة صنم:

- يكفي يا أختي! بِمَ يعود عليكِ هذا الشجار؟ انهضي، انهضي وفكّري في حال هؤلاء البنات البريئات!

قال أحمد عليخان:

- سآخذها إلى دار المجانين، يقولون إنه يوجد هناك الطبيب والدواء. حتى لو لم تبقَ إلا سجّادة تحتي فسأبيعها وأنفق ثمنها حتى تتحسّن، سترين.

صرخت السيّدة صنم:

- ألم تَرَ ماذا قال زوجها؟ إن كنت تقول الصدق فألقِ حمل المسؤولية على كتفه، فصهرك هذه الأيام مسرور جداً وطَرِبٌ.

قال أحمد عليخان:

- لا إله إلا الله.

وخرج من الباب.

حرّكت أشرف السادات الهواء للسيّدة صنم بالقسم الأمامي من الملاءة:

- الإنسان بلا أولاد ملك بلا همّ. جُعِلْتُ فَداكِ يا أختي؛ فقلبك ضيّق، وحِمْلُكِ زجاج، وطريقك مملوء بالحجارة.

وضعت السيّدة صنم رأسها على كتفها:

- لو تعرفين كيف يحترق قلبي يا أختي! لو تعرفين.

بعد ساعة، بألف مصيبة، ألبست المرأتان السيّدة الصغرى ملابس جديدة، ووضعتا لقمة طعام في فمها، وقرأتا وِرْدَ " أمّن يجيب "؛ فلعلّ الله يعين من عنده.

وقع انعكاس الشمس قبل الغروب على زجاج النافذة الملوّن، وظهرت بقع بلون الدم على الباب والجدار:

- انظري! هذه دموع ملائكة الله تبكي من أجل ابنتك. إن شاء الله ستشفى يا أختي.

قالت أشرف السادات هذا، وودّعت جارتها وانصرفت.

* * *

كانت دلنواز تجلس في الصفّ الأوّل من قاعة الدرس ملتصقة بجدار كان قد رُشَّ بالماء حديثاً خلف طاولة بنيّة اللون، بضفيرتين مزيّنتين بعقدتين بيضاوين، ورداء من قماش التفتة يحدّ من قتامة لونه حزام أبيض وياقة من التول. كانت قد اتّكأت على حافّة الطاولة بمرفقيها، ووضعت قلم

الرصاص، علامة التمساح، في زاوية شفتيها وأخذت تمصّه. كانت برودة محبّبة قد انصبّت في روحها من تلك الدائرة البيضاء الباهتة فمنحتها الهدوء. في غضون المدّة التي كانت قد أتت فيها إلى المدرسة لم تستطع أن تحبّ المعلّمة وكلامها لأنّ كلامها لم يكن من باب المحبّة بل من باب الضيق.عينان غير متناسبتين، شعر مجعّد أسود، نابان ذهبيّان، ورائحة عرق قويّة تحت الإبطين.

لا، لم تكن تستطيع أن تحبّها؛ ولاسيّما أنّ أصواتاً كانت تتداخل في رأسها؛ كانت زبيدة تبكي:

- أيتها البنت المسكينة! سيأخذون أمّك إلى دار المجانين.

تنهرها السيّدة الأمّ:

- لا ترعبي البنت بلا فائدة! ليس لديهم الجرأة لفعل ذلك.

كانت زبيدة تلقي المكنسة في البركة، وكان بيض السمك يلتصق بها. كانت تضرب رأسها وتشير إلى أثر الدمّ الذي كان يسيل من المجرى المحيط بالبركة إلى حافّة الحديقة. كانت زبيدة تبكي:

- أنا عاقر، حظي أسود، لو كانت لدي بنت ذهبية الشعر، أو ولد ذو غرّة شقراء.

كانت ماه منظر تأتي وتضحك:

- لا يهطل المطر بدعاء الهرّة السوداء.
- أنا أتحدّث إليك يا بنت. أين انتباهك؟

- أنا؟ أنا؟

- نعم، أنت... انهضي لأرى!

لم تكن قد سمعت في عمرها القصير صراخاً بهذا العلوّ:

- قولي لأسمع! ماذا كنت أقول؟

- أنا. أنا؟

- مدّي يدك لأرى!

- لا!

- قلت مدّي!

مدّت يدها الصغيرة باهتة اللون بحذر، فرأت العينان السوداوان زوجاً من الجواهر فيها، فنزلت أوّل ضربة:

- هق!

وقبل أن تنزل الضربة الثانية حارّة على كفّ اليد، قفز الطائر المذعور من القفص، ورفرف في التفاف طريق المدرسة الطويل وخرج من المدرسة دون الاهتمام بكلام الأب العجوز.

قطعت طريق المدرسة إلى البيت من دون ملاءة، بوجه مبلّل بالعرق والدمع، وحين وصلت إلى زقاق الأكاسيا قبضت على مطرقة الباب وقرعت بكلّ قوّتها. وحالما فتحت زبيدة الباب غرقت في حضنها:

- ويلي، ويلي، الويل لنا. فقدنا دلنواز!

بسماع صوت نواحها قفزت هُما الغسّالة، التي كانت تجلس أمام الطست وتقبض على الغسيل، من مكانها. كانت ماه منظر التي أتت إلى

الإيوان بقدمين حافيتين تهبط كلّ درجات عدة معاً، لكن حين وصلت إلى وسط باحة الدار تقدّمت بهدوء. كان وجه دلنواز قد ازرقّ، وكانت تتنفس بصعوبة، فعلا صوت زبيدة مرة أخرى في الفضاء:

- يا إلهي... أخبروا... السيدة... الأمّ!

قطعت ماه منظر قطعة من ورد اللؤلؤ من الغصن، ووضعتها على ذؤابتها:

- لِمَ تتكلّمين هراءً؟ انظري! إنّ جانبي عينيها مفتوحان، إنها تمازحنا.

نظرت إلى قدميها العاريتين:

- وا! أين نعلي؟

ضربت زبيدة بكفّ يدها مرّات عدّة على وجه دلنواز:

- تكلّمي يا بنتي العزيزة! أخبريني ما حدث؟

ركضت هُما الغسّالة وأحضرت زبديّة ماء، ونزعت السوارين الذهبيّين اللذين كانا في يدها بسرعة وألقت بهما فيها:

- تعالي! أعطيها لتشرب؛ بالتأكيد خافت.

تحرّكت دلنواز وأخذت تبكي:

- لن أذهب... لن أذهب إلى المدرسة.

نزعت ماه منظر عنقود اللؤلؤ الذي كان في ذؤابتها، وأخذت تفصله حبة حبة.

- حسناً. لا تذهبي... نحن لم نذهب إلى المدرسة، ماذا حدث لنا؟

قالت زبيدة بغيظ:

- أمّها في زمانها حصلت على مصدّقة الصفّ السادس، والآن في هذا الزمن تبقى ابنتها جاهلة؟

نهضت، وأنهضت دلنواز أيضاً من مكانها:

- لنذهب يا حمامتي، لنذهب إلى جدّتك!

عادت ماه منظر وألقت نظرة على طست الغسيل، كانت فيه ملابس بيض وملابس ملونة، فانحنت وحملت الثوب الأبيض الساتانيّ الذي كان في الطست الأوّل، والذي زيّنت تنورته بزكزاك أزرق! كان ثوب دلنواز؟ حملته ووضعته في طست مملوء بالنيلة، ثم رفعت طرفي تنورة ثوبها ووقفت داخل الطست. نظرت إليها هُما الغسّالة بدهشة وبعينين متسعتين:

- يا ويلي، يا ويلي، سيدتي العزيزة! ماذا تفعلين؟ سيسري اللون إلى الثوب ويخربه.

ضحكت ماه منظر بصوت عال، وأدارت لسانها حول فمها:

- هذا ما أريده أيضاً.

بعد لحظة غسلت قدميها في البركة وأخذت نعلي هُما وصعدت الدرج، ولمّا وصلت إلى الإيوان وقفت:

- هُما!

رفعت المرأة رأسها، فقذفت ماه منظر النعلين نحوها.

- خذي فقد جاءا!

وقع النعلان وسط الطست، ولطّخ الماء والنيلة وجه هُما ورأسها. ضحكت ماه منظر بصوت عال وركضت إلى الغرفة وهي تضع يدها على قلبها.

* * *

كان أحمد عليخان يقف أمام الدكّان وفي يده عصا ذات فرعين، وكان ينظر إلى ماء النهر الذي يجري ببطء، وكانت ريح الخريف تدور في الأحياء وشارع إسماعيل البزّاز وتنثر الغبار. ملأ مطر ليلة أمس النهر حتى آخره، وكان الماء قد غطى الرصيف، فتقدّم ووضع الخشبة تحت أكوام القمامة، وحاول مرة أخرى، لكنه ترك الأمر بسبب الشجار الذي حدث بين طنبر وعربة، إذ وقف للمشاهدة حتى اللحظة التي تفرّق فيها الجمع. وقعت عينه على مدخل حيّ صفر القصّاب، وكانت ثمّة امرأة تجذب الريح ملاءتها القديمة إلى هذه الجهة وتلك الجهة. انبهرت عينا الرجل بالعراك بين الريح والمرأة. أدار وجهه عنها واتجه إلى الدكّان.

وضع الخشبة ذات الفرعين في الزاوية ووقف خلف الطاولة، ثمّ فتح دفتر الحسابات، وقبل أن يكتب شيئاً ظهرت المرأة في العتبة:

- السلام عليكم أحمد عليخان! أحضرت لك رسالة.

كانت تمضغ اللبان وتضحك بملاحة، فطأطأ أحمد عليخان رأسه:

- أستغفر الله.

تقدّمت المرأة، ففاحت رائحة عطر قويّة في الجو:

- عمتك تسلّم عليك، وقالت...

توقّفت، ورأسها إلى الأعلى، وأخذت تشاهد الأقمشة الملوّنة في محيط الدكّان.

- حسناً، كنت تقولين...

- قالت، إن كنت تريد، فاشترِ لها قطع فحم للشتاء. وأكثر من ذلك، قطع سكر مخروطيّة، سكر نبات، حلويات... وأرسلها إلى منزلها.

- حسناً جداً، غير ذلك؟

- غير ذلك، أتيت لأشتري لها المانيزا والخرّوب، الأمر بالعكس، المرّ يجب أن يشتري الحلو، والحلو يشتري المرّ!

قال أحمد عليخان دون أن يبتسم:

- هل تريدين شيئاً آخر؟

- نعم! أعطتني هذا الأنموذج لأشتري لها وجه لحاف.

مدّت نحوه يدها التي يطوقها سوار في شكل أفعى، فأخذ أحمد عليخان الأنموذج ونظر إلى صفّ الرفوف دون أن يتكلّم. فجأة أظلم الجوّ، وجعل مطر شديد باب المحلّ ونافذته يهتزان، اتكأت المرأة على الطاولة وأسندت يدها تحت ذقنها، وقالت وهي لا تزال تمضغ اللبان:

- تلك هي، أعطني من تلك، في الصف الثالث. صعد الرجل السلّم الخشبيّ، وأنزل لفّة القماش ووضعها على الطاولة. أدارها عدة مرات فنزل مطر أحمر على الطاولة:

- كم ذراعاً أقصّ؟

- ستة أذرع ونصفاً.

مزّق نصل المقصّ طية القماش عن بعضها. طوى أحمد عليخان القماش المقصوص، ولفّ جريدة قديمة حوله وربطه بخيط قطنيّ.

- تفضّلي يا أخت.

امتدّت يد المرأة بنعومة:

- اسمي نيمتاج.

حرّكت لسانها حول شفتيها، وأدارت جسدها بنعومة كقطّة. قال أحمد عليخان المسحور بمشاهدة عيني الأفعى الحمراوين:

- لِمَ لا تقولين: من هم أفضل منّا[1].؟!

ضحكت المرأة:

- ربما أفضل من الأفضل أيضاً.

حملت لفّة القماش وانزلقت على كعبي الحذاء النحاسيّين وذهبت، فتحرّك أحمد عليخان وأمسك رأسه بين يديه:

- ربّما شيطان أيضاً!

ذهب إلى جوار باب الدكّان الزجاجيّ، ومسح بكفّ يده البخار الذي كان عليه. كان المطر والريح يتجاذبان المرأة ويحملانها معهما، فضرب بكفّ يده على جبهته:

- اللعنة على الشيطان الرجيم!

* * *

(١) المقصود بذلك الجنّ (المترجمة).

كان الخريف يمضي بأقدام صفر طويلة من هذه الحديقة إلى تلك الحديقة، ومن هذه المنطقة إلى تلك المنطقة، إذ كان آخر شهر من فصل الفراق، فراق الورقة للشجرة والبرعم للغصن. كانت الغيوم المولّدة للريح قد نصبت خيمة في صدر السماء منذ مدّة، وكانت تنثر الغبار الأصفر؛ الغبار الذي يبدو كأنه قد نثر في زقاق الأكاسيا أكثر من أي مكان آخر.

كانت قد انقضت مدّة منذ أن حزمت زبيدة متاعها وأغراضها، كان هذا بعد غروب حزين، إذ كان المشهديّ أسد الله قد ضربها ليقضي عليها:

- اضرب، اقتل، لكن لا تطلب إليّ أن أحضر لنفسي مرآة تظهرني قبيحة.

حين رأت دلنواز التي كانت تمسك زاوية الستارة بيدها، أن زبيدة كانت تتدحرج تحت قدمَي المشهدي، ركضت طول باحة الدار بأكملها ووصلت إلى جدّتها وأخبرتها بما شاهدته على نحو متقطّع. كانت الجدّة تهمس كمن يكلّم نفسه:

- لا يمكن تغييرهم. الرجال كلّهم من قماش واحد. لكن، أن تُضْرَب المرأة خير من أن تسمح بإحضار شابّة جميلة لتجلسها على خوانها.

بعد ساعة كانت زبيدة قد أتت منحنية، فوضعت القِدر على الموقد وكانت دلنواز ملتصقة بها:

- من هي النضرة الجميلة التي يجب ألا تحضريها؟!

مسحت زبيدة قطرة الدمع التي كانت قد انهمرت من عينها:

- ماه منظر أخرى.

- ماه منظر؟!

أخذ ماء القدر يقلقل، وكان قد ارتفع إلى الأعلى:

- سأذهب لأيّام عدّة للزيارة، ثمّ إلى الولاية.

كانت دلنواز قد أمسكت يدها:

- لا... لا تذهبي... سأشتاق إليك.

- سأعود.

- متى؟

- مع أول هطول للثلج.

بعد ذلك لم يعد للشمس مكان في قلب دلنواز؛ " ليت الثلج يأتي "، ومع الثلج زبيدة. حتى لمّا ذهبت، كانت متشحة بالسواد وباكية.

يجب أن تأتي لتأوي إليها في الليل حين تزمجر الريح، ويضرب رجل يحمل مطرقة الزجاج من داخل إطار الصورة ليخرج ويسلّمها إلى أمّ البركة[1]. لم تحبّ المدرسة أيضاً؛ فبعد ذلك الهروب الذي استمرّ أسبوعاً كاملاً كانت تطوّق عنق السيّدة الأمّ بيديها كل يوم صباحاً وتبكي:

- لن أذهب، لن أذهب، لن أذهب إلى المدرسة.

إلى اليوم الذي كانت قد أتت فيه سلطنت السيّدة خادمة المدرسة؛ كانت سمينة، وبطنها يتحرّك بصورة غير منظمة، كانت قد انتزعتها من

---

(١) شخص خيالي صنعه الكبار لإخافة الأطفال، حيث يضعون وعاءً من البلاستيك مقلوباً على ماء البركة فيتحرّك بهبوب الريح ليلاً، ويوهمون الأطفال من خلف زجاج النافذة أنّ الأم استيقظت وبدأت تتحرّك (المترجمة).

حضن السيدة وأخذتها، وفقط لمّا تمكّنت من أن تخلّص نفسها من بين ساعديها الضخمين، ألقتها أرضاً أمام منهل المدرسة وطلبت إليها بالضرب والقوّة أن تغسل وجهها. حينها أخرجت من داخل الكيس رداءها وياقتها وحزامها وألبستها إياها، كانت دلنواز قد دُهِشَت، متى أخذتها؟

منذ ذلك اليوم، كانت تنهض مجبرة كلّ صباح وتدع جدّتها تضفر شعرها، وتشدّه بالشريطة التي كانت تجعلها ملساء على بخار السماور، ثمّ تلبسها الرداء الذي كانت تفوح منه رائحة حرارة مكواة الفحم، ثمّ تذهب إلى المدرسة ذات الجدران الآجريّة القديمة والنوافذ السود، والسقوف المخروطية السّود أكثر من السّواد. لا، لم تكن تريد، لم تكن تريد أن تحضنها سلطنت السيّدة ثانية وتلقيها على الأرض أمام زميلاتها التلميذات.

بعد رحيل زبيدة كانت ماه منظر قد أصبحت قاسية معها أكثر من ذي قبل؛ لا ابتسامة، لا نظرة، لا حديث. فقط كانت تدور كلّ يوم في باحة الدار ساعة وسط الريح التي كانت تنثر الغبار الأصفر بقدمين بلا جوربين وثوب ذي كمّين قصيرين، وعنقود ورد اللؤلؤ بيدها؛ كانت تضعه أحياناً على ذؤابتها، وأحياناً على صدرها بمشبك صغير ذهبيّ اللون.

وكم كانت دلنواز تحبّ أن تطوّق خصرها النحيل بيديها، أن تضع رأسها على صدرها الذي كانت تفوح منه رائحة عطر الياسمين الذي صنعته والدتها، وتتحدّث إليها عن المدرسة التي كانت نوافذها سوداً وسقوفها أسود من السواد، لكن كأنّ هذا الحلم من الأحلام المستحيلة، ولاسيّما بعد ذلك اليوم المغبرّ الذي كانت قد أتت فيه السيدة رفقاء لتأخذ جدّتها إلى نور الحكماء بمساعدة المشهديّ أسد الله. كان ذلك حين خلوّ

البيت، إذ أصبحت ماه منظر حنوناً فجأة؛ فبلّلت المشط بالماء، وجعّدت لها شعرها ولفّته، ضحكت في وجهها بشكل كانت تبدو فيه كأنّها تضحك في المرآة، وأخذتها معها إلى غرفتها، وأخرجت من داخل وعاء صغير ذي غطاء وقاعدة بلورية كان داخل الدرج قبضة من النقل الخشخاشي وحاجي بادام[1] ووضعتها في جيبها.

- هل تريني الدار الصغيرة؟
- أنا؟
- أتعرفين أين مفتاحها؟!
- لا... لكن...
- إن قلتِ لي أعطيك علبة التسلية.
- ألديك أنت أيضاً علبة التسلية؟
- طبعاً لديّ. الآن هل تدلّيني على مكان المفتاح؟

التصقت دلنواز باليد التي كانت قد امتدّت إليها وسارت معها:

- إنّه هنا.
- أعطتها المفتاح الذي كان بين فجوات آجرّ الدار:
- لكن، لا تقولي إنّي أنا من أعطيتك إيّاه!
- أيتها الجبانة!

---

(١) نوع من الحلوى يصنع من اللوز والسكر والهال والبيض، تطحن معاً وتقطّع وتشوى (المترجمة).

أخذت ماه منظر المفتاح وأدارته في القفل؛ فانفرج مصراعا الباب الخشبي عن بعضهما بصوت خشن، فوقفت وحدّقت أمامها:

- هنا بيت للأوساخ.
- منذ الوقت الذي لم تعد فيه أمّي موجودة...
- كبيت الأرواح.
- منذ الوقت الذي أخذوا فيه أمّي...

أخذت بيد دلنواز وسحبتها وراءها:

- أين وضعوا أغراضها وأثاثها؟
- في القبو.

انحنت ماه منظر، ونظرت إلى داخل القبو من النافذة المكسورة المتّسخة بالهباب والملتصقة بأرض الدار، فارتعشت دلنواز:

- إنه بيت الجنّ.

رفعت ماه منظر رأسها بسرعة وتجهّم وجهها:

- يا إلهي! لقد رأيت روح أحدهم. له ذيل وله حوافر، ولمّا وقعت عينه في عينيّ قفز إلى داخل كومة الفحم.

ألصقت دلنواز نفسها بها أكثر.

- أين غرفة أمّك؟
- هناك.

صعدتا الدرج الذي ينتهي بدهليز ضيق، ودخلتا الغرفة التي تفوح منها رائحة جسد السيّدة الصغرى المريضة.

- إذاً، هنا غرفة زواج أمّك.
- ماذا؟
- لا شيء.

تركت يدها وركبت الأرجوحة، كان الخبز اليابس المتعفّن وريش الحمام الملوث بالدم وخيوط عدّة من القماش ملقاة في أماكن عدّة من أرض الغرفة. حرّكت ماه منظر الأرجوحة. قيج قيج. كانت قد وضعت يديها خلف رأسها في شكل دائرة، وفي كلّ ذهاب وإياب كان قرطاها المستديران يتحرّكان:

- أهي جميلة؟
- من؟
- أمّك العزيزة!
- نعم!
- أجمل منّي؟
- لا أعرف!
- هل تحبّينها جداً؟
- نعم.
- أكثر منّي؟

كانت دلنواز تقف حائرة وسط الغرفة تمصّ سبابتها.

- إن أردت فسأركبك الأرجوحة.
- لا.
- ألا تحبين أن تركبي الأرجوحة؟ ولِمِ لا؟ أعرف أنّك تريدين أن تركبي الأرجوحة!

انحنت وسحبتها إلى طرفها:

- انظري كم هي ممتعة.
- دعيني في الأسفل.
- قُلْتِ إن أمّك أجمل مني؟!
- لا أعرف! لا أعرف!

كانت ماه منظر قد طوّقت حلقها بيديها، وكانت نظرتها تسحر كنظرة الأفعى. اضطربت دلنواز، وضاق نَفَسها واستدارت عيناها. وفجأة مدّت رأسها وغرزت أسنانها في جلد صدرها. كان قد علا صراخ ماه منظر وأفلتت يديها:

- اذهبي. اغربي يا مجنونة!

نهضت دلنواز التي كانت قد ألقيت على الأرض وركضت من الغرفة إلى الدهليز، ومن الدهليز إلى الدار، لكن قبل أن تندفع من الباب قبضت يدٌ من الخلف على شعرها الملتفّ المجعّد:

- الويل لك إن قلت شيئاً لأحد.
- على عيني! على عيني!
- انظري ماذا فعلتِ!

أدارت دلنواز رأسها؛ كانت قد أشرقت شمس دامية على مقدّمة صدر ثوب ماه منظر، وكانت تكبر لحظة بلحظة.

وضعت دلنواز يدها على فمها وركضت، وكانت قد صعدت مرة ثانية إلى الأعلى.

* * *

كانت تحترق. كانت تحترق بنار الحمّى، وكان البخار يتصاعد من المنشفة المبللة التي وضعوها على جبهتها. فتحت جفنيها للحظة، ومرة أخرى غابت في هالة من الضباب. كانت ترتعش من فرق رأسها إلى أخمص قدميها، كانت تئن:

- ماء... ماء.

كان نور المصباح النفطيّ قد أصبح بقعة صفراء على الرفّ، بعد ذلك كانت قد رفرفت وأصبحت فراشة، عشرات الفراشات الصفر متتابعة كلّها، بعضها خلف بعض وقد صنعت حلقات سلسلة.

كانت السيّدة الأمّ تقرأ آية الكرسي على نحو متتابع وتنفخ نحوها، وكانت قد صعدت متذللة إلى السطح من قبل، وألقت ملاءتها عن رأسها ونثرت شعرها وعرّت ركبتيها وقرأت:

- اللهمّ ربي أنت أعطيتنيه وأنت وهبته لي، اللهمّ فاجعل هبتك اليوم حديدة إنك قادر مقتدر.

كانت قد جهّزت إبريقاً وطستاً وغسلت قدميها، ثم أرسلت ماه منظر لتنادي السيدة رفقاء. كانت السيدة رفقاء قد أتت بشعرها المصبوغ الذي كان يتوهج تحت نور المصباح.

فتحت دلنواز عينيها وأغلقتهما ثم فتحتهما. ضحك الببغاء الجصيّ الأخضر الذي كان في زاوية السقف ضحكة طويلة عالية وقال " ماء ماء "، فبلّلت السيّدة الأمّ شفتيها الجافتين المغلقتين بقطعة قماش رطبة. فتحت عينيها وأغلقتهما ثم فتحتهما. رأت أنّ شعلة المصباح، بهبوب الريح المؤذية التي انجذبت من ثقب الباب إلى الداخل، قد أصدرت صوتاً خافتاً والتهبت ثانية. رشحت قطرة من العرق من جانب أذنها على الوسادة:

- " نار نار... شعلة... شعلة... الثلوج بدأت تذوب. كنتُ بضعاً صرتُ ألفاً[١]، الحاج فيروز يأتي يوماً كل سنة[٢]، أيتها العنزة الحلوة لماذا تضحكين[٣]، لا أحبك فلماذا تحاربين[٤]، دنغ دنغ دنغ... اكر ودكر. منديل أزرق ممتلىء بالإجاص[٥]، واحدة لي وواحدة لك[٦]، هذه السيدة لماذا

(١) " چندتا شدم هزارتا " من أناشيد الأطفال المعروفة (المترجمة).

(٢) " حاجي فيروزه سال يك روزه " من أغاني الأطفال المعروفة. والحاج فيروز شخصية أسطورية قديمة فهو المبشّر بقدوم الربيع. وجهه أسود وملابسه حمراء، يدور في الشوارع ويرقص ليلة عيد النوروز وينشر الفرح والسرور ويوزع الهدايا. ويرمز إلى أشياء عدّة متعلّقة بشخصية سياوش أحد أبطال الشاهنامة. (المترجمة).

(٣) " بُز بُز قندى چرا مى خندى " أغنية للأطفال تشير إلى قصة المعزاة وصغارها والذئب المعروفة (المترجمة).

(٤) " دوستت ندارم چرا مى جنگى " من أغاني الأطفال (المترجمة).

(٥) " دستمال آبى پر از گلابى " من الألغاز المعروفة (المترجمة).

(٦) " يكى مال من يكى مال تو " من أغاني الأطفال (المترجمة).

لها شريطة... جدتي! أعطني ماءً، ماتت السمكات... أخذت الجواهر إلى عمق الماء... ".

كان يسمع صوت السيّدة الأمّ التي كانت تدعو، وصوت السيدة رفقاء التي كانت تواسيها، وصوت نور الحكماء الذي كان يقول بقسوة أن يضعوا مقياس الحرارة تحت لسانها.

فتحت عينيها ورأت السيّدة الأمّ التي كانت تجلس عند رأسها وتدخن السيجارة، فغاب سواد عينيها وشعرت بهبوب يد كأنها النسيم، تفوح منها رائحة ماء الورد بين شعرها.

انخفضت الحرارة في النهاية مع العرق بعد ارتعاش شديد، وألقت يدٌ فوقها ألحفة عدّة. رأت أن الببغاء الأخضر الجصيّ قد أصبح اثنين، ثم أصبح عشرة، ثم أصبح ألفاً، ثم أصبح سلسلة طويلة تصرخ فقط؛ ولم تفهم شيئاً آخر. لمّا فتحت عينيها كان الصبح الصادق قد طلع من خلف الزجاج المشجّر؛ لكن فيما يخصّ القلب الصغير الذي كان حزيناً، لم يكن هناك فرق بين الصبح والغروب، إذ لم تكن توجد أم، لم تكن توجد زبيدة، وكانت الجدّة مريضة، وماه منظر كانت كأنّها لم تكن.

* * *

هطل ثلج فوق ثلج ولا خبرعن زبيدة، كانت العصافير تنقر ثمار الخرماسي المتبقية على الأغصان ولا خبر عن زبيدة، وكانت الأشجار غارقة في السبات الشتويّ ولا خبر عن زبيدة. كان من الممكن أن يوجد كلّ يوم

طائر زرزور على آجرّ أرض الدار الكازاخيّ، وقد تجمّد وتيبّست أطرافه وقوس قزح تحت صدره، كلّ ليلة كان يمكن أن يُسْمَعَ همس الأسماك التي تسبح تحت جليد البركة، وكانت تقول: ماء. ماء.

كان المشهديّ أسد الله يأخذ دلنواز إلى المدرسة ويعود بها، وبما أنّه كان قد وُضِعَ كرسيّ نار داخل الغرفة كانت تستطيع أن تجلس متكئة عليه وتكتب تحت نور المصباح النفطيّ، وأن تضغط على قلمها الرصاص علامة التمساح بين أصابعها وتكتب " ماء "، تكتب " بابا "، وإن لم يكن أحد يراها تكتب " أمي " صفحة ممتلئة متتابعة.

قلّم البستانيّ ورد الشمعدان، وكان قد أخذ أصص الورد الملأى بالأغصان إلى بيت زجاجيّ خاص بالورد، وكان بيت الورد قد أصبح أمّ الورد، ولمّا كانت تمرّ إلى جواره كانت تكتب برأس إصبعها على الزجاج المغطى بالبخار " أمي "، لأنّها كانت واثقة أنّ جناح أيّ فراشة لن يُكْسَر لو استطاعت أن تقرأ هذه الكلمة.

كانت السيّدة الأمّ قد أصبحت نحيلة وضعيفة، وكانت تجلس إلى جوار كرسي النار[1] وتسمّر نظرها إلى الزجاج الملوّن أعلى النافذة، وكانت توجد دائماً نصف سيجارة بين أصابعها وتدخّنها بحيث أنّ دلنواز كانت تظنّ أنّ هذا الشتاء الغائم لن ينتهي.

فقط حين كانت ماه منظر تدير المنقل حول رأسها بلا خوف من البرد بثوب واحد، كان يمكن الاعتقاد أنّه بالنار والورد فقط يمكن محاربة

---

(١) سرير أو كرسيّ مقلوب يوضع فيه منقل ويغطى بلحاف **(المترجمة).**

الشتاء، لكنّها كانت تتجنب ابتسامة واحدة، يشتاق قلبها ثانية لرؤية أمّها التي لا خبر عنها منذ مدّة، وكلّما قالت هذه الأمنية للسيدة الأمّ كانت تتجهّم:

- الآن لا...! دعي مدّة من الزمن تنقضي لتهدأ حرقة قلب تلك المرأة.

ولمّا كانت تقلب شفتها وتضع جبهتها على الأرض غضباً، كانت السيّدة الأمّ تعبس:

- هل أدعك تذهبين لتقعي في يد أمك المجنونة؟ ربّما ذهبتِ إليها فأمسكت بك وخنقتك، عندها أيّ تراب سأحثوه على رأسي.

لّما كانت ترى أنها لا ترفع رأسها عن الأرض كانت تقول بهدوء أكثر:

- اصبري أسبوعاً أو أسبوعين فربما تأتي زبيدة، حينها أسلّمك لها لتذهبي لرؤية أمك.

كانت دلنواز تصبر؛ الصبر الذي كان كطريق طويل ملتفّ ومنحن. لِمَ لا تنتهي هذه الأيام؟

* * *

كان يأتي ثلج خلف ثلج، وكانت السيّدة صنم تجلس إلى جانب كرسي النار وعينها، التي كانت قد احمرّت كورق زهر الرمان، تنظر إلى السماء من جوار الستارة العمودية المزاحة. وفي الوقت نفسه كانت أذنها تصغي إلى الباب، فربّما قُرِعَ وانتهى انتظارها.

كان من المقرّر أن يأتي عزيز الله خان ليأخذ ابنتها السيّدة الصغرى إلى الحمّام الواقع تحت السوق الصغير بمساعدة أحمد عليخان؛ فقد كانت قد ذهبت بنفسها صباحاً وتكلّمت مع المعلّمة ومع السيدة كلين المدلّكة وأخذت موعداً. كانتا قد قالتا:

- الحمّام محجوز لكم منذ غروب الشمس، بشرط أن تتولّوا رعاية مريضتكم بأنفسكم.

كانت قد قالت:

- زوجي موجود وأخي، ولا شيء مطلوب منكم.

والآن كانت تنتظر، وحين سماع صوت أقدام خافت على الدرج فوق السطح ودقّات عدّة على الباب، قفزت من مكانها:

- من؟
- أنا يا أختي، لا تخافي.

كانت قد عرفت صوت أشرف السادات المبحوح:

- فَدَيْتُ قدمك يا أختي، إلهي ترين الخير أنك تلبّينني.

نهضت من مكانها وذهبت لاستقبالها، دخلت أشرف السادات ونفضت ذرّات الثلج عن ملاءتها:

- ألن نذهب؟
- الآن أنتظر أخي، من المؤكّد أنه سيأتي حالاً.

جالت أشرف السادات ببصرها في أنحاء الغرفة:

- أين زوجك؟

بإشارة اليد دلّتها السيّدة صنم على الغرفة المجاورة:

- ذهب واتّخذ مكانه عند قدم السيّدة الصغرى، إنه يحبّها حبّاً جمّاً.

وأضافت:

- اجلسي يا أختي!

جلست أشرف السادات إلى الجانب الآخر من كرسي النار بحيث لا توقظ الأطفال، وسحبت اللحاف إلى أسفل حلقها:

- عجباً لهذا الجو!

أخرجت السيّدة صنم من داخل غرفة المخزن علبة قطائف وقدحين من الشاي. مضت ساعة على الكلام والحديث حتى ظهر عزيز الله خان، وذهب الثلاثة إلى غرفة السيّدة الصغرى. نهض أحمد عليخان، الذي كان مستلقياً، من مكانه؛ واتجه عزيز الله خان إلى السيّدة الصغرى التي كانت متكئة إلى الجدار ورأسها في ياقتها:

- كيف أنت يا سيدة السيدات؟!

مدّ يده وداعب شعرها الدهني المتسخ، فتحرّكت السيّدة الصغرى وأطبقت شفتيها الجافتين على بعضهما وناحت:

- " ميـ...رزا... ميـ...رزا.

هزّ عزيز الله خان رأسه:

- أنت مفتونة به حتى الآن يا بنة أختي؟!

تأوّهت السيّدة صنم:

- لو كان في رأسك ذرة عقل يا بنتي، عندها كنت قد عرفتِ عدوّك من صديقك ولما أفنيتِ نفسك من أجل كلّ كريم ولئيم.

تجمّعت هالة من الدمع في عينيها.

جلس أحمد عليخان أمام السيّدة الصغرى وركبتاه إلى حضنه:

- انظري يا سيّدة السيّدات، أيّتها الوردة! من المقرر أن نأخذك إلى الحمام، حتى تكوني جميلة حين يأتي ميرزا لرؤيتك. الآن قولي يا علي!

وضع يده تحت إبطها وأنهضها من مكانها بصعوبة: جرينغ!

كانت السيّدة الصغرى هادئة، وبنيّة الصدقة وضعت المرأتان رداءً على جسدها وملاءة على رأسها.

وضع عزيز الله خان يده تحت إبطها، ووضع أحمد عليخان ساعده في ساعدها الأخرى. أخذت السيّدة صنم الفانوس من يد أحمد عليخان، وضغطت أشرف السادات كفّ يدها على نهاية السلسلة، من الغرفة إلى الدهليز، ومن الدهليز إلى باحة الدار الداخلية، ومن باحة الدار الداخلية إلى باحة الدار الخارجية.

عبروا من الأحياء التي كانت ملأى بالانحناءات والانعطافات التي كانت مصحوبة بأصوات احتكاك الثلج، ونباح الكلاب الشاردة، وصفارات الحَرَس التي كانت تنطلق من حين إلى آخر من البعيد.

- " ليلة أمس هطل المطر

صعد حبيبي إلى السطح

ذهبت لأقبّل شفته

كانت رقيقة فخرج الدم

يا ويلي... يا ويلي."

كان ثمّة بخار أزرق يرتسم في الجوّ من بين شفتي السيّدة الصغرى الجافتين المغلقتين. أربعون درجة إلى الأسفل، أربعون درجة ملتوية؛ كان ثمّة حمّام مرمر في مدخل السوق الصغير، وقد هبطوا الدرج بصعوبة.

أتت المعلمة وكلين المدلّكة لاستقبالهم، وكانت مصابيح عدّة تعمل بالدهن تنثر النور على جدار الحمّام الحجريّ الرطب.

كانت السيّدة الصغرى قد ألصقت قدميها على الأرض إلى جوار بركة مسدّسة زرقاء ذات نافورة مفتوحة ولم تكن تتقدّم، فسحبها الرجلان إلى الأمام وهما يلهثان ويتصببان عرقاً. لُفّت السلسلة على عنق عمود حجريّ وسط الحمّام، وكانت السيّدة الصغرى قد توقفت وأخذت تصرخ. خرج الرجلان وتركا باقي العمل للمرأتين، في سكون الليل ذاك، كان الرجلان قد انكمشا في مدخل الحمّام فوق الأربعين درجة، وكان صوت السيّدة الصغرى واستغاثتها وضجيج النساء يصل إلى المسامع.

على جدران مسار الدرج الرطبة كانت المصابيح الدهنية تحترق، وكانت تُظهِر بخاراً حاراً يصعد من الدرج إلى الأعلى ملتفاً ومنعطفاً.

بعد ساعة سُمِعَ صوت السيّدة صنم:

- يا أحمد عليخان! يا أخي! انتهينا.

هبط الرجلان الدرج وهما يقولان " يا الله "، ودهشا لرؤية السيّدة الصغرى جالسة بثوب أخضر زيتوني وإيشارب فستقي على حافة لوح خشبي قد غرست قوائمه في البركة المسدسة، كانت جالسة تغني على صوت النافورة الصغيرة:

- سوف أبني حماماً بأربعين عموداً وأربعين نافذة.

لمّا ضُرِبت النقود المعدنيّة على قعر الآنية الزجاجية، ركضت كلين المدلّكة خلف العمود ومكثت هناك.

قال عزيز الله خان:

- بارك الله! بارك الله شرَّفْتِ. إنك تعرف أيها الفطن إن كان هنا حمام أو لا؟!

قالت السيّدة صنم:

- من اليوم الذي صببنا فيه الخلّ في أنفها وعطست أصبح ذهنها متفتحاً أكثر.

ذهبت إلى جانبها وطوّقت عنقها بيدها:

- جُعِلْتُ فداكِ يا سيّدة.

ضربت السيّدة الصغرى برأسها على وجهها، وانسحبت جانباً.

أمسك الرجلان تحت إبطيها وأنهضاها من مكانها. ألبستها أشرف السادات رداءها وألقت السيّدة صنم ملاءتها على رأسها. حينها جذبوها إلى أعلى الدرج بصعوبة، وخطوا إلى الشارع.

في قلب الليل، حيث لم يكن غير صوت هطول الثلج الخافت وصفارة حارس كانت تُسْمَع من بعيد من وقت إلى آخر، كانت تمرّ أشباح عدّة كالسلسلة من طرف الحيّ! في حين كان أحدها يتوقّف كلّ ثوان ويرفع وجهه إلى القمر الذي كان خلف الغيوم ويعوي!

* * *

كانت دلنواز تجلس على الفراش شاحبة اللون، وكان لمعان مشبك ذي فصّ يكسر ليل شعرها. كانت عيناها تحدّقان وتحت عينيها يبدو أزرق.

كانت عشرات القطع من القماش الملوّن منثورة على اللحاف المخمل الأزرق الذي كان عليه طاوُس فتح ريشه بدلال، وكلّها بقَطْع وقياس واحد، وكانت السيّدة الأمّ تخيط بقجة من أربعين قطعة وهي تحكي حكاية:

" حطّ البلبل الصغير على الغصن وغنى:

- أنا أنا البلبل الحيران... الذي عاد من الجبل والسفح... زوجة أبي الشريرة قتلتني..."

تتالت دقّات عدّة على باب الغرفة، وتلوّت صورة شبح في الزجاج، فرفعت كلتاهما رأسها وحدّقتا أمامها، لكنّ دلنواز كانت من كَسَرَت الصمت بصراخها:

- عزيزة روحي زبيدة!

لوّنت قطرة دم قطعة القماش الصفراء التي كانت على ركبة السيّدة الأمّ باللون الأحمر." آخ ".

فُتِحَ الباب وارتمت كتلة سوداء أمام قدمي السيدة، وملأ النحيب سكون الغرفة.

وصلت دلنواز إليها وهي تقع وتنهض، وزحفت إلى فجوة الملاءة التي كانت تفوح منها رائحة الحناء والبودرة المبيّضة. رفعت السيّدة الأمّ صوتها وهي تلومها:

- ألم تقولي إن فكرنا سيذهب في ألف ناحية... ألم تقولي إنّا سنقلق عليكِ... ألم تقولي إنّ ألف خيال واهٍ سيظهر في رؤوسنا؟

كان الإيشارب والملاءة قد سقطا عن شعر زبيدة المحنّى، وكانت قد حدّقت إلى الأرض بوجه أصفر كلّه وأنف مدبّب وعينين ممتلئتين بالدمع.

- لم أكن أستطيع الصبر أكثر من هذا يا سيدتي، فذهبت لأقبّل أعتاب ضامن الغزال، ذهبت لأذكّره أنه ليس وحده غريباً ومظلوماً، ويجب أن يرحم غربتي وظلمي أيضاً.

عبست السيّدة الأمّ:

- حسناً يا مرحومة الأب، لو كنتِ قلتِ شيئاً لزوجك ثم ذهبت.

تنهّدت زبيدة:

- لو كان زوجي ذا غيرة لكان قد ارتدى حذاءه وقبعته ولحق بي، ولو كان يريد رضاي لوجدني، حتى لو كنت تحت حجر، وأعادني. لكنك رأيتِ أنه لم يقل حمارك بكم! لو لم آتِ إلى قيام الساعة أيضاً لا فرق لديه.

سحبت يدها على جبهتها:

- بقول أمي غفر الله لها " يا جبهتي! أين ستجلسينني "، ها قد عدت الآن، ذهبت بقلب محترق وعدت بأنف مرغم. لا عيب في ذلك. أنا راضية برضا الله، عدت لخدمتكم؛ خدمتك أنت، والسيّدة دلنواز ، والسيد والمشهديّ.

مسحت دلنواز بيدها على بقجتها:

- الآن ماذا أحضرتِ لي؟!

انفرجت تجاعيد زبيدة بابتسامة باهتة:

- لا شيء يليق بمقامك أيتها البنت الوردة! مزيّته الوحيدة أنّه جاء من البعيد. مدّت يدها وفكّت ربطة البقجة؛ سجّادة صلاة مطرّزة، وقرص سجود ومسبحة، عود سكّر نبات، ربطة زرشك[1] وشيء من الزعفران، وصبيّ دمية حين تضغطين على بطنه ينفر الماء!

ضحكت السيّدة الأمّ، وغطّت دلنواز وجهها بيدها.

فكّت زبيدة عقدة ربطة أخرى، ستة أساور زجاجية غطّي وجهها بلوزات ملوّنة، وبين اللوزات قطع من المرايا.

---

(١) نبات ثماره حمراء صغيرة حامضة الطعم تشبه الزبيب يضاف إلى الأرزّ. (المترجمة).

- لا تليق بمقامك يا شكربنير.

أخذت دلنواز الأساور ووضعتها في يدها واحدة واحدة.

حملت السيّدة الأمّ قرص الصلاة وقبّلته:

- بحقّ هذه التربة الطاهرة، إن شاء الله، سرعان ما سيضاء مصباح بيتك.

انحنت زبيدة وقبّلت يدها:

- ليسمع الله من فمك يا سيدتي!

حينها ألقت نظرة إلى السماور المطفأ؛ فنهضت من مكانها ونزعت الملاءة عن رأسها، وأفرغت ماء الإبريق الذي كان في السماور:

- لا تقولي إني عديمة الحياء، كلّما فكّرت وجدت أنّ الكحل أفضل من العمى، يكفي أن يكون ظلّه فوق رأسي ليبقى طعم سكّره.

إن أعطاني الإمام الرضا حاجتي يصبح نوراً على نور.

- إذاً هُزِمْتِ يا زبيدة.
- والله ماذا أقول يا سيدتي العزيزة؟

ذهبت إلى الإيوان وأخذت المنقل من الزاوية، ووضعت فيه الفحم وصبّت النفط وأشعلت عود ثقاب، ثمّ بدأت تدير المنقل، وفي الوقت نفسه تتكلّم:

- سواء شئت أم لم أشأ،عينه على امرأة أخرى، والولد حجّة أيضاً وسط هذا.

قبضت السيدة على صدرها إذ كان يؤلمها:

- تريدين أن تحضري ضرة لك بإرادتك؟

- إن لم أحضر سيحضر بنفسه، فلماذا أقلل من شأني أكثر من هذا؟

قالت السيّدة الأمّ بغيظ:

- إن عقلك يقطع قطعة الآجرّ، أيتها المرأة! ألا تفهمين ماذا تفعلين؟

أوقفت زبيدة المنقل عن الحركة وأتت نحو محور الباب:

- ألم تحضري بنفسك امرأة للسيد؟

نظرت إليها السيّدة الأمّ بغضب:

- تريدين أن تقولي إنك مجنونة أيضاً؟!

هزّت زبيدة رأسها:

- لم يبق شيء لأصبح.

ثمّ أضافت:

- تلك التي كانت زوجة الشاه، بكلّ عظمتها وفخامتها، طلّقوها وأخرجوها من المملكة لأنّها لم تنجب، فمن أكون أنا الكلبة؟

وضعت دلنواز الأساور أمام عينيها، وكانت تحدّق إلى انكسار الضوء فيها.

سألت السيّدة الأمّ:

- الآن بمن تفكّرين؟

حرّكت زبيدة المنقل كالنواس:

- بابنة السيدّة صدّيقة، لقد أتوا إلى هذه المحلّة منذ شهرين؛ سكنوا وسط الحيّ في بيت الجيران، لديها خمسة أولاد كبار وصغار، لقد لفتت نظري ابنتها الكبرى.

علا صوت دلنواز:

- لقد سقطت إحدى مراياها.

ووضعت الأساور أمام عينيها، فعبست السيّدة الأمّ:

- على الإنسان أن يقول سلمت يداكِ، لا أن يضع فيها عيباً.

إشعال السماور الفحميّ، كنس المطبخ الذي كان هاونه الحجريّ قد غطّي بطبقات اللحم والدهن، وقد غطّيت أسطح رفوفه بطبقات من الغبار؛ هذا كلّه كان يأخذ وقتاً.

كان الليل قد حلّ حين ذهبت زبيدة إلى غرفتها. جلست وحارت بسفينة حياتها المنحرفة. كانت عشرات الأزرار الملوّنة ملقاة هنا وهناك، ولم تعد تتذكّر منذ متى بدأ عشق جمعها في قلبها؛ أزرار كبيرة وصغيرة، خضر وحمر وزرق، مع صورة فرّوج، سفينة بحمل ثقيل، وأولاد سود وشقر، لم يكن لديها صبر على جمعها، فربّما نثرها المشهديّ تحت قدميه عمداً، بقيت محدّقة إليها لحظات، وكانت عيناها ترى ظلاماً فانحنت وشاهدتها عن قرب:

" أطفالي... أطفالي ".

نهضت وأشعلت المصباح النفطيّ الموضوع على حافّة الرفّ، وجلست على الأرض ومسحت عليها بيدها. كانت بعض الأزرار تبقى تحت يدها وبعضها تخرج، وفي النهاية جمعتها كلّها وألقتها في علبة التسلية ووضعتها خلف ستارة المخزن، حينها أزاحت الملاءة، وبسطت فراش المشهديّ. أخذت نفساً عميقاً وجعلت قلبها يأخذ من هذا النسيم الهادئ. جلست ومسحت عليه بيدها؛ هل سيأتي وينزع شوك العذاب من قلبها؟ أم أنّه سيلفّ ضفيرتها حول يده ويقول: " أين كنتِ هذه المدّة كلّها أيّتها المتسلّطة؟ " انسحبت إلى الخلف واتكأت بظهرها على الجدار. كم من الوقت بقيت هكذا؟ نهضت وأخذت قميص المشهديّ الذي كان معلقاً على رأس المسمار. رفعت فتيلة المصباح النفطيّ وتفحّصت القميص جيّداً؛ بالتأكيد كان قد سقط منه زرّ أو تفتّقت درزة بعد هذه المدّة. ذهبت وأحضرت بقجة يدها، كان قد سقط زرّ من رأس أحد كمّيه. أخذت زرّاً صدفياً صغيراً وخاطت الزرّ بدقّة تامة دون أن تحتاج قطع مسير إحدى الدرزات، وفكّرت: " كنت شابّة حين أتيت إلى بيتك، كنت سريعة ونشيطة. اقتلعتني من ولايتي وأسكنتني في الغربة ولم أقل لك لماذا، فقد كنت سيدي، وكان كلامك حجّة لديّ. قلت لي: بيت سادتك بيتنا. قلت: موافقة. كنست وحملت ووضعت من الصباح إلى المساء لأن قلبي كان سعيداً، و لمّا كان يحلّ الليل كنت تأتي وتناديني: زبيدة... يا زبيدة! حتى انقضت بضع سنوات الأولى. نعم هكذا. بعد ذلك لمّا

فهمت أني عاقر وأنّ بيتك بـلا نـور، كنـت قـد أوليـت أحـصنتك اهتمامـاً لم تـــولني إيّـــاه، والآن في وقـــت الـــشيخوخة واحتـــدام المعـــارك، ليتك على الأقلّ..."

أخفت وجهها في صدر القميص، وأخذت نفساً من رائحته. نهضت وذهبت نحو النافذة، وسحبت أصيص ورد الشمعدان جانباً وفتحت أحد مصراعي النافذة. ألقت نظرة إلى الدار. كان مصباح غرفة ماه منظر مطفأً، منذ أن أتت لم ترها، فهل ذهبت في زيارة؟ " أيتها الجبهة أين ستجلسينني؟ " كم هو الحظّ محالف للبعض. أرادت أن تغلق النافذة، فسقط أصيص ورد الشمعدان على الأرض وانكسر نصفين " آه..." انحنت ونظرت. أمسكت ساق الشمعدان بيدها، والجذر والوردة والطين. كأنّها كانت تلهث وتقول: " ماء... ماء ". ركضت إلى أرض الدار بقدمين حافيتين، أزاحت تراب الحديقة ووضعت الجذر في حفرة بحجم كفّ اليد كانت محفورة وغطّت وجهه بالتراب. ركضت نحو البركة وأحضرت الماء بكفّ يدها مرّات عدّة وصبّته على التراب. غسلت قدميها، وعادت إلى الغرفة على أطراف أصابعها. كانت تنورة ثوبها قد ابتلّت، ثمّ جلست في الزاوية وضربت بقبضتها على بطنها: انزل قليلاً أيها التنور المطفأ! ما الفائدة مني؟ حفرة بلا دخان، نبع جاف، موقد مسدود. قبضت على ثدييها: جافة جافة، بلا قطرة بركة؛ لا الأمس ولا اليوم ولا غداً. ضربت رأسها بالجدار، ليس مرّة واحدة بل مرّات. ليته يصبح قطعاً عدّة مثل ذلك الأصيص الخزفيّ.

سمعت من قلب الليل صوت ضربات حوافر أحصنة يبدو مألوفاً لمسامعها، بالتأكيد كان هو. فكّت ربطة إيشاربها بلا إرادة، وجعلت

أصابعها تغوص في شعرها. مشّطت شعرها الأشعث، بصقت على كفّ يدها ومسحت آثار الدمع، ثمّ نهضت وأنزلت فتيل المصباح، وألقت الإيشارب إلى الزاوية وزحفت إلى الفراش، كانت الثواني تطول.

بدأت العدّ. كانت تعرف حتى المئة. سبعة، ثمانية، ثلاثة عشر. فُتِحَ باب الدار واصطدم مصراعاه أحدهما بالآخر. خمسة وعشرون، سبعة وعشرون. هبّت الريح، وحشرجت شعلة المصباح النفطيّ وانطفأت. حبست أنفاسها في صدرها، وألقت ساقيها النحيلتين كمصراعي خشب بلا حراك. ثلاثة وثلاثون، أربعة وثلاثون. من وسط الجفن نصف المفتوح حدّقت إلى زوجها الذي كان يقف عند محور الباب بلا حركة. ثمانية وثلاثون، تسعة وثلاثون. دخل ونزع قبّعته الجلدية عن رأسه، وخلع رداءه المصنوع من جلد الحيوانات، ثمّ فكّ كيس التبغ من حول خصره وألقاه في زاوية، ودون أن ينظر إليها بسط فراشاً آخر وأدار لها ظهره ونام. توقّفت عن العدّ. ألم يرها زوجها؟ كان قد رآها وقال في قلبه: غضبتِ وذهبتِ.. إلى جهنّم. عدتِ؟ تلك أيضاً لجهنّم.

حدّقت ساعة إلى كتفيه بلا حركة، ولمّا سمعت صوت شخيره استدارت وتركت جسدها في فجوة الفراش، خزان مملوء بماء الثلج.

* * *

أسندت السيّدة الأمّ يدها إلى الجدار ووقفت، كان لا بدّ أن تنادي أحداً. " يا ويلي... ماذا كان يحدث؟ " كان نور الحكماء قد عاينها قبل

يومين، وكان قد وصف لها ضماداً وإبرة. كانت مدام تاراي الأرمنيّة قد أتت وحقنتها، لكن منذ ليلة أمس كانت الكتلة التي أصبحت بحجم حبّة الجوز قد احترقت، كانت قد احترقت، كانت قد احترقت. والآن لمّا فكّت زرّ بلوزتها لتراها، رأت أنّ الجلد فوقها قد أصبح أحمر اللون وانحسر. كأنهم قد وضعوا مكواة حامية عليها. كانت قد مسحت بيدها عليها، وفجأة تصدّعت كالرمانة وخرج منها صديد أحمر وأصفر. كان لا بدّ أن تنادي أحداً.

أصيب رأسها بالدوار، وارتعشت ركبتاها، مكثت قليلاً ثمّ تنحّت جانباً. مسحت البخار الذي كان على الزجاج بكفّها. كانت باحة الدار عارية وخالية من الورد الحيّ. فقط كانت أشجار الصنوبر التي كانت تبدو كأنها تلهث. كانت دلنواز تقف تحت إحداها بشال أزرق مخملي ذي قبّعة، وكان ما حولها مليء بطيور الزرزور التي كانت تقسّم لها الخبز. شعرت بدوار في رأسها، فأرادت أن تقول: " انتبهي كي لا تصابي بالبرد يا بنتي! لكنّ صوتها لم يخرج. أمسكت قبضة الباب وصرخت في خيالها: " يا زبيدة... يا زبيدة...! " لكنّ صوتها لم يخرج من حلقها. مرّة أخرى مسحت الزجاج المغطّى بالبخار بكفّ يدها. كانت ماه منظر ترتدي ثوباً واحداً وقد جلست إلى جانب مجرى الماء حول البركة وكانت تتقيّأ، وكانت دلنواز قد أطلقت طيور الزرزور وهي تقفز أمامها. أضاءت ابتسامة باهتة ظلمة وجه السيّدة الأمّ " الشكر لك يا إلهي! صبيّ إن شاء الله، ليتني أبقى حيّة لأقيم له وليمة الختان بنفسي، سأدعو مهدي الأسود أيضاً مع مجموعته. سأقيم وليمة وأخبر الجميع، لتحترق تلك المرأة التي لا تنجب إلا البنات ".

رأت دلنواز وقد ركضت إلى المطبخ، وهذه المرّة عادت مع زبيدة. فكّت زبيدة الخيش من حول المضخّة أعلى البركة وضخّت. ألقت ماه منظر الماء على وجهها قبضة قبضة، وفي النهاية وضعت رأسها تحت الماء.

انزلقت السيّدة الأمّ إلى الأسفل بهدوء. " إنّها تجعل نفسها مريضة باختيارها، لم تفكّر في أنّها الآن مسؤولة؛ مسؤولة عن الطفل الموجود في بطنها ".

كانت تتنفس بصعوبة، وكان العرق قد تصبّب من جبينها. " إنه صبيّ. إن شاء الله صبيّ، حينها سيجد ابني ميرزا سنداً، وستخرج دلنواز أيضاً من الوحدة. هل ستحزن ابنتي، لا قدر الله؟ حسناً.. منذ الآن سأضع مع ميرزاً شروطاً وعهداً. لا تجعل يا بنيّ الجديد الذي يأتي إلى السوق يحزن قلب القديم؟ ".

- أماتني الله يا سيدتي. لِمَ أنتِ هنا؟

فتحت السيّدة الأمّ عينيها بعد سماع صوت زبيدة، وأخذت نفساً عميقاً:

- لا شيء. ساعديني في الذهاب إلى مكاني.

أمسكتها زبيدة من تحت إبطها وأجلستها في مكانها، فوضعت رأسها على المتكأ وقالت:

- لو كنتِ قلتِ لهذه البنت ألا تجعل جذعها يبرد، فالآن توجد أمانة في بطنها.

ابتسمت زبيدة بسخرية. فتحت السيدة فتحة لحاف كرسي النار وسحبته إلى ما فوق صدرها:

- إن ذهبتِ إلى الخارج فاشتري لها منفحة، فالمنفحة لا تترك القيء يتخثّر، نادي تلك الطفلة أيضاً لتدخل الغرفة.

نظرت زبيدة إلى الخارج وقالت:

- لقد استعدّت للذهاب لرؤية أمّها، فمن يجرؤ ويقول لها ادخلي؟ منذ ساعة حتى الآن سألت عشر مرّات أين المشهديّ؟

- اذهبي أنتِ أيضاً معها!

- فديتُ قامتك يا سيدتي، لديّ عشرة أنواع من العمل تنتظرني ... في هذه الفترة التي لم أكن فيها...

أرادت أن تقول: لا... لا تذهب وحدها. أشعر بالقلق، لكنها رأت وجه دلنواز الملتصق بالزجاج حيث كانت شفتاها وأنفها منبسطة، بعد ذلك فتحت الباب وقفزت إلى الغرفة، وألصقت وجهها الذي كان متورداً من البرد بوجهها وقالت:

- أنا ذاهبة. لا تأتي خلفي بسرعة!

بعد لحظات، كانت السيّدة الأمّ قد أغمضت عينيها، وكانت تسمع صوت العربة التي تهتزّ كمهد، وكانت تفسّر حلم وصول الأم إلى ابنتها.

ثمّ شيئاً فشيئاً أغلقت عينيها واستغرقت في نوم عميق.

* * *

وضع أحمد عليخان قبضة من سكر النبات البولكى(١) الأحمر والأصفر والأخضر في كفّ دلنواز الباردة والمبلّلة، التي كانت قد غرقت داخل شالها ذي القبعة تحت سقف العربة الواسع المتحرّك، وكانت عيناها السوداوان اللوزيتان تحدّقان إليه.

- عجباً أنك في هذه النواحي!

اتجه إلى المشهديّ أسد الله وبدأ يعاتبه:

- إن الله لا يرضى أن يفرّق بين الأم وولدها هكذا؟

رفع المشهديّ يديه إلى الأعلى:

- والله لا ذنب لنا يا سيّد.

هزّ أحمد عليخان رأسه:

- لعن الله المسبّب والفاعل! الآن... خذها بسرعة إلى البيت، وخذ بشارتك من السيدة.

قالت دلنواز:

- تعال أنت أيضاً يا جدّي!

قبّل أحمد عليخان ظهر يدها المكوّرة وقال:

- اذهبي مع المشهدي وسآتي فيما بعد.

ما إن ذهبا، صفّ أحمد عليخان الألواح أمام الباب، بعضها إلى جوار بعض، ثمّ أغلق الدكّان وقفلها بقوّة ورفع ياقة معطفه وعبر من عرض

---

(١) نوع من سكر النبات في شكل قطع كالقطع النقدية المعدنية (المترجمة).

شارع " إسماعيل البزاز ". كان ثمّة مطر خفيف ناعم قد بدأ يهطل، وكانت صور المصابيح الموجودة أعلى الدكاكين وبين ثنايا أغصان الأشجار وأوراقها قد انعكست على أرض الشارع وماء النهر. كان نصف شعبان، اشترى في طريقه كيلو من حلوى الـ " خامه اى "(١) من محلّ حلويات "ميهن "، كما اشترى من بائع جوّال نصف كيلو من الشوندر التنوريّ. دخل حيّ صفر القصّاب، وعبر من جانب النهر الواقع وسط الحيّ بحيث لاتصيبه القطرات التي تنزل من الميازيب فتنجّسه. لمّا وصل أمام باب عمّته وقف، وأمسك مطرقة الباب وسط قبضته وقرع، سمع صوت العمّة المرتعش:

- مَنْ في هذا الوقت من الليل؟

وضع فمه في شقّ الباب:

- أنا يا عمتي العزيزة، أحمد علي.

إلى أن فُتِحَ الباب، انسحب ووقف في كنف أغصان شجرة الدلب القديمة. لمّا فُتِحَ الباب رأى في ظلمة الرواق لمعان عينين زرقاوين جعل عموده الفقريّ يرتعش.

- بسم الله الرحمن الرحيم!
- سلام!
- عليكم السلام.

قالت عمّته التي كانت تسحب نفسها إلى أمام باب الغرفة حين رأته:

---

(١) حلوى محشية بالقشطة تشبه الـ " كلير ". (المترجمة).

- أحمد عليخان عديم الوفاء! هذا أنت؟ تعال... تعال إلى الداخل لأشبع من رؤيتك. " ما دمت حيّة، كنت أنت معيني حامل همي... أنا لا أريد شمعاً على المزار ".على الرغم من أنك لست مقصّراً بل المقصّر هو زوجتك التي تصدر الجلبة والفوضى كالغجر ولا تدعك تتذكّر أن لديك عمة عجوزاً جعل القضاء والقدر بيتها على طريقك، وآمالها معلّقة عليك. تعال... تعال يا عمّة! عيدك مبارك.

نزع أحمد عليخان حذاءه وخطا إلى داخل الغرفة، فوضع حلوى الشوندر على الرفّ وانحنى وقبّل وجه عمّته. مسحت المرأة بيدها على شعره الذي تداخل سواده ببياضه:

- ليت أذنك تسمع يا أخي! أين أنت لترى كيف أصبح شعر ابنك أحمد عليّ أبيض. أين أنت لترى كيف ظهرت الخطوط في جبهته. آه... يا أخي آه... ليت زوجته كانت، في الأقل، قد أنجبت صبياً؛ حينها كانت راية اسمه سترتفع. أسف ومئة أسف أنه بعد مدّة " لن يبقى أثر للدالية ولا للكرم ".

أتت نيمتاج إلى الغرفة، صبّت الشاي في قدحين رفيعي الوسط، ولكلّ منهما يد في جانبه ووضعتهما أمامهما، التصقت العمة بمعصم اليد التي يتحلّق حولها سوار كالأفعى:

- اجلسي يا بنتي! اجلسي هنا! إلهي ترين الخير في عمرك يا امرأة، فأنت بعد الله مؤنسي وحاملة همّي، والله أنا خجلة من لطفك.

جلست نيمتاج وهي تبتسم:

- أي كلام تقولينه يا سيدتي الكبرى! إنك جيدة إلى درجة أنّ كلّ ما أفعله من أجلك قليل؛ فقد قالوا قديماً: المحبّة تجلب المحبّة.

أدارت العمّة وجهها إلى أحمد عليخان:

- إنها تدور حولي من الصباح إلى الليل كالفراشة، لا تقصّر في الكنس ولا في الطبخ. كانت هذه البرعمة تفاحة حمراء في يد شلّاء، ليت زوجها كان يعرف قدرها، أبداً لم يعرف ولن يعرف أيضاً؛ فلو كان يفهم لعاد، لكن ليت الآخرين يعرفون.

تأوّهت ومدّت رجلها، وضربت بيدها على ظهر الرجل وقالت:

- لتكن أذنك معي يا أحمد عليخان، ما جواب هذا اللغز، أنت تعرفه: منديل أزرق مملوء بالإجاص. هلا قلت ما هو؟

ضحك أحمد عليخان:

- معروفة. السماء ونجومها.

خفضت العمة صوتها:

- أحسنت، أنت ذكي، وسريع البديهة كما كنت في أيام طفولتك.

أنت تعرف أن السماء الممتلئة بالنجوم فيها قمر واحد فقط، لكن "بين قمري وقمر الفلك... فرق من الأرض إلى السماء ".

وغمزت وأشارت إلى نيمتاج لتجمع الأوساخ المتخيَّلَة عن السجادة، وضحكت ضحكة عالية. أخذ أحمد عليخان نفساً عميقاً وشرب

شايه كلّه بلا توقف. مدّت نيمتاج يدها لتأخذ القدح الفارغ من أمامه فضربت شعلة عيني الأفعى الحمراء عين الرجل.

بعد دقائق، وضع صحن من الخزف ذي الورد الأحمر، الذي صُفّت فيه قطع من الشوندر في شكل قلب أمام أحمد عليخان.

قالت العمة معاتبة:

- انظر! منذ أيّام عدّة وأنا أرسل إليك رسائل لتأتي، لكنك دائماً تهمل وتسوّف. هل طريقك طويل وأنت مشغول؟ أرأيت منا سوءاً؟ أم لا! فذلك كلّه بسبب الخوف من امرأتك الوقحة قليلة الحياء؟

قال أحمد عليخان بملء فيه:

- عمة!

ألقت العجوز نظرة إلى نيمتاج:

- إلهي، فلتري الخير في عمرك يا بنتي، أعدي لي ملء كأس من لسان الثور وسكر النبات! لقد بدأ ألمه ثانية.

ووضعت يدها على قلبها. خرجت نيمتاج من الغرفة، فأمسكت العمة يدي أحمد عليخان بقوة أكثر:

- تزوجها زواجاً مؤقّتاً يا ولدي كالعباس بن علي! لا تخف! سأعمل على ألا يعلم بالخبر مخلوق، وأنا أيضاً مستعدة أن أبصم لك أسفل ورقة لتنجب صبياً!

جلس أحمد عليخان مستقيماً وقال:

- يا عمتي العزيزة! لقد استبعدتِ أن تكون نيّة السيّدة صنم سليمة.

ضغطت العمّة على يده بقوة:

- نعم، لقد نسيتها. أنت أيضاً افعل ذلك وفكّر في غدك، حين تصبح عجوزاً أعمى ولا عصا في يدك.

قبل أن يتكلّم أحمد عليخان أتت نيمتاج بكأسين مخططتين مملوءتين بلسان الثور وسكر النبات، وضعت إحداهما أمام العمّة والثانية أمام أحمد عليخان. قالت العمة:

- سلمت يدك الوردة. لِمَ لم تحضري لنفسك؟

ابتسم أحمد عليخان وقال:

- تريد أن تشاركني.

حمل الكأس، فاحتسى نصفها ومدّ النصف الآخر إلى المرأة، فامتدّت يد بلوريّة، وألقت ياقوتتان حمراوان لهباً من النار على جدران الكأس. التفت الأفعى حول جسدها وانعطفت، ثمّ انزلقت أبعد ووضعت الكأس الفارغة مع حبتي سكّر النبات متلاصقتين على الرف. ضربت العمة يديها إحداهما بالأخرى:

- مبارك... مبارك!

تناولت علبة حلوى الخامه اى عن الرف، وأفرغتها في الصحن القريب:

- عجباً! غوفلت وتركتها تنتظر.

سألت العمة:

- من؟

قال أحمد عليخان:

- دلنواز، ابنة السيّدة الصغرى.

وغادر البيت بسرعة.

* * *

وضعت السيّدة صنم طستاً تحت السقف حيث كان الماء يرشح من أحد الشقوق، وذهبت إلى جوار النافذة، فسحبت الستارة وألقت نظرة إلى السماء. كانت الأمطار قد بدأت تهطل منذ الليلة الماضية ولاتزال تهطل بلا توقف، ثمّ تركت الستارة وقالت:

- قلبك أيضاً يفيض مثل قلبي!

كانت بناتها وحفيدتها يجلسن حول كرسي النار بأيد ووجوه مغسولة، وكنّ يتأهبن لتناول الفطور. جلست إلى جوار بساط السماور وصبت لهنّ من الشاي المخمّر.

احتسى أحمد عليخان شايه كلّه وهو يصدر صوتاً، ثم ذهب إلى غرفة المخزن وخرج بعد قليل مرتدياً ملابسه:

- ألا تريدين شيئاً؟!

ألقت السيّدة صنم نظرة باردة إليه وقالت:

- ضع المصروف على الرف، مع السلامة!

تلكأ أحمد عليخان وفتش في جيوبه:

- ليس لدي.

اضطربت السيّدة صنم:

- ليس لدي... ليس لدي... لقد سوّكوا حلقه[1] بكلمة ليس لدي، جيبك مفتوح جيداً للآخرين، لكن حين يصل الأمر إلينا تصبح مفلساً. حين اللزوم تعرف كيف تدعو أقاربك وأسرتك وتقيم وليمة، لكن حين يأتي دورنا تخدعني أنا الغريبة بليس لدي. اذهب واغرب!

قال أحمد عليخان مضطرباً:

- لا إله إلا الله... اخجلي من الأولاد يا امرأة!

رفعت السيّدة صنم صوتها أكثر:

- اللعنة على من كان السبب! هؤلاء بكلّ طفولتهن يعرفن من كان السبب في صياحي، لا تعطي مصروفاً، ينهال على رأسي هذا السكوت، وشجارك الجديد بلا سبب ماذا أفعل به؟ كانت أمي غفر الله لها تقول حقاً: " لا تخف من ذلك الذي يصدر ضوضاء وجلبة، خف من ذلك الذي يطأطئ رأسه ". قل!... قل يا أحمد عليخان، ماذا حدث حتى تقف في برد الشتاء هذا حتى نباح الكلاب[2] خلف طاولة الغلّة وتجيب زبائنك

---

(١) حين ولادة الطفل يمسح حلقه بالإبهام بملح أو تراب من أجل السلامة (المترجمة).

(٢) المقصود بذلك آخر الليل وهي صيغة غير مهذبة (المترجمة).

المشؤومين، لكن حين أقول أين هذا المرعى[1] كلّه تهزّ ذنبك وتتلكأ وينعقد لسانك؟ خف الله أيها الرجل، فالقمر لا يبقى خفياً تحت الغيم!

تجهّم أحمد عليخان:

- اخجلي يا امرأة! ما هذا الكلام الهراء الذي تتفوهين به؟ إن كنت لا تخجلين من بناتك فاخجلي من حفيدتك التي هي ضيفة لديك.

ضربت السيّدة صنم بكف يدها على سقف كرسي النار:

- أنا؟ أنا أخجل؟ اخجل أنت، فقد انكشف أمرك، وتقسم بحضرة العبّاس.

فجأة بدأت تبكي وأخفت وجهها في ثنايا ملاءة الكرسي:

- لينتقم الله منك أيها الرجل الذي تلعب بروحي وأعصابي! لا سامحك الله على تقصيرك، فهو وحده يعلم ماذا تعمل خلف الستار.

نظر أحمد عليخان إلى البنات اللواتي شحبت ألوانهنّ ووجوههنّ وكنّ قد توقفن عن الأكل، ذهب إليهنّ ووضع يده في جيبه، ووضع في كفّ كلّ منهنّ عشرة شاهيات، لكن حين جاء دور دلنواز أعطاها قِراناً جديداً:

- لا أريد... لا أريد، معي.

مسح أحمد عليخان بيده على رأسها:

- اذهبي فيما بعد مع خالاتك واشتري ديكاً من السكّر.

---

(١) المقصود بذلك المكسب أو الربح (المترجمة).

ووضع يده في جيبه ثمّ وضع تومانين على الرفّ، لكن حين سماع صوت السيّدة الصغرى تصرخ " يا ويلي " وتصاعدت رائحة الدخان التي وصلت إلى مشامّه، نهض بسرعة وأزاح الستارة الموضوعة من جهة الممرّ، وحين رؤية انعكاس ألسنة النار في الزجاج صرخ:

- يا أبا الفضل! احترقت.

لدى سماع صراخه هجمت البنات والسيّدة صنم أيضاً نحو الممرّ، كانت غرفة السيّدة الصغرى قد ضاعت معالمها في الدخان والنار، النار التي بدأت من حفرة كرسي النار ونشبت في لحافه.

- يا ويلي... يا ويلي.

كانت السيّدة الصغرى قد التصقت في زاوية الغرفة، وكانت قد وضعت القسم الأسفل من ثوبها في فمها وأخذت ترتعش. ركض أحمد عليخان وهو يضرب بكفّ يده على رأسه إلى البركة، وبركلة كسر زاوية من اللوح الموضوع على البركة وأخذ رشاشة الماء التي كانت ملقاة إلى جانب البركة، فملأها وركض إلى الغرفة. رفعت السيّدة صنم يديها إلى السماء تحت المطر الذي كان يهطل وصرخت:

- أنجدوني أيها المسلمون! لقد احترقت ابنتي.

تحلّقت البنات حولها باكيات وكنّ يقفزن إلى الأعلى والأسفل، عدا دلنواز التي كانت قد ذهبت إلى غرفة أمّها وأمسكت رأس السلسلة الساخنة، وكانت تحاول بقوتها كلها أن تسحبه من داخل الجدار.

بعد ساعة، كانت النار قد أخمدت، وكانت رائحة القطن المحترق تفوح في الجو، لكنّ جمرة النار التي كانت على قلب السيّدة صنم كانت لا تزال تحترق وتحترق؛ لمّا كانت قد مسحت بالزيت على يد السيّدة الصغرى وقدمها المحترقتين بمساعدة أشرف السادات، وكانت تنظر إلى الدموع المنهمرة من عيني دلنواز.

* * *

كانت الشمس قد انكسفت، وكان زقاق الأكاسيا والأسطح المطلة عليه ملأى بالجموع، الذين كانوا يقفون وفي أيديهم الزجاج المدخّن، وكانوا ينظرون إلى الأعلى، كانت الغربان قد جعلت السماء سوداء، وكانت أصوات نعيبها أعلى من أيّ صوت، أمسكت زبيدة السيّدة الأمّ من تحت إبطها وأخذتها إلى حافة الحديقة الملأى بالورد المحترق:

- صلاة الخوف... صلّي صلاة الخوف!

دارت السيّدة الأمّ حول البركة، ورفعت كمّيها، وقالت لزبيدة:

- اكبسي المضخة!

لكنّ الماء كان متجمداً ولم يصعد، فقالت:

- سأتيمم، خذيني إلى الغرفة!

أمسكتها زبيدة من تحت إبطها، وعادت الاثنتان تسحبان أقدامهما إلى الغرفة.

- لو كنتِ أخبرتِ ماه منظر ألا تنظر إلى الشمس، لو أخبرتها ألا تلمس جسمها وبدنها.

جلست وجفّفت العرق البارد الذي توضّع على جبهتها:

- أصبحت شفتاي كالخشب الجافّ تماماً. انظري!

ركضت زبيدة وأحضرت زبدية " لسان الحمل " التي كانت قد غطت سطحها طبقة رقيقة من الجليد، فأخذت السيّدة الأمّ نَفَساً منها واتكأت إلى الخلف وقالت:

- ليتني أرى وجه ابن ميرزا وبعدها أموت.

جلست زبيدة إلى جوار القائم الآخر لكرسي النار:

- إن شاء الله ستعيشين مئة وعشرين عاماً يا سيدتي.

نظرت السيّدة الأمّ إلى باحة الدار:

- انظري كم أحدثت ضجيجاً هذه الغربان.

مدّت يدها وأخذت تراب التيمم، ملّست زبيدة وجه كرسي النار بيدها:

- يا سيدتي! هل تسمحين لي أن أقول شيئاً؟

ضربت السيّدة الأمّ يديها على تراب التيمم ومسحت وجهها.

- أريد أن أذهب للخطبة.

مسحت السيدة بكف يدها اليسرى التي كانت ترتعش على اليد اليمنى.

- إذا سمحتِ...

مسحت السيّدة الأمّ يدها اليسرى أيضاً. كانت زبيدة تنتظر الجواب.

فتحت السيدة الأمّ زرّ بلوزتها دون أيّ كلام، كان ثمّة جرح بحجم الريالين قد انفتح فوق ثديها الأيسر، وكان خيط من الدم والقيح يسيل منه. قبضت زبيدة على وجهها:

- آه.

قالت السيّدة الأمّ بهدوء:

- أن يفتح من الخارج أفضل من أن يصب سمّه في الداخل.

أخذت زبيدة تبكي:

- لماذا هكذا... لماذا هكذا؟

ألقت السيّدة الأمّ غباراً من تراب التيمم في فتحة الجرح.

بعد بضع ساعات كانت الأسطح المشرفة على زقاق الأكاسيا قد خلت، وكان الناس قد ذهبوا إلى بيوتهم.

وضعت زبيدة الملاءة على رأسها، وكانت قد غطّت وجهها تماماً. عبرت من منعطف زقاق الأكاسيا واتجهت إلى دكّان " السيدة صدّيقة "[1]، كان نصف الباب مفتوحاً، وكانت تفوح رائحة مرق اللحم بالحبوب والخضار، كان وجه السيدة صدّيقة وعيناها الخضراوان، الشبيهتان بعيني

---

(١) المقصود بالسيدة هنا نسبتها إلى آل بيت الرسول عليهم السلام (المترجمة).

هرّة، محوطة بإيشارب فستقيّ، وكانت تقف خلف الميزان تفصفص بزر عبّاد الشمس، فقالت زبيدة حين رؤيتها:

- سلام يا أختي! ألديكِ قند مخروطيّ؟

تناولت السيدة صدّيقة من بين البضاعة المكدّسة في زاوية الدكّان قطعة قند مخروطيّ ووضعتها في الميزان.

- فقط هذه؟

حدّقت زبيدة إلى حامل كفتي الميزان الذي كان يصعد ويهبط:

- أخبريني لأرى يا أختي، هل أعجبتكِ الحياة في ولايتنا؟

حدّقت المرأة إليها بعينيها الخضراوين:

- إنها تمضي، سواء أردنا أم لم نُرد.

أزيحت الستارة الموضوعة أمام باب الدكّان، ودخل طفل هزيل نحيل وطلب " ماما جيم جيم "[1].

أعطته صدّيقة حاجته.

قالت زبيدة:

- هل لا يزال زوجك بلا عمل؟

تأوّهت صدّيقة:

- الحقيقة أنّ العمل كثير، لكنّ الغيرة قليلة.

---

(١) حلوى تصنع من الدبس في شكل أقراص عريضة رقيقة ويرشّ عليها السمسم (المترجمة).

أخذت زبيدة القند المخروطيّ من كفّة الميزان ووضعتها في السلّة.

- إنّ قلبي يحترق لأجلك يا أختي؛ تفاحة حمراء في يد شلّاء. منذ طلوع الصبح إلى آخر الليل في هذا المكان الرطب تتجادلين مع كلّ محرم وغير محرم، وفي أثناء ذلك يكون زوجك إمّا يفتخر بكلّ شيء بلا حياء وإمّا يجلس مستنداً إلى الجدار يحدّق ما هو أمامه.

هزّت السيدة صدّيقة رأسها:

- نعم يا أختي! أنا مستعدّة أن أغسّل الموتى كي لا تبقى بطون أولادي خاوية، فكيف إن كنت أبيع عنبر النسا وسنبل الطيب؟ إن كان زوجي لا يذهب للبحث عن عمل فلأنّه اعتاد البطالة.

خرج صبيان نصف عاريين يركضان من خلف الستارة التي تقسم الدكّان نصفين، وخلفهما فتاة في الرابعة عشرة بضفيرتين ذهبيتين وعينين كبيرتين كعيني الغزال يظللهما حاجبان مقوسان.

اتكأت زبيدة بظهرها إلى الجدار.

- تبارك الله!

كان أحد الطفلين قد دار حول الطاولة المصنوعة من صناديق العنب الخالية وأخفى رأسه في ذيل ثوب أمّه، والثاني خلفه وقد أمسك شعره. فصلت السيدة صدّيقة بين الطفلين، وسلّمت أحدهما إلى البنت التي كانت قد أختبأت خلف الستارة بسرعة. نظرت زبيدة إليها بحسرة:

- هل تعطيني ابنتك الكبرى يا سيدة صدّيقة؟

أعطت المرأة حبّة جوز قند[1] للطفل الذي كان يتلوى في حضنها:

- أتريدين فلذة كبدي؟

أشارت زبيدة إلى مخروط القند داخل السلة:

- أقسم بحلوى فاطمة الزهراء هذه أني سأمنحها السعادة.

أخذت السيدة صديقة تهز الطفل الذي كان يبكي:

- لأجل من وجدتِها مناسبة؟ لأخيك أم ابنك؟

سحبت زبيدة الملاءة على وجهها:

- لأجل زوجي.

وتابعت:

- أنت لا تعرفين أنّ مصباحي أعمى!

أضاءت بارقة من الغضب عيني السيدة صدّيقة:

- سلمت يداك، ثم ماذا؟

دمعت عينا زبيدة:

- أتيت لأشتري مصباحاً، فربما يضاء بيتي، لا تردّي يدي المحتاجة.

دخلت مشترية جديدة الدكان، فأعطتها المرأة حاجتها وصرفتها:

- لِمَ ألقي بها في نار البلاء؟ لقد احترقت أنا، ألا يكفي؟!

---

(١) دراقة أو خوخة مجففة وسطها بودرة القند ولب الجوز (المترجمة).

انحنت زبيدة نحوها والتصقت بيدها:

- والله لن أدعها تنزعج من شيء، سأصبح خادمة لها، سأصنع لها ما يجعل الناس والعالم يقفون حائرين.

وضعت السيدة صديقة الطفل الثاني خلف الستارة وعادت.

- لقد نضجت ابنتي للتوّ وأصبحت تحمل همّي، فآتي الآن وأتخلّى عنها وأقدّمها لك بكلتا يدي؟!

ضغطت زبيدة على يدها:

- لا تركك الله وحيدة! أنت لن تعطيها للغربة، فزقاقان أدنى من هنا لا يستحقان هذا الكلام.

مرة أخرى أتت واحدة من الأطفال ووضعت رأسها في ذيلها، ففكّت السيدة صديقة زينة شعرها المصنوعة من مجموعة خيوط بأصابعها:

- ليتكِ طلبتِ مني شيئاً آخر، لما سمعتِ، حينها، إلا على عيني.

مدّت زبيدة يدها بصمت وفكت السلسلة، التي علّقت فيها أشياء عدة، عن عنقها وتركتها معلّقة في الهواء.

- هل تريدين أن تلزميني تجاهك؟

أنّت زبيدة:

- لا تطرديني أنا المتسولة عن باب بيتك!

قبل أن تجيب المرأة ظهر رجل عند عتبة الباب، رجل ذو جلد أصفر، وشفتين زرقاوين، وعينين غائرتين، وشعر دهنيّ أسود.

سحبت زبيدة الملاءة على وجهها، لكنّ عين الرجل كانت قد تسمرت إلى السلسلة الذهبية التي كانت تتحرك في الهواء كقرني العقرب.

- هل أنشأتِ محلّ بيع ذهب؟

قبل أن تجيب المرأة رفع قبضته في الهواء وأمسك بها.

- أهي للبيع؟!

قدّمتها زبيدة:

- لا قيمة لها، فداء خصلة من شعر ابنتكم.

مدّت السيدة صدّيقة يدها وقالت ملتمسة:

- أعطني إياها، بالله أعطني إياها!

ابتلع الرجل ريقه وقال:

- يجب أن نتكلّم معاً، أنا في خدمتك.

سحبت زبيدة ملاءتها بسرعة على سلّتها وسارت.

- سأعود غداً.

وابتعدت عن الدكان بخطى صغيرة، لكن للحظات عدّة بعد خروجها كانت تسمع صوت المرأة وزوجها.

* * *

كانت الأغصان لا تزال منحنية تحت ثقل الثلج الذي هطل من جديد، ولم تكن الغربان في الثلجة الأولى موجودة لتصرخ: ثلج، ثلج؛ لكن

السيّدة الأمّ وهي تجلس إلى جانب قائم كرسي النار كانت تسمع هذا الصوت في رأسها، فكانت تحدّق من زاوية الستارة المزاحة إلى قبّة السماء وتقول:

- الثلج الأول للغربان، والثلج الثاني للبشر؛ ذاك الثلج الذي إن سقط على شعره لا يذوب حتى يذيبه شيئاً فشيئاً.

كان كرسي النار هو النقطة الدافئة الوحيدة في المنزل، وعلى رماد المنقل الحار كانت أنصاف ثمار النارنج تطبخ لتصبح مرهماً للصدر. كانت تصبّ ملعقة من السكّر في ماء النارنج الذي كان يقلقل ويعطي طعماً حامضاً حلواً.

- في عمري الذي عشته كله لا أذكر شتاءً بهذه القسوة.

كانت السيّدة الأمّ تقول وتحدّق إلى السماء.

كان المشهديّ أسد الله، مع اثنين من عمّال محل ميرزا، يجرف الثلج عن السطح من هذه الجهة، وكانت آثار أقدامهم تمتلئ من الجهة الثانية، لكن مرة أخرى كان يدفئ يديه بالنفخ فيهما، وكان يحتسي الشاي مع حبّ القند الذي أحضرته إليه زبيدة ثم يعود إلى الجرف مرة ثانية، كانت ماه منظر تتقيّأ على ذلك الثلج الأبيض، وزبيدة تتأوّه في قلب هذا الجو البارد، وكانت دلنواز تنظر إلى الحديقة الفارعة من خلف زجاج غرفة الجلوس، الذي مسح البخار عن سطحه بحجم كفّ اليد، لماذا لا ينتهي الشتاء؟

كان ميرزا أبو تراب قد أمر أن يغطى سطح البركة من أوله إلى آخره بألواح جذوع الأشجار الضخمة، وأن يلقى السماد حول المجرى أسفل

البركة، كذلك كانت المضخّة قد لُفَّت ونُسي غناء النافورة، من زاوية البركة المكسورة كان يمكن رؤية الأسماك التي التصقت بسقفها الزجاجيّ، وكانت قد نسيت قول ماء، ماء. كانت المدارس قد عطّلت منذ أسبوعين وأصبح العبور بين الأحياء صعباً، فكان الناس يعبرون من الأنفاق التي كانت من جنس الثلج.

- لا أتذكّر، لا لا أتذكّر سنة هطل فيها هذا الثلج كلّه أبداً.

كانت السيّدة الأمّ تقول ذلك، وتتقلّب من الجهة اليمنى إلى اليسرى وبالعكس. كان عصر يوم الجمعة، وكانت الراية الخضراء الموجودة فوق باب بيت ميرزا أبي تراب تتحرّك بهبوب ريح باردة. كانت جلسة " دعاء السمات " قد أقيمت في الطابق العلويّ من العمارة، وكانت أحذية الرجال قد اصطفّت اثنين اثنين متزاوجة أيضاً. دخلت السيدة رفقاء البيت ووجهها مغطى، وبيدها سفينة من الورق الشفاف الملفوف، مملوءة بحمولة من السكاكر الملونة. ما إن وقفت دلنواز في طريقها، انحنت لتقبّلها، فكانت رائحة عطر ورد الثلج تفوح من فتحة ياقتها.

- هل جدّتك هنا يا سيّدة نجمة؟

هزّت دلنواز رأسها وركضت أمامها إلى غرفة الجلوس لتخبر جدّتها بقدوم الضيفة. فتحت السيدة جفنيها بمشقّة، ونهضت بهدوء ولم تبالِ بأنّ السيدة رفقاء وضعت يدها على كتفها، وقالت:

- أستحلفك بالله عليك أن ترتاحي، أرجوكِ لا تخجليني!

وطوّقت عنقها بيديها وقبّلتها من اليمين واليسار وبالعكس، ثمّ أفسحت مجالاً لجسدها البدين إلى جوار كرسي النار، ونظرت إليها بعينين مبللتين:

- لا أصابك الله بمكروه يا أختي، ماذا حدث لك فجأة حتى أصبحت هكذا؟ لمّا رأيتك في الحمّام كنتِ جيدة حيث...

تأوّهت السيّدة الأمّ:

- كلّ ما هو مقرر هو ما يحدث، الآن استقرت مشيئته على هذا فأنا راضية برضاه.

جلست دلنواز إلى جانب قائمة كرسي النار الأخرى. كان الزورق مملوءاً بحمولة السكاكر الملونة في أوراق ملونة وقد وضع بشكل مائل على الكرسي وانسكبت حمولته إلى الخارج، لكن الورق الشفاف حولها حال دون تبعثرها. فتحت دفترها وكتبت " لق لق... جزر... بطّ " ولعقت برودة الدائرة البيضاء الباهتة أسفل قلم الرصاص، من بعيد كانت تُسمَع أصوات الرجال المتداخلة، الذين كانوا يدعون. مدّت السيدة رفقاء يدها وأزاحت الورق الشفاف عن السفينة، وأخذت حبتين من السكاكر بنكهة الكاكاو ووضعتهما على ورق الدفتر الأبيض.

- تفضلي يا سيّدة السيدات! من الذي كان قد أتى إلى دارنا وكان ينظر إلى نافذة بيتنا ويغني بصوت عال:

- يا ذا العينين السوداوين، والحاجبين السوداوين، لا تأتي إلى دارنا، لدينا عروس،لا إنها تستاء؟!

أخفت دلنواز رأسها في انحناء ساعدها وضحكت بصوت خافت.
قالت السيّدة الأمّ:

- ابنتي لم تقصد الوقاحة، كانت تمزح، الآن أيضاً تقول: هنا منزلك وسلمت يدك الوردة.

لمّا فتحت لفافة ورق السكاكر فاح عطر جميل في الجو.

- كانت يدي قد التهبت، فذهبت إلى السيد نصر الدين، ومسحتها بالضريح، وفي الغد لم يبق شيء. تقرّحت قدم رفقاء فأخذته إلى هناك وجعلته يطوف ثلاث مرات، وبعد يومين انفتح رأسها، وبعد أسبوع لم يكن قد بقي غير مكانها.

سمّرت دلنواز نظرها إلى السفينة، إذ كانت قد أصبحت الآن أكثر ميلاناً، وكانت ورقة السكاكر ذات اللون النيلي الأزرق تلتمع على ظهر ظفرها، فوضعتها بين أوراق الكتاب. قالت السيّدة الأمّ:

- لقد انقطع أملي من الطبيب والدواء " فربما يكون الدواء من خزانة غيبه "، لا تظني أني أقول ذلك لأجل نفسي. لا... قلقي كلّه لأجل هذه الطفلة.

انزلقت الملاءة عن رأس السيدة رفقاء ووقعت على كتفها، كان شعرها الذي بلون البابونج يلتمع تحت نور المصباح. فتحت دلنواز صفحات الكتاب وكتبت على ورقة السكاكر " أمي "، ووضعت رأسها بين صفحات الكتاب وتنفست. دخلت زبيدة الغرفة والملاءة على رأسها، فسلمت وأعطت الكأس، رفيعة الوسط، المملوءة حتى نصفها للسيدة الأمّ.

- لقد قرئ عليه الدعاء.

شربت السيدة ماء الدعاء بنفس واحد، ثمّ وضعت جبهتها على حافة كرسي النار ومكثت قليلاً، ثم رفعت رأسها ومسحت زاويتي عينيها بالمنديل الذي كانت قد أخرجته من جيب معطفها المخمليّ الأسود.

رسمت دلنواز برأس القلم طائري زرزور، ثم خمسة... ثم عشرة... وكلها سوداء.

أخذت السيدة رفقاء قدح الشاي الذي وضعته زبيدة أمامها، وشربته ساخناً ساخناً.

- آه! احترقت يا زبيدة، كأنك خمرتِهِ بالنار!

ابتسمت زبيدة:

- لا احترق قلبك يا سيدتي! دقيقة لا غير.

قالت السيدة رفقاء:

- بالمناسبة، هل رأيتم الجيران الجدد؟ إنهم من الفرقة الضالّة، فاسم المرأة ماهْرُخّ، دائماً تضع على شفتيها أكداساً من أحمر الشفاه، وتقف أمام النافذة وتشاهد جدران الحيّ وأبوابه، أليس لديها طبخ وغسل وتلميع؟ وزوجها أيضاً بدل أن يذهب إلى المرحاض؛ يقضي حاجته، خلافاً للأدب، في أصيص الإيوان.

تجهّمت السيّدة الأمّ:

- بعيداً عنكم، بعيداً عنكم! لقد ذهب الأخيار كلّهم وحلّ محلّهم الخنازير. أسفاً، أسفاً على أولئك الجيران الذين هم كطاقة الورد...

ظهر ظلّ ماه منظر من خلف الزجاج المشجّر؛ فتحت الباب، كانت تضع على رأسها ملاءة صلاة زرقاء من قماش الفوال، ودخلت مبتسمة.

لمّا وقع نظر دلنواز عليها، هيّأت لها مكاناً لتجلس إلى جانبها. ردّت السيدة رفقاء سلام ماه منظر وقالت وهي تتجه إلى السيّدة الأمّ:

- ما شاء الله. لم تمض مدّة طويلة حتى سمنت كنتك.

علت حمرة خفيفة وجنتي ماه منظر، وأتت فجلست على مسافة من دلنواز وأخرجت من تحت طرف الملاءة كرة من الصوف التركي الفضي المائل إلى الأزرق وصنارتي الحياكة، قالت السيدة رفقاء:

- ماذا تحوكين أيتها العروس؟

نظرت ماه منظر بدلال:

- بلوزة وسروالاً للأطفال.

قالت السيدة رفقاء:

- مبارك إن شاء الله ، من هيئتك وملامحك واضح أنه صبيّ ذو شعر كثيف، قند عسل.

أصبحت حمرة وجنتي ماه منظر أشدّ، وحركت الصنارتين أسرع، ودارت الكرة وأصبحت أصغر. أغلقت دلنواز دفترها ونظرت بطرف عينها إلى صنارتي الحياكة اللتين كانتا تصعدان وتهبطان بسرعة، ثمّ مدّت يدها، التي كانت تفوح منها رائحة عطر الكاكاو نفسها، وسحبتها بهدوء على غرز الصوف. ألقت السيّدة الأمّ نظرة إلى ماه منظر:

- حوكي واحدة أيضاً لابنتي!

وقبل أن تسمع جواباً أخذت تسعل، فرفعت زاوية لحاف كرسي النار وأخذت من داخل المنقل نصف نارنجة، ضغطتها وشربت عصيرها ووضعتها مرة أخرى بين رماد المنقل، لكن السعال استمرّ كما هو بحشرجة غريبة. اقترحت السيدة رفقاء عليها أكل أربع بذور ونشاء، وأن تلفّ حلقها بصوف أسود، لكنّ السيّدة الأمّ ألقت إليها نظرة متعبة وهزت رأسها، وأشارت إلى صدرها:

- كل شيء من هذه.

حين ودعتهنّ السيدة رفقاء، رافقتها ماه منظر إلى الباب، وإلى أن عادت كانت دلنواز قد أخذت قطعة سكر من السفينة المائلة، وفتحت لفافتها وأكلت نصفها ووضعت النصف الآخر على بلوز الطفل الأزرق الفضيّ. لكن لمّا عادت ماه منظر ألقت نظرة على قطعة سكر الكاكاو، وبدون أن تقول شيئاً ألقتها جانباً وتابعت حياكة البلوزة مرة أخرى.

* * *

لم تكن شمس الشتاء الباهتة قد نزلت من وسط الجدار بعد حتى رافقت ماه منظر ميرزا إلى أمام باب الغرفة، لكن رؤية دلنواز التي كانت قد خرجت من الباب، ويدها بيد زبيدة للذهاب إلى المدرسة، جعلتها تتريث دقيقة بإشارة منه:

- اصبري دقيقة.

أخذت قبضة حرمل من المكان المخصص للحرمل المعلق في الجدار، وأدارتها حول رأس ميرزا ثلاث مرات، ثم فتحت قبضتها في زبدية خزفية صغيرة على الرف:

- لتعمَ العين التي تريدك بسوء، حينما تذهب فسأذهب وأرميها في النار.

ابتسم أبو تراب:

- الآن من يريد أن يصيبني بالعين؟

الحسّاد والبخلاء الذين لا تحتمل عيونهم رؤية أحد يتقدّم عليهم خطوة، فقد سمعت بأذني حين كانوا يقولون إنك تأتي إلى البيت كلّ ليلة بمنديل مملوء بالأوراق النقدية.

ابتسم ميرزا أبو تراب:

- حسناً! أليس الأمر كذلك؟

- بلى، لكن النظرة السيئة تصدّع الحجر أيضاً.

اختلست النظر إلى باحة الدار، فكانتا قد ذهبتا. أخذت قطعة الجوخ الخاصة بالتنظيف عن الرفّ، ومسحت بها على الزغب الدقيق الذي كان على كتفي ميرزا وياقته.

- الآن أصبحت كطاقة الورد تماماً.

- هل تسمحين لي يا سيدة؟

- نعم، لكن بشرط.

- ما هو

- حين تعود عند الغروب، أحضر لي فحماً وكشكاً أسود.

ضحك ميرزا بصوت عال:

- عجباً!

التصقت ماه منظر بذراعيه وأرجعت رأسها نحو الخلف. كان نور الصباح يعبر بين حلقات شعرها الأشقر.

- أقول هذا من طرف ابنك.

قال ميرزا بارتياح:

- إذاً اذهبي وأحضري خيطاً!

سحبت ماه منظر من علبة الإبر والخيوط قطعة خيط قطنيّ، وعقدتها حول إصبعه:

- هل أطمئنّ إلى أنك لن تنسى؟

قال ميرزا وهو ينتعل حذاءه باستخدام السكجة:

-هل سمعتِ مَثَل الرجل الذي كان دائماً حول عينيه وعلى رجله زرقة؟ كان كلّ صباح حينما يسمع طلبات زوجته يضع يده على عينه ويقول: على عيني، وفي الليل كان يضرب على رجله ويقول: آخ لقد نسيت.

أدارت ماه منظر لسانها حول فمها:

- أنا لا أفهم هذا الكلام، أريد فحماً وكشكاً.

- حسناً جداً، لكن لا تنسي أنتِ أيضاً أن تعطي منديل النقود المغلق لزبيدة لتخفيه.

قلبت ماه منظر شفتها.

- لِمَ لا تدعني أنا أخفيها؟

قال ميرزا وهو يخرج من الباب:

المكان الذي تخفيها زبيدة فيه مكان آمن، لا تصل إليه يد أحد، ولا تراه عين أحد.

انفصل عنها بابتسامة.

بعد ذهابه، ذهبت ماه منظر إلى خزانة خشب الجوز، التي كانت في الغرفة الأخرى، وحدّقت إلى حوّاء التي كانت تأخذ التفاحة من فم الأفعى، ثمّ أمسكت قبضة الخزانة وجذبتها إلى الأمام، فكان الباب مقفلاً. منذ اليوم الذي رأت فيه السيّدة الأمّ قطعة اللباس الجورسيه الفستقيّة خلف الصندوق أمرت بوضع قفل جديد للخزانة. لكنها لم تترك القبضة، جذبتها مرة أخرى نحوها، مرتين، ثلاث، فجأة قفز القفل إلى الخارج، وملأ عطر الياسمين الذي يصيب الرؤوس بالدوار الغرفة. لعقت ماه منظر شفتيها:

- هوم... كم من الملابس يوجد!

قلّبتها كلّها، وكانت من أقمشة مختلفة؛ كريب ناعم، مشمشة، دارايي[1]، ساتان، مخمل مورّد، تكوّرت أسفل الخزانة. فكّت عقدة " بقجة الحمام " المصنوعة من قماش الترون التي زيَّن محيطها في شكل شبكة، وطرّزت على زاويتها سلّة ملأى بالورد.

---

(١) نوع من القماش الحريري المموج (المترجمة).

سروال قصير ورديّ من قماش قطني رقيق زيّن بالزكزاك، قميص ليمونيّ داخليّ من الحرير بتول مشبّك أمام الصدر، فوطة من قماش قطني ذات أرضية موردة بحاشية من الدانتيل، وليفة بيضاء مشغولة بالصنارة. وضعت يدها داخل الليفة، وأخرجت صابونة صغيرة معطرة عليها صورة بجعة، و حبات عدّة من البودرة المبيضة، ومشطاً من العظم ثم أعادتها ثانية.

نهضت واختارت من داخل الخزانة علّاقة ملابس فيها معطف وتنورة صوفية بيضاء بمربّعات، ووضعتها داخل البقجة وطوتها وأغلقتها بمشبك ذهبي صغير.

كانت قد أغلقت القفل بعناء شديد وعادت إلى غرفتها. رفعت التول عن المرآة وتراجعت إلى الخلف، وأخذت تشاهد نفسها فيها، مدّت يدها ورفعت شعرها إلى الأعلى ثمّ أطلقته ثانية، كان قصّ الشعر قد أصبح ممنوعاً عنها منذ أن أصبحت عروس أبي تراب، على الرغم من أنّها لم تكن راضية عن هذا المنع. استدارت وسحبت يدها على بطنها:

- إذاً متى ستأتي إلى الدنيا يا ابن ميرزا أبي تراب؟!

ليت دوران الزمان كان بيدها، ليت تسعة الأشهر أصبحت تسعة أيام وتسع دقائق وتسع ثوان.

أتى صوت من باحة الدار، فنظرت من خلف ستارة التول الموضوعة أمام الباب إلى الخارج. لقد كانت زبيدة، فتحت النافذة نصف فتحة:

- زبيدة! يا زبيدة! تعالي احملي بقجة اليد إلى مقصورة الحمّام.

تيبّست زبيدة وسط باحة الدار:

- ماذا؟!

- ألم تسمعي ما قلت؟

طأطأت زبيدة رأسها.

- على عيني.

دون أن تسمع ماه منظر كلامها فركت يديها إحداهما بالأخرى:

- بسرعة! بسرعة!

أغلقت مصراع النافذة، ثمّ ارتدت ملابس سميكة وعقدت رباط ملاءتها الكمرية وجلست جاهزة مجهزة على حافة الكرسي البولوني، إلى أن ظهرت زبيدة عند عتبة الباب، التي تجهمت حينما شمت رائحة عطر الياسمين.

" آه. لو لم تكن السيّدة الأمّ ضعيفة ومريضة ومتهالكة على قدم كرسي النار، لما انتهز أحد الفرصة ليذهب إلى خزانة أم دلنواز ". حملت البقجة وسارت:

- تفضلي يا سيدة!

توقفت قليلاً أسفل الدرج وأخذت من المخزن المجاور لباحة الدار طاسة ومحفظة صغيرة وطستاً نحاسياً، ولم يكن حملها سهلاً، فأمسكت الملاءة بأسنانها وأخرجت يديها من أجل حمل الأشياء. سارت ماه منظر في الأمام وهي في الخلف، وعبرتا زقاق الأكاسيا، عبرتا المحلة، مرّتا ببائع الفحم وبالنحّاس والبقّال وبمحلّ طبخ الحليم(١)، ولمّا وصلتا أمام دكّان الكباب تباطأت قدما ماه منظر.

---

(١) طعام مكوّن من القمح واللحم، يضاف إليه السمن الحارّ والقرفة بعد أن يطهى تماماً وأحياناً السكّر. (المترجمة).

- عند الظهر اشتري لي كباباً مع مخلل الباذنجان، ولا تنسي الريحان.

كانت زبيدة قد أخذت تلهث، وخطر لها:

" التفاخر طبق على طبق، والكلاب حولها تنبح "[1]. لو كانت سيدتي سليمة معافاة لما كان عليّ أن أسير خلف هذه الغجرية، لم تصل بعد إلى الصياح والصخب وهي هكذا، فكيف حين تضع السيدة رأسها تحت التراب وتصبح الأمور بيد هذه الوقحة قليلة الحياء. " سبعة أشخاص يحملون المرايا بأيديهم وحسن الأقرع يربط رأسه "[2]. لقد نسيت من كانت وماذا كانت، والآن تطلب خفيراً أمامياً وخفيراً خلفياً من أجل الذهاب إلى الحمام.

لمّا وصلت ماه منظر أمام " حمام صحرا " تباطأت، هبطت السلّم الملتفّ بحذر وقالت لزبيدة التي كانت تسير خلفها:

- انتبهي لي حتى لا أنزلق!

كانت معلّمة الحمّام تضع على رأسها شعراً مستعاراً، وكانت يداها ممتلئتين بأساور الذهب حتى المرفقين، وكانت تجلس بثوب واحد وتأكل الخبز والجبن والحلاوة الطحينية.

سلمت زبيدة بقجة ماه منظر للمسؤولة عن المحافظة على الملابس، وأوصتها بها وعادت إلى البيت.

كانت السيّدة الأمّ مستلقية إلى جانب كرسي النار، وكانت تئن. أعطتها دواءها وسقتها مغلي الأعشاب، ثمّ أخرجت المنقل من تحت

---

(١) مثل سائر معروف سبقت الإشارة إليه (المترجمة).

(٢) مثل سائر معروف (المترجمة).

الكرسي وأخذته إلى باحة الدار واستبدلت فحمه، ثمّ أتت وخمرت شاياً جديداً ووضعته أمام السيدة. نظفت سطح قرح صدرها، ثم ذهبت وأحضرت دلنواز من المدرسة، ولمّا تأكدت أنه لم يبق ثمّة عمل آخر وضعت ملاءتها على رأسها وأخذت تجري إلى دكان السيدة صديقة. كان الباب مغلقاً، فطرقته بقبضتها:

- ألا تريدون ضيوفاً؟

فتح طفل الباب، وكانت رائحة مرق اللحم بالخضار والحبوب وبول الطفل قد وصلت إلى أنفها.

- ماذا حدث يا سيدة صديقة حتى منعتِ دخول دكّانك؟

ظهرت عينان خضراوان، خضراوان ومخمورتان بأهداب غامقة مقلوبة وحاجبين دقيقين من خلف الستارة فوقعت في قلبها.

- أمي مريضة.

اتكأت زبيدة على إطار الباب، وأزيحت الستارة التي كانت تقسم الدكان نصفين. كانت السيدة صديقة تجلس في الفراش بوجه متورد من الحرارة وعينين ناعستين ومنديل حول حلقها.

- تفضلي مشهدية زبيدة، تفضلي!
- لا أصابك الله بمكروه.
- لن يصيب أسوأ من السيّىء.

ذهبت زبيدة وجلست إلى جوارها:

- لو أرسلتِ أحداً في طلبي لأتيت وطبخت لك الآش[1].

همست صدّيقة:

- حُيّيتِ يا بنتي.

ثم أسندت رأسها إلى المتكأ.

- لقد ضللتِ الطريق يا أختي!

جلست زبيدة:

- أتيت أسأل عن أحوالك.

ابتسمت السيدة صديقة بسخرية:

- لا تراوغي! قولي كلامك من الآخر، قولي إنّك أتيت للاستجداء ثانية!

تأوّهت زبيدة:

- أطال الله في عمرك! أرحتني من صياغة المقدمات، أعطيني ابنتكِ ودعيني أدعُ لك عمراً.

أرادت السيدة صديقة أن تتكلم، لكنها أخذت تسعل سعالاً طويلاً ومثيراً للشفقة، وأتى أطفالها الصغار والتصقوا بها. التصقت زبيدة بيدها:

- أفرحي قلبي يا امرأة لأدعو لك.

أخذت السيدة صديقة نفساً طويلاً، وأسندت رأسها لحظة إلى الجدار.

(١) نوع من الحساء مؤلف من حبوب وكشك وغيرهما (المترجمة).

- لا تكسري قلبي، أستحلفك بجدتك الزهراء لا تكسريه! انظري إلى عقدة حياتي كم هي عمياء، لقد أتيت بقدميّ بحثاً عن المصلحة.

نظرت إليها السيدة صديقة صامتة، وأنّت زبيدة:

- لقد أقسمت لك يا امرأة.

مدّت صديقة يدها وأنزلت عن الرفّ صحن شكر بنير وتمر.

-تعالي حلّي فمك.

قالت زبيدة بسرور:

- هل قبلتِ؟!

قطّبت صدّيقة حاجبيها.

- لا تلحّي بلا فائدة يا أختي، والدها، الذي هو في الداخل، ليس بشراً لأتصرّف معه حسب المنفعة؛ هي أيضاً بلحة فجّة، الآن أنا وبعقلي الناقص الذي يصرخ قد أتيتِ وسلّمتها ليد الضرّة والضرّة لم تتفق معها، حينها أي تراب ستنثرينه على رأسك يا امرأة؟ ولا سيّما إن حملت أيضاً.

انحنت زبيدة وألصقت جبينها بيديها الاثنتين:

- أعدك بجدتك الزهراء أن أخدمها، دعي مصباح بيتي يضيء، وانظري ماذا سأفعل لأجلها.

أخذ كتفاها يرتعشان، ووضعت رأسها في ذيل ثوبها وأخذت تنتحب، من أين كان يأتي هذا الدمع؟ أهذه قطعة من تمزّق الروح؟

قبضت السيدة صديقة على كتفيها العظميتين وأنهضتها:

- ياحورية... عزيزتي حورية!

دخلت حورية بجديلتي شعر وعينين ممتلئتين بالغزل:

- تعالي هنا، تعالي يا ابنتي!

جلست البنت على ركبتيها إلى جوار فراش أمها، وأمسكت السيدة صديقة يدها ووضعتها في يد زبيدة.

- تعالي، لقد سلمتها لك؛ لله أولاً ثم لك، فقط خافي تأوهي لو علمت أنك آذيتها قدر رأس إبرة، سأنادي بحيث أمحو قومك من الوجود.

وضعت زبيدة يدها حول عنقها وقبّلت جبهتها.

- أنا صغيرتك يا أختي! اطمئني، سأضعها في بؤبؤ عيني.

أخذت السيدة صديقة تسعل ثانية، فامتدّ ساعد يد غضة وكأس ماء فخارية، نظرت زبيدة إلى عيني البنت الخضراوين:

- الماء الذي يأتي بلا طلب مراد، تعالي واشربي!

أدنت الكأس من شفتي المرأة الجافتين وشربت هي الأخرى أيضاً جرعة. كان الأطفال لا يزالون ملتصقين بأمهم، وكانت قد طأطأت رأسها، فاتجهت نحوها:

- إلهي يصيبك الخير في عمرك أنك لم تقولي لا.

قالت هذا وأدارت وعاء الشكر بنير والتمر.

- كلوا يا أكلة الحلوى، كلوا!

كذلك، وقد امتلأت عيناها بهالة من الدمع، أخذت هي أيضاً تمرة ووضعتها في فمها.

* * *

في بيت أحمد عليخان أقيمت روضة[1] أول الشهر. كانت الغرفة ذات الأبواب الخمسة ممتلئة بالنساء اللواتي كنّ يرتدين الملاءات، وكنّ يبعدن وعاء الدمع جانباً من أمام أعينهن بعد ذهاب كل واحد من الرجال، وكنّ قد أزحن الملاءات إلى الخلف واختلطن بعضهن ببعض بحميمية.

_ إنها ابنة زينة الملوك ها!

- آه، يا إلهي، إنها كالماسورة، فلِمَ كانت تفتخر زينة إلى هذا الحد بشكلها ومنظرها؟

- لقد كانت تروّج لها؛ " لن أعطيها لأي أحد ". بالتأكيد كانت تريد أن تصنع منها مخللاً.

- آه! بالوصف الذي كانت تصفه في ختم الأنعام في بيت آفاق السلطنة، لم يبق إلا القليل لألبس الملاءة والـ " تشاقتشور "[2] وأذهب لخطبتها.

---

(١) ما يقرأ في عزاء أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيّما الحسين (المترجمة).

(٢) سروال عريض طويل وجوارب متصلة به كانت النساء يرتدينه في الماضي مع الملاءة (المترجمة).

كانت أشرف السادات قد جلست عند بساط السماور وأخذت تصبّ الشاي. لم يكن في محيط الغرفة ثمّة مكان لرأس إبرة، وكان قد اختلط صوت بكاء الأطفال وصخبهم مع أصوات النساء. كانت السيّدة صنم قد جلست في صدر المجلس، وبعد ختم كل جلسة كانت تتجه إلى الجمع وتقول ملتمسة:

- أطلب منك الدعاء يا حاجّة، آفاق زمان، مليحة بانو! أستحلفكما بالله أن تدعوا لابنتي الشابة! لا تعرفان كم يحترق قلبي! ادعين ربما تشفى ببركة أنفاسِكنّ. ثمّ كانت تسحب الملاءة على وجهها وتقرأ وهي تنوح:

- " لقد أضعت وردة وأنا أبحث عنها...إني أشمّ رائحتها في كلّ وردة أصل إليها ".

ولمّا كانت تخرّش وجهها بأصابعها، كنّ يمسكن يديها.

- دعي قلبك عند قلب زينب المكسور، لا تصدري ضجيجاً إلى هذا الحدّ يا امرأة، إن الله يغضب!

لمّا انتهى المجلس، ذهبت من ليست قريبة وبقيت المقرّبات. ألقين الحطب في جانب باحة الدار، ووضعن القدر على الموقد. كان غسل أكواب الشاي وصحونها مصحوباً بالصخب والضجيج والضحك، لكن لمّا حلّ الليل خيّم السكون مرّة أخرى، وعلا صوت تنفّس البنات الثقيل، اللواتي نمن بعضهن إلى جانب بعض إلى جوار كرسي النار. أتى أحمد عليخان متأخراً أكثر من المعتاد، وصاح لماذا المصباح ذو القاعدة العالية بقي مضاءً:

- كأنّ لا أحد في هذا البيت، أين انتباهك؟ لو كانوا قد كسروا زجاجه فماذا كنت سأقول ليار مهدي صاحب الأواني؟

توهجت السيّدة صنم وهي تنظر نحوه:

- حسناً، حسناً. مادام لم يصدر عنك صوت فلا تتدخل! على الأقل قل سلمت يداكِ ثمّ أرعد وأزبد.

قال أحمد عليخان لا إله إلا الله، ثم استبدل ملابسه وأخذ وسادته وغطاءه وذهب إلى غرفة الأبواب الخمسة لينام دون أن يتناول عشاءه.

كان النوم قد طار من عيني السيّدة صنم، وكانت عروقها مشدودة، فنهضت وجهزت النارجيلة وجلست على عتبة الغرفة وأزاحت الستارة التي كانت تغطي النافذة. كان نور القمر يعبر بين أغصان شجرة الرمان اليابسة وينشر النورعلى جليد البركة الذي كان اللوح الخشبي الضخم الموضوع فوقه قد انكسر.

أخذت نَفَساً من أنبوب الخرطوم وتساقطت دموعها بهدوء.

- دل... نواز! دل... نواز!

كان هذا صوت السيّدة الصغرى المخنوق والمتعب، التي كانت تتغنى باسم دلنواز؛ في البداية بهدوء، ثم بصوت عال بحيث إنّ البنات تقلّبن وبدأن بالأنين، إلى متى بقيت مستيقظة؟! حتى تمزقت حنجرة الديك الحمراء، وخمد احمرار نار النرجيلة في الرماد؟

نهضت وصلّت، ولمّا سلّمت من صلاتها ذهبت واستلقت إلى جوار أصغر بناتها وأسلمت تعب جسدها؛ إلى دفء كرسي النار المسبب للارتخاء. فتحت عينيها على صوت أحمد عليخان الذي كان قد ذهب إلى غرفة المخزن وانشغل بتبديل ملابسه. كانت تنتظر ليغلق الرجل باب الدار خلفه وهي

نصف نائمة ونصف مستيقظة؛ لماذا صباحاً بهذه السرعة؟ قفزت من مكانها، وأخذت جوربيها اللذين كانت قد وضعتهما داخل بعضهما من تحت رأسها ولبستهما، لبست السترة المشغولة يدوياً فوق ثوبها، ووضعت الملاءة وغطاء الوجه وخرجت تعدو. عثرت على ظله وهي تلهث في انحناء حي " صفر القصاب " الطويل، إلى أين كان يذهب؟ لو لم يكن يبيّت أمراً لِمَ خرج بهذه السرعة صباحاً؟ إلى بيت عمته؟ لماذا إذاً مر من أمام بيتها؟ إلى دكان الأقمشة؟ أكان من المقرر أن يكون ماء الدكان وكنسها بعهدته أيضاً؟

مرّ أحمد عليخان من عرض شارع إسماعيل البزاز، ووقفت المرأة في ميلة أحد البيوت، ووجهها إلى الشارع وظهرها إلى الباب، وأخذت تراقبه من تحت شبكة غطاء الوجه الناعمة.

سار أحمد عليخان إلى مدخل دكان خباز الـ " سنگک "، وبعد دقائق عدّة عاد وهو يفصل بأطراف أصابعه الحجارة الملتصقة بالخبز. استدارت السيّدة صنم إلى الطرف، وبلا إرادة قبضت على حلقة الباب " يا فاطمة الزهراء! ألن يفتح أحد من أهل الدار الباب؟... يا علي! قد يعرفني من الخلف". بعد ثوان عدّة أدارت وجهها بهدوء، وكان الرجل قد وصل إلى تحت شجرة الدلب المعمّرة، ثمّ مرّ من تحت ميلة الباب وذهب نحوه بهدوء. دخل أحمد عليخان البيت. اختفى أحمد عليخان خلف الباب وهو يدخل الممرّ من الجهة المقابلة. شعرت السيّدة صنم بالدوار وجلست، قال أحد المارّة:

- هل حدث شيء يا أختي؟

سحبت نفسها إلى الأعلى بصعوبة وقالت:

- لا.

سارت إلى منتصف الزقاق ويدها على الجدار، ثم دخلت زقاقاً آخر، وزقاقاً آخر، ووصلت إلى " ميدان چاله "، وعادت ثانية وسارت في شارع إسماعيل البزاز. كانت تنقل قدميها أسرع إلى أن وصلت إلى زقاق صفر القصاب ووسط الحي. كان الباب الخشبي القديم أزرق اللون قد بقي مغلقاً. كان يجب أن تصرخ وتخبر العالم والبشر. تذكّرت همسات المرأة المعلمة ووشوشات نساء الجيران. إذاً... في الحقيقة كانت ثمّة أمور، كانت إحدى المعارف تأتي من الجهة المقابلة لها، فطأطأت رأسها وحثّت خطاها، إذ كان يجب أن تعود إلى البيت. كانت الغصة تضغط على حلقها، وكان الدمع قد بلّل الشبكة الرقيقة لغطاء الوجه.

- سأقتله... سأهتك ستره... سأبيد أسرته.

دخلت البيت، وكانت أصغر بناتها قد استيقظت. راحت تبكي طوال المدة التي كانت تصنع فيها الخبز الغازي للبنات، فلم ينقطع دمعها، وعلى هذا الانتحاب الخفيف كان صوت السيّدة الصغرى المتعب والمخنوق يضرب:

- دل... ن... و... از... دل... ن... و... از

نهضت ووصلت إلى السطح عن طريق الدرج، ثمّ انحنت على جدار بيت الجيران ونادت:

- أشرف السادات... أشرف السادات!

أتت المرأة مضطربة إلى باحة الدار، وسألت وهي تشير بيدها:

- ماذا حدث في الصباح الباكر؟

قالت السيّدة صنم وقد أخذت تبكي فجأة:

- تعالي لحظة!

سلّمت البنات إليها وسارت. لا! لا قدرة لها على البقاء، فقد كانت تريد أن تذهب إلى أمام بيت العمة وتثير جَلَبة لا نهاية لها، لكن أشرف السادات قالت:

- تأكدي يا أختي ثم اذهبي واقلبي الدنيا! البهتان بلا أساس فيه معصية.

لكن، لم تكن لديها قدرة على البقاء، وكان يجب أن تذهب وتفرغ ألم قلبها، ليس هنا؛ بل في مكان آخر. كان ثمّة طريق طويل جداً من إسماعيل البزاز حتى مختاري شاهبور، وقد وصلت إلى هناك ماشية وراكبة. لمّا وصلت إلى أمام " صيدلية ماه " نزلت من العربة، وكانت مبللة بالعرق على الرغم من أن الجو كان بارداً والريح تحمل فقاعات الثلج عن الأرض وتضربها بوجهها. لمّا وصلت إلى زقاق الأكاسيا أخذت نَفَساً جديداً وأمسكت حلقة باب بيت صهرها بيدها وقرعت مرّات عدّة، ولمّا فُتِحَ الباب استدارت عينا زبيدة تعجّباً.

- آه يا سيدتي العزيزة، السلام عليكم، عجباً أنك تذكرتِنا، " أتت الريح وأحضرت رائحة العنبر "، تفضّلي... تفضّلي إلى الداخل.

ضغطت السيّدة صنم على أسنانها:

- سلام وسمّ، ألم يكن عليك أن تأتي وتسألي عني؟ أيتها التعسة! كأنك كنتِ قد تملقتِ لهم تماماً هذه الأيام! لا يحتاج الأمر أن تأتي بدليل وبرهان، فلمّا طار طائر الحظّ عن رأس ابنتي المسكينة وساء حظها أصبح الأمر مجازاً لك!

قالت زبيدة:

- أقسم بالله إني قد فكّرت في أن آتي وأسأل عنك.

قالت السيّدة صنم:

- ليس ضرورياً، فأنتِ أيضاً كباقي البشر في هذا العالم الخَرِب. في كلّ الأحوال، أتيت اليوم لأتمّ الحجّة؛ فلو حصل مكروه لابنتي السيّدة الصغرى فسيكون دمها في عنق سادتك عديمي المروءة.

نظرت إليها زبيدة حائرة. ضربت السيّدة صنم بقبضتها على صدرها:

- إلهي، لا يسامح الله تلك العجوز التي زوجت ابنها واحدة أخرى وشرّدت ابنتي، وأسقطتها من عينه أيضاً.

أمسكت زبيدة يدها:

- إلهي، جُعِلْتُ فداء رأسك سيدتي العزيزة، لا تدعي هكذا أيضاً! إن أركان جسد سيدتي يتصدّع بعضها عن بعض.

قالت السيّدة صنم بصياح وعصبيّة أكثر:

- لجهنم، لتتصدّع، إلهي تعاني أكثر من هذا.

وفجأة تهدّج الصوت في حنجرتها:

- إلهي، لا تجعل ذئبة الصحراء أماً أيضاً، لقد عجزت قدماي، لم يحدث أن جئت إلى هنا، إن نهضت وجئت فلأجل ابنتي التي كانت تئنّ من الليل إلى الصبح تريد ابنتها. أخبري سيدك أن يأتي وينهي أمر امرأته المسكينة، أخبريه أنه لا يرضي الله أن يتركها هكذا لا يُعْلَم أمرها. قولي له: صحيح أنك ذهبت وأحضرت لها ضرّة، لكن لا تزال امرأتك الشرعية ولها حقّ في عنقك. أخبريه: يقولون إنهم حديثاً قد أنشؤوا مكاناً يدخله المرضى من هذا الباب ويخرجون معافين من ذاك الباب. أخبريه: لو أني وزوجي وضعنا يداً على يد، فلأنك لاتزال أنت صاحب القرار في أمرها ويجب أن توافق على أخذها.

وضعت يدها على قلبها وانحنت على المصطبة أمام الباب، فركضت زبيدة وعادت بكأس ماء مذاب فيه القند، فأزاحت السيّدة صنم يدها وقالت:

- إلهي، من خطّط لتشرّد ابنتي لا يمضي عام عليه حتى يغدو مشرداً.

ثمّ أخذ نفسها يحشرج:

- لا تعلمين كم يحترق قلبي يا زبيدة، لا ليل لي ولا نهار، طوبى لك أنك عاقر وقلبك خال من ثقل هذه المصائب كلها، ليته لم يكن لدي أولاد، لم يكن لدي، لم يكن لدي.

لكن، بعد دقائق عدّة كان قد خلا مكان السيّدة صنم على المصطبة، وكانت زبيدة قد اتكأت على إطار الباب وقلبها يضطرب، ليس لأجل امتلاكها الولد، بل لعدم امتلاكه.

* * *

على شرفات الأسطح، من خلف النوافذ وأمام الأبواب المطلّة على زقاق الأكاسيا كانت جمهرة المشاهدين يقفون ويمدّون رؤوسهم. كان ميرزا أبو تراب يتكلّم مع مسؤول العمال المنهمكين في نصب أعمدة الكهرباء الخشبية، فبعد أيّام عدّة من الثلج والمطر كان لون السماء أزرق فيروزياً، وكان ثمّة نسيم خفيف يحرّك بقعاً عدّة من الغيم القطنيّ، ولم يكن هناك أفضل من هذا اليوم لبدء العمل.

- نشكر الله مئة مرة أن هذه النعمة قد وصلت في النهاية إلى حينا لنرتاح من شرّ المصابيح المدخّنة ومصابيح الكيروسين، وإلا كنّا سنغمض أعيننا ونرى أبناءنا قد أصبحوا ضعاف البصر ويضعون النظارات مثلنا.

مرّت زبيدة ومنقل الحرمل في يدها من أمام امرأة كانت منهمكة بالحديث مع نساء أخريات، وتركت وراءها هالة من الدخان.

وضع المشهديّ أسد الله، دون الاهتمام بالتماس دلنواز، السكين على حلق الخروف الذي كان يحدّق أمامه بعينين ملتمسّتين، وكان يبعبع كل ثانية. سحب السكين، وكانت ثمّة يد تدير وعاء النُقْل أمام الجماعة:

- على جمال نور الله الذي لا مثيل له... خاتم الأنبياء... محمد المصطفى صلوات.

وعلا صوت الصلوات من الأرض والجو.

انتصب العمود الخشبي مستقيماً محكماً، وكان الأطفال قد وضعوا أيديهم فوق أعينهم لرؤية ارتفاعه.

- صلوا على النبي ثانية من أجل سلامة ميرزا أبي تراب الذي أنارت هذه المحلّة بهمته.

- الّـ...

سحبت دلنواز نفسها من وسط الجمع وأمسكت بيد والدها. كانت رائحة عطر الحرمل الجميلة تملأ المكان، وكان الرجال يجدّون لرفع العمود الخشبي الثاني، وانشغلت النساء والأطفال بالتقدّم إلى الأمام والمشاهدة على نحو أفضل، لكن بعد ساعة ذهب العمّال ولم يعد ثمّة أثر للصخب أوالضوضاء ولا لعطر الحرمل ولا لدوران وعاء النقل على الأيدي، فقط كان المشهدي أسد الله يصبّ دلواً في إثر دلو من ماء النهر على الدم المتجمد على رصيف الحي، وكانت زبيدة قد وضعت قطعاً من لحم الخروف الضحية في صينية كبيرة وحملتها مع دلنواز إلى بيوت الجيران، ولمّا وزّعتا آخر قطعة عادتا إلى البيت. لمّا وقعت عين السيّدة الأمّ على زبيدة قالت:

- تعالي يا زبيدة، تعالي وضعي كؤوس الحجامة على ظهري، فربّما كان هذا الألم من الريح التي تدور داخل جسدي.

عقدت زبيدة طرفي الملاءة خلف عنقها، وذهبت إلى المطبخ وأحضرت كأساً، وبللت قطعة قطن بالكحول. كانت قد أشعلت عود ثقاب، ووضعته في الكأس وقلبتها على ظهر السيّدة الأمّ التي كانت قد وضعت رأسها على حافة كرسي النار. نظرت دلنواز إلى الشعلة الزرقاء التي كانت تتعالى وتخمد في انكسارات الكأس وتموجاتها. ظهر ميرزا أبو تراب عند محور الباب، فتجهّم وجهه:

- لا أصابك الله بمكروه يا أمي!

قالت السيّدة الأمّ:

- " لقد ألقى الحبيب خيطاً حول عنقي... "

جلس أبو تراب إلى جوار الكرسي، وأجلس دلنواز إلى جانبه:

- من الواجب أن نذهب اليوم لزيارة شاه عبد العظيم(1).

هزت السيدة رأسها:

- لا يا بنيّ، ليس لي قوة لأخطو خطوتين.

ألحّ ميرزا أبو تراب.

- الليلة ليلة الجمعة، نذهب إلى شاه عبد العظيم، ثمّ إلى " باغ طوطي "(2) أيضاً، كما نمضي الليل في مقبرة " حاج دابي " ونقرأ دعاء كميل.

ضربت دلنواز يديها، إحداهما بالأخرى، وقالت السيّدة الأمّ:

- يا بنيّ! أنا أوشك أن أموت، فَلِمَ تسحبني هنا وهناك؟ ارمني بعيداً وتنفّس.

عبس ميرزا:

- لقد عُدْتِ إلى الحديث عن اليأس يا أمي؟ إن شاء الله ستعيشين مئة وعشرين سنة. أريد أن أذهب غداً من أجل تذكرتك، تحتاج فقط إلى أيام عدة. سأرافقك حتى قصر شيرين، وبعد ذلك أيضاً سأسلّمك ليد "الحاج علي نقلي " ليمرّرك، إنه يأخذ قافلة كلّ سنة مرتين، موعد إحداهما هذه الأيام. تأوهت السيّدة الأمّ:

---

(1) من كبار العلماء والمحدثين الشيعة وأحد أصحاب الأئمة الرضا والجواد والهادي. توفي بالري عام ٢٥٥ هـ ودفن فيها (المترجمة).

(2) مقبرة تقع في الضلع الغربي لحرم شاه عبد العظيم، دفن فيها الكثير من المشاهير (المترجمة).

- جعلك الله عجوزاً يا بنيّ، لكن " كُسِر ذلك الزِقّ وانسكب ذلك المكيال ". مرّت تلك الأيام التي كنت أملك فيها الروح، وكان السير لديّ كشرب الماء، أنا الآن أستعدّ لسفر الآخرة.

حملت الريح إلى المسامع أنين بوم، وقالت السيدة:

- وصل الشاهد من الغيب.

أخذ ميرزا كوب الشاي الذي وضعته زبيدة أمامه وقال:

- زبيدة، قولي للمشهدي أن يستعدّ، سنذهب الليلة إلى شاه عبد العظيم.

قالت دلنواز:

- هل سنشتري أيضاً قجّة فخاريّة ووقوق صاحاب؟[1].

ضحك ميرزا:

- سنشتري للسيدة فشفشة بالتأكيد.

كان وقت الغروب حين ساروا، وكانت تهبّ برودة لاسعة، وكان لسير الشمس الصفراء أثر في مناقير الغربان.

كان ميرزا أبو تراب قد ارتدى بدلة سوداء ووضع شالاً وقبعة ووقف وسط باحة الدار. كان ينظر إلى الهرة السوداء بأكملها، التي كانت تمدّ يدها إلى فضلات الحيوانات المبتلّة حول البركة.

---

(١) لعبة صغيرة متداولة منذ عهد القاجارية، مؤلفة من كرتونتين تتصلان بورقة في شكل أسطوانة بداخلها أحجار صغيرة، وحين تقترب القاعدتان من بعضهما يصدر صوت كصوت البط (المترجمة).

سارت السيّدة الأمّ بمساعدة زبيدة إلى باحة الدار، وتراجعت إلى الخلف وقالت:

- وا! بسم الله!

قالت زبيدة:

- لا تخافي يا سيدتي العزيزة، بست يا ملعونة الأب.

كانت الهرّة قد شخرت دون أن تتحرك ولعقت يديها.

ارتعشت السيدة:

- انظري كيف تنظر!

أخذ ميرزا قطعة من طين الحديقة وألقاها نحو الهرّة.

- سأقول للمشهدي أن يضعها غداً في كيس، ويأخذها إلى الخارج.

قالت دلنواز:

- ستجد طريقها إلى بيتنا من النجوم، مثل تلك المرة التي كانت قد ولدت فيها.

قال ميرزا:

- ستخطئ، سأقول لميرزا أن يخفيها بشكل نرتاح فيه من شرّها إلى الأبد.

اتكأت السيّدة الأمّ على ساعده، ثمّ خرجت من باب الدار وهمست في أذنه:

- وذاك الجمل الذي نام أمام هذا الباب هذه الأيام كيف ستخفيه يا ولدي؟

ساعدها ميرزا لتركب العربة دون أن يجيب، ثمّ اتّجه إلى زبيدة:

- أين السيدة إذاً؟

- السيدة؟!

- نعم، السيدة.

أطلّت زبيدة برأسها إلى باحة الدار ورقّقت صوتها:

- أتت!!

ركبت دلنواز العربة، وجلست على كرسيّ صغير وظهرها إلى المشهدي. كانت في يدها وردة حمراء؛ قانية. قالت السيّدة الأمّ:

- يا بنتي! كيف طاوعك قلبك على قطفها؟

قالت دلنواز:

- كانت جميلة جداً.

وقفت ماه منظر، وغطاء وجهها مرفوع وقد تبرّجت بمساحيق سميكة، على حافة النهر ومدّت يدها نحو ميرزا:

- ألا تساعدني؟

قال ميرزا بصوت منخفض:

- غطي وجهك!

وأخذ يدها وأركبها في العربة.

بعد ربع ساعة مرّوا أمام آستانسيه، وانعطفوا إلى شارع شوش، وقطعوا الطريق الذي كان يفضي إلى شاه عبد العظيم. كانت الريح تلعب بعرفي الحصانين، وكان يُسْمَع صوت ضربات حوافرهما، ولمّا مروا من أمام كوره بزخانه(١) لحقتهم ثلّة من الأولاد الحفاة.

- قِران يا حاج... قِران يا حاج.

نثر ميرزا أبو تراب قبضة من القرانات في الهواء، وتدحرج الأولاد بعضهم فوق بعض على التراب.

ظهرت قبّة ومآذن من بعيد، وقد نفد صبر دلنواز لرؤية عشّ اللقالق. سحب المشهدي لجامي الحصانين وقال:

- لا يمكن التقدّم أكثر من هذا.

نزل ميرزا أبو تراب، وساعد السيّدة الأمّ وماه منظر ودلنواز أيضاً لتنزلن. التفت إلى المشهدي وقال:

- حتى ساعة أخرى.

عبروا أزقّة ملتفّة عدّة، وخطوا إلى مدخل السوق. كان لمعان الأساور المصنوعة من المرايا، ومخمل النوم واليقظة ولباس العرائس، وتراقص أنوار السبحات ذات مئة الحبة ، والجرار الفخارية والسماورات والأباريق القصديرية أول الأشياء التي أخذت عيني دلنواز في زيارة. أمسك ميرزا أبو

(١) مكان تعدّ فيه لوازم البناء كالآجر والجص والقيشاني وغيرها (المترجمة).

تراب تحت ساعد أمه وكان يتقدّم بهدوء، وكانت تسير خلفهم ماه منظر بغطاء وجهها المسدل والحذاء ذي الكعب العالي، وقد لفتها منظر الأقمشة الذهبيّة والمخمل المورّد والأقراط والعقود الأصليّة والمزيّفة. ولّما عادت إلى نفسها، كانت بين السماء والأرض. وبالصرخة العالية التي أطلقتها، حاولت أن تعلّق يدها في مكان ما، لكن حين اصطدمت بالأرض أطلقت صرخة أعلى، ومن شدّة الألم أغلقت عينيها. التفت ميرزا تزامناً مع صراخ ماه منظر وصياح دلنواز، وقال يا حسين، وأسرع نحو الحفرة الكبيرة التي كان الناس قد اجتمعوا حولها وأخذوا يمدّون رؤوسهم. ركض ونظر، كانت ماه منظر قد سقطت في عمق الحفرة وكانت تئنّ، فنزع ميرزا معطفه وقفز إلى الأسفل.

كانت ماه منظر تلهث:

- طفلي... طفلي.

التصقت دلنواز بالسيّدة الأمّ بعيداً عن حلقة الناس، التي كان يتسع قطرها لحظة في إثر لحظة، وكانت تسمع أنفاسها المتقطعة، فقد كانت تنادي السيد الكريم، كم طال الوقت حتى أخرج ميرزا أبو تراب ماه منظر على يده من الحفرة وأعادها إلى العربة!

كان المشهدي أسد الله قد سمع القصة على نحو مبهم على لسان دلنواز. ضرب بيده على رأسه:

- يا للمصيبة!

كانت ماه منظر قد لفّت ملاءتها حولها وراحت تردّد:

- طفلي!

كانت السيّدة الأمّ قد أخذت يدها بيدها، وكانت تقول:

- لا تهوّلي الأمور يا امرأة! لم يحدث شيء.

رفع المشهدي أسد الله السوط في الهواء ونزل به على ظهري الحصانين، فتحرّك الحصانان الأسودان وهما يلهثان، وحرّكا المسافرين الذين كانوا كالزبدية الخزفية المكسورة. كان الفانوس الأحمر وسط العربة يترك أثراً أحمر، وكان القمر شاحب اللون قد أخذ يراقب علامة الاضطراب هذه.

* * *

علمت مرواريد وجواهر بحال ماه منظر وما جرى لها، فأتتا لزيارتها وجلستا إلى جانبيها.

- في النهاية عملوا عملهم؟ لتفقأ عينهم الحسود! ذهب الولد الجميل ذو الغرة الذهبية منك؟ لا سامحهم الله! لا تهتمي يا بنتي العزيزة. قولي بسم الله من جديد! حينما يسخن التنور ألصقي الخبز، إن شاء الله هذه المرّة صبيّ.

أتتا ومكثتا، وكانتا تتحرّكان بين يدي زبيدة وقدميها. صنعتا الكاتشى والمعجون والقاهوت وأحدثتا فوضى في المطبخ.

تجرّعت دم قلبها ولم تقل شيئاً. لكن في أحد الأيام استغلّتا غيابها وحضّرتا الغداء بنفسيهما؛ حينها ظهر وجهها القبيح وأثارت جلبة لا نهاية لها. وضعت إصبعها في حلق دلنواز؛ بالتأكيد أطعمتاها شيئاً، وطلبت إلى السيّدة الأمّ أن تنهي الأمر معهما.

في النهاية ذهبت الاثنتان بأعين باكية، وتركت ماه منظر الجلوس إلى جانب كرسي النار ورحلت إلى الغرفة العلويّة. في ذلك اليوم، قالت السيّدة الأمّ بحشرجة:

- يازبيدة! خفّفي من التزمّت... دعي صباحات عدّة تمضي أولاً لنرى ما سيحدث.

ضربت يداً على يد:

- كل ذلك من آه تلك المرأة وأنينها؛ فقد أتت إلى باب البيت وصاحت وذهبت. يجب أن أقول لميرزا أن يذهب ويمسك بيد زوجته ويأخذها إلى المصحّ.

الآن أمها وأبوها يريدان ذلك، يجب أن ينزل عند رغبتهما. لا أريد أن يلاحق دعاؤهما ولدي.

نظرت زبيدة إلى دلنواز التي كانت تحدق إلى كلتا الاثنتين، وقالت:

-جُعِلْتُ فداء فمك يا سيدتي! فكرة جيدة.

ثمّ تذكّرت حبّة الماس الموجودة في الغرفة الصغيرة خلف دكّان صدّيقة. يجب أن تذهب وتحضرها هدية لزوجها.

- سيدتي العزيزة، هل تأتي لنذهب ونزور صدّيقة؟

هزّت السيدة رأسها:

- في البداية لفّي بقجة الحمّام الخاصة بي، ثمّ اذهبي وخذي رقماً خاصاً.

نهضت زبيدة مسرورة من مكانها:

- جزاكِ الله خيراً يا سيدتي.

قالت دلنواز:

- سآتي أنا أيضاً.

تجهّم وجه السيّدة الأمّ:

- لا يا عزيزتي، ستصابين بالبرد، يوجد متسع من الوقت ليمضي على حمّامك خمسة عشر يوماً.

انزعجت دلنواز؛ وجدت حجّة فبكت، لكنّ السيدة لم تكن مستعدّة لتقول لها " لِيَكُن ".

ألصقت دلنواز وجهها بالجدار، لكن رأت بطرف عينها أنّ زبيدة أغلقت بقجة الحمام وأمسكت السيّدة الأمّ من تحت إبطها وأخرجتها. لمّا أصبحت وحدها نهضت، مسحت وجهها بيدها وأخذت حقيبتها الملأى بالدفاتر والكتب ومأكولات الأطفال وذهبت إلى باحة الدار.

أمسكت بالدرابزين وصعدت الدرج، مرّت من الإيوان ونظرت من خلف الستارة المزاحة؛ نظرت إلى داخل الغرفة فرأت ماه منظر ببلوز أزرق فضي وتنورة كلوش سوداء، كانت تقف إلى جانب المدفأة وتلون حول شفتيها بلون غامق.

- سلام ماما!

التفتت ماه منظر إليها:

-نعم؛ نعم لم أفهم، منذ متى إلى الآن كان لي دبّة مثلك ولا خبر لديّ؟

ألصقت دلنواز كتفها بالجدار وقلبت شفتها وحدّقت إلى القلادة المعلّقة في عنقها بشريط أسود، ألم تكن تفوح منها رائحة الياسمين؟

تقدّمت ماه منظر:

- ماذا حدث حتى جحظت عيناكِ وأخذتِ تحدقيني؟ لقد ذهبوا وغربوا وتركوا لي خفّهم؟

تراجعت دلنواز إلى الخلف وخرجت من الباب، ثمّ هبطت السلّم جرياً، وعبرت باحة الدار حتى وصلت إلى كرسي النار في غرفة الجلوس. إلى أن عادتا، وضعت اللحاف على رأسها وسمّرت نظرها إلى الرماد الذي كان يغطّي جمرات نار المنقل.

" أريد أمي... أريد أمي... "

كانت تستطيع أن تبكي وتقول، ولا تخجل أيضاً.

* * *

لم تسمح السيّدة الأمّ أن تأخذ زبيدة البقجة، التي كانت تحملها بيدها، تحت إبطها:

- أحضرها... أحضرها بنفسي .

وأضافت بآهة:

- الإنسان يسيّر في عمره مرتين كالأطفال، مرّة في أول العمر والمرة الثانية في آخره.

كانت الملاءة الكريب السميكة الكمرية، والحذاء الليلي، والثوب الصوفي المزموم الذي يظهر تموجه من تحت الملاءة؛ يدل على أن الذهاب كان إلى مكان ليس حميمياً إلى درجة كبيرة، لكن لم تكن قد تقدّمت خطوات عدّة بعد حتى توقفت واتكأت على الجدار.

- لم يعد في قدمي روح يا زبيدة، قلبي يحدثني أن هذه هي المرة الأخيرة التي آتي فيها إلى الزقاق.

كان العرق يتصبب على جبينها، وكانت تتنفس بسرعة وصعوبة. أخذت زبيدة البقجة منها ووضعت يدها تحت ساعد سيدتها:

- ما هذا الكلام! أليس من المقرّر أن تزوجي السيّدة دلنواز ؟

سارت السيدة التي كانت قد أخذت نفساً من جديد:

- بهذا السرطان الذي أعجبه المقام على صدري؟

ساعدتها زبيدة لتمرّ عن جدول الماء:

- جُعِلْتُ فداكِ! السرطان سهل، لكن إن أصابت الأفعى إنساناً، فإن سمّها لن يؤثر ما لم يُرد الله.

كان العيد على الأبواب، وكان هناك صوت الماء الذي تسحبه البركة عالياً، وكانت ثمّة امرأة تنظف زجاج نافذة بيتها، ورجل قد نصب سجادة خشنة عنابية اللون فوق خشبة، ووسط الزقاق ظهر السيد رفقاء أمامها وهو

يضرب بعصاه، في حين كان هناك صبيّ يسيل مخاطه، خفّه ممزّق ويحمل قربة دبس على كتفه ويسير وراءها:

- السلام عليكم يا أمّ أبي تراب المعظّمة.

توقفت السيّدة الأمّ وأخذت نفساً جديداً:

- السلام عليكم.

" الشكر لله ألف مرّة أنك عُدت ثانية وقد ظفرت بمطلوبك "(١). الحمد لله أنّ التعب قد زال ثانية وزرنا سيدتنا العظيمة،هل تصدّقين أني منذ اليوم الذي سمعت فيه أنك متعبة كان طلب السلامة لك من أعتاب الذات الأحدية هو الدعاء الأول لي بعد كل صلاة؟ كنا جديرين، بإذن الله، واستجاب الحق تعالى لطلبنا.

- يا سيد! " ذاك الزقّ قد انكسر، وذاك المكيال قد انسكب ". هذه القطرات العديدة التي بقيت في القاع التي تعطي يديّ وقدميّ القوة ستتبخّر حتى أيّام عدّة أُخر والسلام.

هزّ رفقاء رأسه:

- عجباً! عجباً! أبعد الله البلاء، هل يمكنني أن أفعل شيئاً؟

- نحن انتهى أمرنا، لكن انتبه لابني ميرزا كروحك من بعدي.

صمتت قليلاً وأضافت:

- بالتأكيد؛ لو كان قد بقي شيء في قلبكم من محبّة الجوار.

---

(١) شطر بيت لحافظ الشيرازي (المترجمة).

نقل رفقاء العصا من هذه اليد إلى تلك اليد بارتباك.

- إنك تضربين بالعصا، بعيداً عن حقّ الجيرة فإن العبد متعلّق بجناب ميرزا أبي تراب تعلقاً خاصاً، بالتأكيد لو عدّني جديراً. أفيدكم أن...

ألقت السيّدة الأمّ نظرة إلى الولد الذي كان منحنياً تحت قربة الدبس وقالت:

- سيد رفقاء! هل تسمح أن أراك اليوم أو غداً ساعة؟ أريد أن أعطيك وصيّتي لتنظّمها.

وضع السيّد رفقاء يده على صدره، ونظر إلى زبيدة التي كانت تهزّ رأسها بأسف:

- على الرغم من أنّه يجب على كل مسلم كتابة الوصية، لكن أقول أطال الله عمرك، ولن أزعجك لأجل هذا الأمر، سأتشرف بزيارتك مع السيدة الوالدة لنأخذ ساعة من مجلس فيضك ونعيش ذكريات الماضي.

- تشرّفان.

ودّعته السيدة وسارت، ولمّا وصلتا أمام دكّان السيدة صدّيقة مدّت زبيدة يدها وأزاحت صفوف الحرمل المضمومة بالخيوط التي كانت قد علّقت أمام الباب حديثاً، وقد وصلت إلى مشامها رائحة قوية للسمك وإلية الغنم المذابة.

- لا أحد في البيت؟

أزيحت الستارة المسدلة في آخر الدكّان، وظهر وجه صدّيقة التي ذهب اللون من وجهها حين رؤية السيدة:

- يا ويلي... لِمَ لم تخبريني يا امرأة؟

ألقت قبضتها على وجهها وخرّشت وجنتها.

- يا لسوء حظي! لِمَ لم تقولي إنّ بصحبتك ضيفة؟

دارت حول نفسها في هذه الحال، وجمعت فوضى أولادها ورتبتها:

- لن يصبحوا بشراً، فكلّ ما أقوله لا يصلح حالهم، إلهي أصبح تراباً لقدميك يا سيدتي؛ تفضلي إلى الأعلى!

وضعت ثلاث وسائد بعضها فوق بعض وأسندتها إلى الجدار. طوت بطانيّة طبقتين ومدّتها أمامها، فجلست السيّدة الأمّ واستردّت أنفاسها:

- اجلسي يا امرأة! لا تؤذي نفسك، لقد أتينا لنتكلّم كلمتين ونذهب.

جلست السيدة صديقة، وبزاوية ذيل ثوبها مسحت أرضية صينية نحاسية صغيرة، وضعت فيها زوجاً من أكواب الشاي الروسية المغسولة وصبّت شاياً من الإبريق والغلاية التي كانت على الموقد، ووضعته أمام الضيفتين، بعد ذلك جلست على ركبتيها وقفلت كفّيها إحداهما بالأخرى على ذيل ثوبها.

- أبعد الله البلاء يا سيدتي العزيزة! كم أصبح لونك ووجهك أصفرين.

هزّت السيدة رأسها:

- إنّ سفينة عمري تسير إلى الساحل لترسو، إنّه وقت الترجّل. فقط اطلبي من جدّك الأطهر أن يشفع لي يوم القيامة.

قالت السيّدة صدّيقة:

- بعيداً عنك، بعيداً عنك، هل تسمعين أن عزرائيل يخطئ في أن يضع قدمه في بيتكم؟ نحن الفقراء من يجب أن نفدي أمثالكم بالموت.

انزلقت ملاءة السيدة الناعمة والثقيلة عن كتفيها، وظهر إيشاربها الرقيق ذو الرسوم والأشكال الجميلة.

- لا قدّر الله! إن شاء الله ستبقين حية وتعتنين بأولادك. لقد رأيت ابنتك الكبرى في الحمّام، إنها قارورة بلّور، غفر الله لك، لقد حان الوقت لتهتمي بأمرها.

نظرت إلى زبيدة التي كانت قد وضعت البقجة أمام قدمها، وكانت تلعب بالخيوط الذهبية المحيطة بها:

- أعطني إياها!

وضعت زبيدة البقجة أمام السيّدة الأمّ.

فتحت المشبك الذهبي الصغير وفتحت طرفي البقجة:

- ليست من قيمة ابنتك، أعلم أن زبيدة قد تجادلت معك في الموضوع من قبل لكن أتيتُ لآخذ الجواب المثبت وأذهب، فليست لديّ القدرة على المساومة.

حركت بيدها القماش؛ قطعة ملاءة صلاة حريرية مزهّرة، قطعة قماش ثوب ذهبيّ أحمر، زوج من الجوارب الشفافة، وقطعة من السكر المخروطي ملفوفة بورق شفاف كانت ملقاة أسفل البقجة بشكل مائل.

أخفت السيدة صدّيقة وجهها خلف يديها فجأة:

- ماذا أقول؟ إنها خادمتك. أنت صاحبة الأمر، خذيها... خذيها. على الأقلّ يوجد أمان هناك، فهنا يأتون ليلاً ويقرعون الباب. لاواحد... لا اثنين... عدّة، رجال لا غيرة لديهم؛ إما أنها غير موجودة، وإمّا تتظاهر بالصمم إن وجدت.

حدّقت السيّدة الأمّ إلى زهرية في شكل يد تمسك طاقة ورد بلاستيكي يعلوها الغبار داخلها، وكان صوت صراخ الأطفال الذين كانوا يدورون ويلعبون حول البركة يعلو، وصياحهم ينتقل من باحة الدار الصغيرة.

مسحت السيدة صدّيقة دمعها بذيل ثوبها، وألقت السيدة الأمّ نظرة إلى زبيدة التي كانت تحدق إلى الأرض، ثمّ التفتت إلى صاحبة البيت:

- الآن أين عروسنا؟

أعطت السيدة صديقة مشترياً كان قد دخل الدكّان طلبه وعادت. ذهبت إلى باحة الدار، وبعد عشر دقائق عادت مع البنت، كانت ترتدي ملاءة صلاة بيضاء رقيقة على رأسها، وبيدها صينية عليها كؤوس ملأى بشراب الليمون.

من فور دخولها وسلامها، وضعت السيدة صدّيقة قدمها خلف ملاءتها، فانزلقت الملاءة وسقطت. قامة طويلة، خصر نحيل، شعر كثيف منسدل حتى الركبة وعينا غزال. انحنت بسرعة ووضعت الصينية على الأرض، ثم سحبت الملاءة على رأسها وقدّمت الشراب. قالت السيّدة الأمّ:

- تبارك الله أحسن الخالقين!

ووضعت حبّة قند في فمها. جلست البنت وطأطأت رأسها وكان شلال من الشعر قد غطى نصف وجهها. قالت السيّدة الأمّ:

- حورية يا سيّدة! لقد تكلمنا في موضوع مع أمك، هل لديك علم؟

قالت البنت بنعومة وخفة:

- نعم.

مدّت السيّدة الأمّ يدها:

- إذاً أعطني يدك!

سلّمت البنت يداً باردة شاحبة اللون إلى يدها، فأمسكت السيّدة الأمّ يد زبيدة أيضاً وسلّمت إحدى اليدين إلى الأخرى:

- مثل أمّ وبنت، سواء أكنت أم لم أكن فإنّ الاحترام والمحبّة واجبان بينكما.

ارتعشت شفتا البنت:

- على عيني.

وصل إليهنّ صراخ الأطفال من باحة الدار:

- ماتت الأم... ماتت الأم.

التفتن أربعتهنّ إلى الصوت، وكان يمكن من طرف الباب نصف المفتوح رؤية السمكة الذهبيّة وقد سقطت على أرض الدار الترابية، وكانت تقفز إلى الأعلى والأسفل.

ركضت السيدة صدّيقة حافية القدمين إلى باحة الدار، وحملت السمكة ووضعتها في البركة، فانقلبت السمكة وطفت على سطح الماء، وفتحت فمها وأغلقته مرتين أو ثلاثاً وسمّرت عينيها إلى قبّة السماء.

نهضت السيّدة الأمّ من مكانها، وقالت وهي تلتفت إلى زبيدة:

- لنذهب!

* * *

لم يعرف أحد من جيران زقاق الأكاسيا لِمَ كان العرس الذي أقيم في بيت ميرزا أبي تراب صامتاً وساكناً وبارداً هكذا، فقط لي لي لي باردة... وانتهى؟ تلك أيضاً كانت من صدر زبيدة المبحوح المنقبض، وتحريك مجمرة الحرمل والسلام؟

صحيح أنّ بنت السيدة صدّيقة، جميلة العينين والحاجبين، التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها ، قد أصبحت امرأة لرجل متزوج في الخمسين من عمره، لكن في أيّ حال كان عرساً وليس مأتماً.

جواهر ومرواريد، اللتان كانتا قد صالحتا وأتتا لأجل أن تقفا إلى جانب العروس، كانتا قد جلستا في مكانهما بسبب تجهم زبيدة. كانت دلنواز ترتدي الثوب الساتان الأبيض نفسه الذي أحيط ذيله ورؤوس أكمامه بزكزاك أزرق في شكل سبعة وثمانية؛ الثوب نفسه الذي ارتدته في عرس ماه منظر، وكانت بقعة صفراء لاتزال تلقي بظلها عليه.

كانوا قد أجلسوا العروس على الكرسي وأمامها طاولة صغيرة ملأى بالفاكهة والحلوى. سخّنت السيدة رفقاء قعر الطبلة، التي كانت قد أحضرتها من بيتها، على مصباح الكيروسين وأخذت تضرب. وضعت حفيدتها آفاق قدح شاي على جبينها ورقصت، لكنّ القدح سقط وانكسر، أمّا زبيدة فقد طردت الجميع بسرعة كبيرة وأفرغت الغرفة بحجّة تسليم العروسين أحدهما إلى الآخر، ولمّا خرجت دلنواز برفقة السيّدة الأمّ من الغرفة رأت أن حورية نهضت لتخرج معهما، لكن زبيدة أمسكت بمعصم يدها بقوة وأجلستها في مكانها. بعد ساعة، لمّا نظرت من نافذة غرفة الجلوس إلى باحة الدار، رأت زبيدة، التي أغلقت الباب، قد جلست على كرسي في باحة الدار والفانوس يتراقص فتيله إلى جانبها.

* * *

خرج أحمد عليخان من الغرفة وسار إلى الباحة الخارجية فرأى أكواماً من الورق البالي والشوك والقش قد بقي من مطر الليلة الماضية. كان قد غطى فتحة البئر وسط الباحة، وكان الماء يغطي الحفر وسط الآجرّ. قال وهو يزيح الأوساخ جانباً بأطراف أصابعه:

- سيّدة صنم! أنا ذاهب، ألا تريدين شيئاً؟

أتى صوت المرأة من زاوية الغرفة:

- اذهب... اذهب... كالعادة البس بنطالك واذهب! على الرجل أن يحتمل سماع كلمة محاسبة. هل تظنّ أني لا أفهم أن أحوالك قد تحسنت؟ لقد قالوا عن القديم والنديم: إذا أصبح سروال الرجل اثنين... صاح أحمد عليخان:

- لا إله إلا الله... هل بدأت ثانية؟ سألتك عن شيء واحد ألا تريدين شيئاً؟ أجيبي أنتِ أيضاً بنعم أو لا، لِمَ ترمينني بكلام مزعج قبيح؟

علا صوت السيّدة صنم مرة أخرى:

- اذهب... لا تتشاجر! اذهب واغرب!

عبر أحمد عليخان الرواق وأغلق الباب خلفه بقوة. كانت ثمّة نساء عدّة قد جلسن أمام أبوابهن منذ الصباح، وكنّ يتحدّثن، فسحبن الملاءات على وجوههن وصمتن، سعل أحمد عليخان ومرّ.

كانت السيّدة صنم قد شعرت بشيء، وإلا لِمَ لم يشاركها منذ مدة في مائدة أو وسادة؟ لِمَ ينفخ ويتأفف دائماً؟ كان قد نصحها ليلة أمس: اخجلي يا امرأة! قبيح أن تعنفيني دائماً أمام أعين الطفلات، مهما يكن أنا والدهنّ، ينزعجن لأجلي، لكنها صرخت بغضب كالنمر:

- حسناً! حسناً! الأمر لا يحتاج إلى مراءاة؛ ما إن تذهب صباحاً وتعود ليلاً، وتقول كلمة " بابا " جافة فارغة فلن يحدث شيء، فبدلاً من هذا الهراء تلمّس مساوئك ومارس أبوّتك عليهن. فهنا ليس آستانسيه، ولا سكة الحديد، ولا باغ طوطي؛ هروب في الصباح عند الشروق والسلام عليكم آخر الليل، ألا تدرك أن هؤلاء البنات البريئات بشر، أحضرت السيّدة الصغرى التعسة إلى هنا أيضاً وقيّدتها بالسلسلة في هذه الزاوية، لا دواء ولا طبيب. اذهب فقط إلى تلك العجوز التي تساقطت أسنانها واجلس على قلبها، لا تفعل شيئاً، سآتي إلى باب بيتها وأثير فضيحة، ها!

كان الصمت أفضل طريقة لتهدئتها؛ نظر إلى الخلف ونقل قدميه بسرعة، ولمّا وصل أمام شجرة الدلب المعمرة نظر خلفه، وفتح الباب بكتفه، ألقى نظرة من تحت هلال الرواق، فرأى نيمتاج تجلس في الحديقة وتزرع ورد البنفسج. ضرب مصراعي الباب أحدهما بالآخر فقفزت نيمتاج من مكانها:

- يا ويلي، يا ويلي! تراب العالم فوق رأسي! ما من سعلة، عطسة، صوت.

سعل أحمد عليخان، ثمّ خلع حذاءه ودخل الغرفة. جلس أمام العمة التي كانت تجلس إلى خوان الفطور، وقبّل شعرها الأبيض الذي كان من دون غطاء.

- سلام يا عمة!

- سلام على وجهك الشبيه بالقمر يا أحمد عليخان العزيز، أهلاً وسهلاً يا عمة! إني ألفظ أنفاسي الأخيرة، كأن قطاراً يصفر داخل جمجمتي؛ كأن قطاراً يدور فيها دائماً، لا تتحدّث عن ألم القدمين أيضاً، ولا تسأل، أمان من الوحدة، أمان من عدم وجود أحد، لا جعل الله إنساناً آخر عمره بلا أحد ولا عمل!

اتكأ أحمد عليخان إلى الخلف:

- عمتي العزيزة! هنيئاً لك أنك وحدك، فلديك ألم واحد. انظري إلينا نحن الذين ازدحم حولنا وأطرافنا، لكن لدينا ألف ألم.

حدّقت المرأة العجوز بعينيها الزرقاوين الفاتحتين وقالت:

- العيد بعد أيّام عدّة، قلبي يشعر أنه آخر عيد أراه، لذا أريد أن أؤدي الدّين وأتخفف من ثقلي وأذهب.

- مثلاً؟

سحبت العمة نفسها على الأرض وأزاحت الستارة، وأخذت عن الرف صحن " خاتون بنجره "(١) ووضعته أمامه:

- كل يا عمّة! صنع الحورية التي اتخذت في تلك الناحية من الدار مأوى لها. يجب أن أوصيك بها مرّات عدّة، أن أقول بصراحة ووضوح: تزوجها زواجاً مؤقّتاً. لن يعرف ذلك أحد من البشر.

ضحك أحمد عليخان بخوف ولذّة:

- لم يحدث شيء بعد وبدأ طبل فضيحتنا يقرع، يا ويلي من الوقت الذي...

شنّفت العجوز أذنيها وحدقته، لكنها تمالكت نفسها بسرعة:

- لقد أخطؤوا، لقد ضلوا تماماً. تزوجها زواج متعة، إنها أفضل بكثير من امرأتك التي تنجب البنات.

تجهم وجه أحمد عليخان كمن شرب ماء سكر نبات حامضاً:

- ليس معلوماً أي حطب رطب باعته صنم لك؟

مرّرت العمة أمامه الصحن الصغير الذي كان يحتوي البقلاوة:

---

(١) نوع من الحلوى الجافة مؤلفة من الطحين والنشاء والبيض، تحمّر بالسمن بقوالب مشبّكة ويرشّ عليها السكر الناعم. (المترجمة).

- ليس لي! باعته لك، مسكين يا أخي، لقد سلّم ابنه الوحيد إلي.
قال: يا أختي! انتبهي لابني أحمد علي كروحك. قال: هذا ابني الذي سيرفع اسمي ولن يجفّف جذوري. من أين كان يعلم أنك ستأتي بامرأة تلد البنات؟ لِتُكْسَر هذه القدم التي بدلاً من أن تذهب إلى ابنة تاجر التبغ انحرفت عن مسيرها وذهبت إلى بيت يعقوب بائع القماش. ماذا فعل لك أبوها غير أنك أصبحت خادماً له عمراً بلا أجور ولا مستحقات وحرث على ظهرك؟ في النهاية وضع رأسه على الأرض ولم يوضح ما آل إليه دكانه. هه! كنت أتخيل أن البنت أميرة كأخيها، لم أكن أعلم أنهما من سنخين وجنسين مختلفين؛ أحدهما في الشرق والآخر في الغرب.

وضع أحمد عليخان قطعة بقلاوة في فمه وقال بضحكة:

- عمتي العزيزة! يجب أن تطبخي العشب في فمك ليصبح حلواً.

تجهمت المرأة العجوز:

- حسناً! حسناً! لا أريد أن تمثّل لي. امرأة لا قدرة لها على جعل زوجها أباً لأبناء ذكور لا تستحق شيئاً. لم يتأخر الوقت، تزوج هذه المرأة زواجاً مؤقّتاً والسلام، دعني أضع رأسي على الأرض ولا أذهب بلا جذور.

مدّ أحمد عليخان يده، وهذه المرة وضع خاتون بنجره في فمه. نفض مسحوق السكر الذي تناثر على بنطاله بطرف إصبعه وقال:

- الآن، هل سيدتك الحورية هذه، ترغب أيضاً في رميي في البئر؟

انفرجت أسارير العمة.

- لم لا؟ لقد تحدثت إليها بنفسي، إنها تتمنى. لم يحالفها الحظ من نصيبها الأول؛ في تمام الأربعين يوماً ظهر الرجل المحتال على حقيقته ورماها في الطريق. من جهة أخرى لامها أهلها وعشيرتها لأنّها طلّقت. حسناً، هل من المعصية أن تلقي بظلك على رأس هذه المسكينة والوحيدة لأدعو لك عمراً؟

قال أحمد عليخان:

- ماذا أفعل بلعنة وأنين تلك؟

ضربت العمة على قفصها الصدري:

- تلك عندي، تلك عندي.

التفت كلاهما على صوت طقطقة حذاء عند عتبة الباب.

كانت نيمتاج تقف وفي يدها زبدية خزفية زرقاء اللون، وتعلو شفتيها ابتسامة، وكانت تنظر إليهما. فاحت رائحة القرفة في الغرفة، فرفعت العمة رأسها وقالت:

- بارك الله! وسلمت يدك الوردة يا بنتي، انظر ماذا صنعت في الصباح الباكر! لهذه يقال امرأة.

دخلت نيمتاج وجلست، والتفتت العمة إلى أحمد عليخان:

- هذه الليلة يا سيّد، انهض وتعال هنا لتتمّ الأمر! سنة جديدة وزوجة جديدة.

وضحكت ضحكة صغيرة.

سحبت نيمتاج الملاءة على وجهها وقالت بصوت جميل:

- دعيه يتذوق طبخي أولاً، ليرى أيؤكل أم لا.

ابتسم أحمد عليخان:

- إحضار الملعقة عليك يا عمّة!

* * *

كانت ليلة الأربعاء الأخيرة من السنة، وكان زقاق الأكاسيا قائماً على قدم وساق، وكان الأطفال قد أشعلوا قطعاً من النار، والكبار والصغار يقفزون من فوقها:

- حمرتك مني، صفرتي منكِ

كانت دلنواز تقف عند السور، وكانت تسكب تسالي ليلة الأربعاء الأخيرة قبضة قبضة داخل الأواني النحاسية للصبيان والبنات، اللواتي أتين والملاءات على رؤوسهن إلى باب البيت من أجل حضور مراسم طرق الملاعق[1]. بعد الظهر، سكبت زبيدة ودلنواز المادة القلوية مع الخل في زوايا باحة الدار، ثم أشعلتا المفرقعات التي كانت على شكل أكواز وأقلام، وهذا ما جعل ماه منظر وحورية وآفاق ابنة رفقاء يصرخن ويصحن ويضحكن ويأتين إلى باحة الدار.

---

(١) عادة من عادات الأربعاء الأخير من السنة الشمسية إذ يتنكر الأولاد والشبّان ويذهبون إلى بيوت الأقارب، ويضربون بالملاعق على أوان يحملونها ويطلبون هدية ولاسيّما من المأكولات (المترجمة).

أحضروا السيّدة الأمّ أيضاً بعناء شديد ومشقة أمام الباب، لكنها لم تمكث أكثر من دقائق عدّة. ابتسمت ابتسامة شاحبة وعادت إلى الغرفة. ارتدت ماه منظر وحورية الملاءة بعيداً عن عينها وذهبتا مع ابنة رفقاء إلى الحي، وانشغلن بالحديث الحميمي مع نساء الجيران، كما قفزن عن النار أيضاً ضاحكات.

كانت شعلة النار لا تزال قائمة، وصوت طرق الملاعق والأواني النحاسية يعلو إلى أن وصل المشهدي وميرزا أبو تراب. حين ظهور ظلّ ميرزا ركضت ماه منظر وحورية إلى الدار، لكنّ دلنواز التي كانت تقف عند السياج لم تتحرك من مكانها. أعطى ميرزا زبيدة منديلاً يزدياً مملوءاً بالنقود وقال:

- سيّدة زبيدة، خبئيه!

ثم التفت إلى المشهدي أسد الله وقال:

- أحضر دلاءً عدّة من الماء!

أحضر المشهدي الماء وأطفأ النار أمام الباب. قال ميرزا لدلنواز:

- استعدّي لنذهب!
- إلى أين؟
- إلى أمك.

ركضت دلنواز مبتهجة إلى غرفة الجلوس، وبدّلت ملابسها دون أن تتكلّم مع السيّدة الأمّ. كان صوت المفرقعات وصخب الأشخاص الذين تجمعوا حول قطع النار المشتعلة، وكانوا يقفزون من فوقها، يسمع طوال

الطريق. كان المشهدي أسد الله يقود العربة بهدوء وكان يغني. كانت دلنواز تجلس إلى جوار والدها، وأحياناً على كرسي صغير مقابله، وكانت تشير بإصبعها بشوق إلى العناقيد الملونة التي كانت تجعل السماء في الليل كالنهار المضيء.

لمّا وصلوا إلى وجهتهم، أخرج من تحت الكرسيّ ربطة لُفَّ حولها شريط بنفسجي وفي نهايته عقدة كبيرة:

- لقد اشتريته لأمك.

ضغطت دلنواز الربطة إلى صدرها، قال المشهدي أسد الله:

- سأبقى أنتظر هنا.

نزل وأخرج لفّة التبغ من حزامه وملأ غليونه، ورأى أنهما قد دخلا الزقاق متشابكي اليدين. في نهاية حيّ صفر القصّاب تحلّقت الخالات حول دلنواز ودخلن معها البيت، وكان واضحاً من رائحة أجسادهن وتجعّد شعرهن أنهنّ قد قضين أربعاءً أخيراً ذا بهجة.

لمّا رأى أحمد عليخان دلنواز وميرزا أبا تراب أتى لاستقبالهما وقبّل رأسيهما، لكنّ السيّدة صنم أتت متأخرة جداً. لمّا أتت جلست بشكل معوجّ ولم تكن مستعدّة لتسلّم.

سأل ميرزا أبو تراب عن الأحوال، ووضع الربطة أمام السيّدة صنم:

- قطعة من القماش للسيّدة الصغرى، ليست من قيمتها.

تجهّم وجه السيّدة صنم وأعادتها بكلتا يديها:

- ماذا تفعل بها؟ شكراً لله مئة ألف مرة أن القماش اصطفّ في دكان أبيها فوق بعضه لفّات لفّات من الأرض إلى السقف.

سعل أحمد عليخان وعدّل جلسته:

- هذا شيء آخر يا امرأة، ما إن ترى أنّ زوجها قد أحضرها لها فستفرح؛ هل تظنين أنها بلا عقل وإحساس إلى هذا الحد؟

قالت السيّدة صنم مضطربة:

-بدل هذا التظاهر فكّر في نحوٍ أساسي، لا طبيب ولا دواء، " إذا أتى الجديد إلى السوق يصبح القديم كسير القلب ".

مسح ميرزا بيده على كتفها:

- لا كلام لي منذ الآن، النفقة عليّ والحلّ عليكم.

أخرج رزمة نقود من جيبه ووضعها أمام السيّدة صنم. كانت تفوح من النقود رائحة الزعفران وماء الورد، فأفسدت السيّدة صنم ترتيبها بظهر يدها:

- لم يكن من الضروري أن تتباهى بمالك أمامنا، هدية عروسك الجديدة، بدل ذلك أظهر مقدار حبة شعير من الهمّة.

قال أحمد عليخان غاضباً:

- صنم!

توهجت المرأة غضباً وهي تتجه نحوه:

- أنت لا تتكلم! من يحترق قلبه هو أنا وليس أنت؛ ما يمكنك أنت فعله هو ادعاء الأبوة لا غير.

تهدّج الصوت في حلقها:

- يجب على رجال هذا الزمن أن يذهبوا ويضعوا أغطية على رؤوسهم، أين الغيرة؟ أين المروءة؟

فُتِح الباب وركضت دلنواز وخالاتها إلى الغرفة، لحقن بعضهن بعضاً وجلسن حولهم، فقال أحمد عليخان:

- إلى الخارج.... الأطفال إلى الخارج!

ألصقت دلنواز نفسها بميرزا:

- هل سأبقى هنا الليلة؟
- لا.

خرجت دلنواز مع خالاتها، وصمت ميرزا قليلاً، ثم قال:

- أفعل أي شيء من أجل ابنتي.

وتابع:

- ومن أجل أمها...

قال أحمد عليخان:

- يجب أن نأخذها إلى دار المجانين، في الأقلّ يوجد طبيب ودواء هناك.

أخذت السيّدة صنم تبكي:

- أمس، أمسكنا يديها وقدميها بمشقة كبيرة، وصببنا الخل والبصل مرة ثانية في أنفها؛ فقط لأني سمعت أنه يشفي دماغها، لكن إلى متى؟

قال ميرزا:

- قلت من قبل إذا أردتم أن تأخذوها إلى دار المجانين فلا مانع لديّ، لكن كيف أطمئن أن شرفي...

تقطّع الصوت في حلقه، فقالت السيّدة صنم:

- أنت مسؤول، مسؤول أمام الله ورسوله إن لم تفكّر في علاجها.

نهض ميرزا أبو تراب من مكانه.

- أيمكن أن أراها لمحة؟

نهض أحمد عليخان من مكانه:

- لِمَ لا؟

حمل ميرزا قطعة القماش من باحة الدار إلى الدهليز، وذهبا من هناك إلى غرفة السيّدة الصغرى. ركضت دلنواز ولحقت بميرزا. كانت السيّدة الصغرى قد جلست على الرف كطائر، وحين رؤيتهم بدأت تغنّي:

- ذهبت إلى حقل الفستق... رأيت ببغاوات عدّة... قد حطّت على الأغصان.

كانت قد رفعت يدها اليسرى، وأخذت ترفرف بيدها اليمنى. تقدّم ميرزا إليها، ووضع قطعة القماش أمامها:

- لقد أحضرت هذه لك أيّتها السيّدة الصغرى.

بحركة سريعة خطفت قطعة القماش ومزقتها بيديها وأسنانها، وألقت القطع الممزقة كالمطر الملون على وجهها ورأسها.

- افتح هذا الباب يا سليمان... افتح ذاك الباب يا سليمان... اسحب السجادة إلى الإيوان...

خرج ميرزا من الغرفة بعينين باكيتين:

- سآتي وآخذها إلى أي مكان يعالجونها فيه.

* * *

أتوا مساءً، أركب ميرزا أبو تراب وعزيز الله خان وأحمد عليخان السيّدة الصغرى في العربة وأخذوها. كان المشهدي أسد الله يسرع بهم، وكان الثلاثة صامتين، وحدها السيّدة الصغرى كانت تقول " يا ويلي "، وتقرأ الشعر.

كان الوقت منتصف الليل حين وصلوا. كان ثمّة بناء إسمنتيّ ذو جدران عالية جداً، وكان محاطاً بالأسلاك الشائكة، ومحاصراً بالصحراء من الجهات الأربع. كان الباب الخشبي الكبير مغلقاً، ويحرسه كلب ينبح على نحو متتابع. نزل ميرزا أبو تراب وقرع الباب بقبضته، ففتحت نافذة صغيرة وظهرت عينان مغوليتان وحمراوان لرجل.

بعد لحظات أتى رجلان وأدخلا السيّدة الصغرى التي كانت تنوح، ولم يسمحوا لأحد غير ميرزا أبي تراب بدخول البناء.

مرّت نصف ساعة من الصمت، وكان الرجال ينظرون إلى القمر والغيوم التي كانت تأتي لتغطي وجهه، وإلى الكلب الذي كان يظهر أسنانه، وإلى الصحراء التي كانت خالية تصفر. بعد ذلك، جاء ميرزا، وانحنى دون أن يقول شيئاً، ثمّ ضغط ثياب السيّدة الصغرى إلى صدره وجلس داخل العربة. لم يكن أحد يتكلم مع أحد، وكان المشهدي يداعب كفلي الحصانين بالسوط، فابتعد الحصانان عن البناء وهما يعدوان بسرعة. لم لا تفوح رائحة العيد؟

* * *

كانت قد جلست في الصفّ، وراحت تنظر إلى اللوح. كانت المعلمة قد لفّت شعرها ورفعت الخصل المدلاة إلى الخلف بمشطين أحمرين. على ياقة معطفها الأسود ثمّة فراشة حمراء قد فتحت جناحيها، لكن ذرات صغيرة من الطباشير كانت قد ألقت عليها شبكة دقيقة. كانت المعلمة تسير وتضرب بمسطرتها الخشبية الطويلة على فخذها بهدوء.

- الحمامة... كم قسم؟ ثلاثة أقسام... الأول صغير... الثاني ألصق... الثالث...

كانت عشرات الأصوات تنتج صدى واحداً، وقد كانت تقفز من خلف الزجاج الملون الموجود على باب الصف إلى الخارج.

كانت دلنواز تضغط أسفل قلم الرصاص علامة التمساح بين أسنانها، وتلعق بلسانها رطوبة أسفله الأبيض لعلها تخفّف من حرارة الداخل، وكانت قد وصلت الليل البارد بالصباح بدفء جسم " السيّدة كلي".

كانت " السيّدة كلي " لعبة من صنع زبيدة، على الرغم من أن نشارة الخشب كانت تتساقط، منها وعلى الرغم من أنّ حاجبيها مقرونان، إلا أن عينيها الخرزيتين الفيروزيتين وضفيرتيها اللتين تفوح منهما رائحة الحناء كانت تمنح السكينة.

- " كانوا قد أخذوا أمي... كانوا قد أخذوا أمي... كانوا قد أخذوا أمي ".

أخرجت حقيبتها من الدُرج، فتحتها، كانت السيّدة كلي مستلقية لكن عينيها مفتوحتان.

- أين انتباهك يا بنت؟

رفعت رأسها، واستدارت عشرات الرؤوس نحوها، استدارت هي أيضاً إلى الخلف، لكن شحمة أذنها أُمْسِكَت بين إصبعي المعلمة السمينتين والملوثتين بالطباشير، ففهمت أنها هي " البنت ".

- إلى أين تنظرين؟ أتحدّث إليك.

احمرّ وجهها. اتّقدت.اشتعلت. حنت ساعديها وأخفت وجهها. علا صوت همس البنات وضربات مسطرة المعلمة.

- الحمامة... كم قسم؟!

بللت قطرات الحزن وجنتيها.

* * *

بأمر ميرزا أبي تراب أوصلوا الكهرباء إلى المنزل في يومين. كان تحويل السنة الجديدة مقروناً بالنور والضياء. أمسكت زبيدة السيّدة الأمّ من تحت

إبطها وأخذتها إلى غرفة الضيوف لتملأ سلال الفضة والحلوى بالباسلق[1] والقطائف والنخودچى وحاج بادامي ونقل البيد مشك وراحة الحلقوم. ملئت قارورة الكريستال المصممة في شكل سمكة بالماء مع زوج من الأسماك الحمراء التي باتت تسبح فيه.

كانت دلنواز تدور حول القارورة وتشكو لزبيدة ضيق مكانها، لكنها كانت تفكر أكثر ببذور الكزبرة التي تطاولت على جسم الجرار الصغيرة، فكانت دائماً تلاطفها وتبقيها رطبة نضرة بقطرات الماء، كما وضعت واحدة منها عند حورية التي فرشت فراشاً لأجلها في الغرفة.

- لا يحتاج الأمر أن تتعبي نفسك، فقط ارتاحي.

في النهاية أتت السنة الجديدة وبدأ تبادل الزيارات، وأتى أفراد الأسرة لزيارة السيّدة الأمّ التي كانت كبيرة الأسرة.

- لا جلب الله سوءاً! أبعد الله البلاء! إن شاء الله ستتعافى تماماً بسرعة.
- تصدقي من أجلها! أريقي دماً! افرشي مائدة أبي الفضل[2]!
- صدّقي حين تحولت السنة كنتِ دائماً نصب عينيّ وكنت أدعو لك، بالتأكيد، إن اعتبرتِني جديرة بذلك.

لكن السيّدة الأمّ كانت حيناً تسمع وتعي وحيناً لا، وكان قلب دلنواز عند أمها، فلا شيء؛ لا رائحة نقود جديدة، لا بطّات من الشمع تسبح على

---

(١) حلوى أسطوانية الشكل تتألف من مخلوط النشاء والسكر والدبس، وتحشى بالفستق والجوز (المترجمة).

(٢) تقام مائدة أبي الفضل العباس بن علي بن أبي طالب لقضاء الحوائج المستعصية (المترجمة).

ماء البركة، لا مروحة هوائية، لا وق وق صاحاب التي كانوا يشترونها لها؛ لا شيء منها، لا شيء منها يمكن أن يمسح حزن عينيها.

لكن كان منتصف العيد حين أتت إلى باحة الدار فراشة كبيرة بحجم كفّ اليد، دارت ودارت وأخذت قلبها وراءها.لكنهم وجدوا جسدها المتيبس في اليوم التالي، فأخذتها ماه منظر ووضعتها تحت زجاج إطار صورة ميرزا أبي تراب.

كانت دلنواز تأتي على نحو مباشر أو غير مباشر، وتجلس لتشاهد النقط التي كانت حمراء وخضراء وصفراء. أين ذهبت فراشتها؟

كانت قد وضعت رأسها على صدر والدها وسألته:

- لماذا؟

كان ميرزا قد قال لها:

- كأن الله رشّ قطرات على العالم، كل قطرة على روح أحد. البشر، الورد، الطير، النبات؛ كلها في حركة حتى تتبخر هذه القطرة، عندها يتبقى جلد فارغ، وذاك أيضاً يتفسخ شيئاً فشيئاً ويتفتّت.

ومرة أخرى رغبت دلنواز فى رؤية أمها:

- متى نذهب لأراها؟

- في اليوم الثالث عشر من فروردين[1].

---

(١) اليوم الثالث عشر من الشهر الأول من السنة الشمسية، اعتاد الإيرانيون منذ القديم أن يخرجوا فيه لقضاء اليوم خارج البيت أو خارج المدينة (المترجمة).

- ماذا عن خالاتي إذاً؟ وجدّي وجدّتي.
- فقط أنا وأنتِ.

كان المكان الذي كانت فيه الأم بعيداً جداً، وعلى الرغم من أن الربيع قد وصل إلى هناك لكنّه كان بعيداً جداً. كانوا قد أحضروا الأم إلى غرفة بيضاء لم يكن فيها غير مقعد، أحضرتها الممرضات وأجلسنها على مقعد أبيض، وجلسن هن أيضاً إلى جانبيها. كانوا قد حلقوا شعرها من أسفله، شعرها الذي كان كعشب ضفة النهر، كان قد نما قليلاً، قليلاً فقط. كانوا قد ألبسوها ثوباً طويلاً أبيض أيضاً، كان قديماً لكنّه نظيف. رأت أمها من خلف زجاج مربع الشكل، فألصقت شفتيها على الزجاج، وأرسلت إليها قبلة لكن الأم كانت قد نظرت إليها فقط ولم تقل شيئاً.

كان ميرزا قد وزع صندوقاً من البرتقال والتفاح من بقايا فاكهة العيد على المرضى، وكان بعضهم قد عضّ الفاكهة مع قشرها، وبعضهم قد لعب بها كرة يد.

طوال طريق العودة، كانت دلنواز تخفي رأسها في صدر أبيها، ولم تتحرك. كانت غيوم العالم قد اجتمعت في قلبها ولم تغادره.

* * *

كانت السيّدة الأمّ قد سقطت منذ أيّام عدّة بلا وعي ولا إدراك، وكانت ماه منظر تتراقص وتسير وتصدر الأوامر.

- حضري أرزاً بالعدس مع الزبيب والتمر يا زبيدة!

- حضّري منزّلة الباذنجان والفسنجان[1] على العشاء يا زبيدة!

- من الذي طلب أن تصفّوا أصص الياسمين هنا؟ خذوها كلها إلى تلك الناحية من باحة الدار!

كانت السيّدة الأمّ تحرك جفنيها، وكان جلد وجهها يتمدّد لكن لم يكن لديها القدرة على الكلام، حتى لم تستطع أن تقول لماذا تتجولين في باحة الدار بقدمين حافيتين ورأس عار.

- أريد أن أقيم دعوة وقت العصر، افتحي أبواب غرفة المضافة واكنسيها وأزيلي الغبار.

لم تكن زبيدة مستعدة لأن تقوم حورية وتقعد حتى يومين، لقد كنست بنفسها ومسحت الغبار، وفرشت البطّانيات ووضعت الوسائد.

في صباح يوم الدعوة أتت مرواريد وجواهر. كأن السيّدة الأمّ قد سقطت. نزعت كلّ منهما ملاءتها عن رأسها، ووضعتا الكريم المبيض والحمرة. حملتا موقد طبخ الطعام وأخذتاه إلى غرفة المضافة، وقالتا إنهما ستصنعان قطائف وخاتون پنجره عند العصر هناك، وستقدمان البطاطا المطبوخة والمخلل والـ" وگلپر[2]"، وستحمّصان البذر والذرة.

حان وقت العصر، وأتت الضيفات جماعات جماعات. جلست حورية في إحدى الغرف في الأسفل. حتى لا يحدث خطأ كانت تأخذ ملاءة كل سيدة وتعطي رقماً. كانت دلنواز قد كتبت الأرقام، وكانت قد رسمت على كل من الأطراف الأربعة لكل كرتونة وردة.

---

(١) طعام مؤلف من لحم الدجاج والجوز ودبس الرمان (المترجمة).

(٢) حبوب عطرية في شكل قطع نقدية مستديرة صفراء تستخدم منكهاً للطعام (المترجمة).

كان صوت الضحك العالي يأتي من الأعلى، وتصل القطائف وخاتون پنجره إلى الأيدي ساخنة، لكن من أجل المبالغة في الضحك جعلن الفجل الأسود حلقات وأدرنه من يد إلى يد على أنه گز(١) أصفهان.

في الغرفة الواقعة في الأسفل، كانت السيّدة الأمّ تتنفس بسرعة كبيرة، وأحياناً كانت تفتح عينيها من شدة الألم وتئن وتغلقهما من جديد. كانت دلنواز قد جلست إلى جانبها، وراحت تكتب واجباتها المدرسيّة. حدّقت السيّدة الأمّ فيها مرة واحدة فقط وقالت:

- لِمَ لا تذهبين أنتِ أيضاً؟

رسمت دلنواز لوزة وقالت:

- يجب أن ألونها.

ثم رسمت اثنتين وخمساً، لكنّ قلم الشمع لم يكن يلوّن الأماكن التي كانت قد تبللت.

حين عودة أبي تراب كان البيت قد غرق في الصمت ثانية. كانت ماه منظر وزبيدة وجواهر ومرواريد قد جمعن الأشياء المبعثرة ورتبنها. جلس ميرزا عند رأس أمه وقرأ " قُل " أربع مرات ونفخها نحوها. فتحت السيّدة الأمّ عينيها وقالت:

- اذهب إليها!

- إلى مَن يا أمي؟!

---

(١) حلوى بيضاء معروفة مؤلفة من الطحين والسكر وبياض البيض ويضاف إليها الفستق وماء الورد (المترجمة).

- صنم... السيّدة صنم، اذهب واطلب إليها أن تسامحني!

ارتعش صوت ميرزا:

- ماذا فعلتِ أنتِ يا أمي؟

- كسرت قلبها يا بُنيّ... سامحني الله.

أمسك ميرزا يدها وقبّلها:

- أنتِ أيضاً كنتِ أمّاً؛ إن كنتِ قد فعلتِ شيئاً فبدافع حنان الأمومة.

- اذهب لمداواتها وعلاجها.

- على عيني.

- ما لم تتحسّن فلا تخرجها.

- على عيني يا أمي.

ومنذ ذلك الحين، كلما كانت ترى ميرزا كانت تقول:

- آه... آه... يا بنيّ... ماذا كنت أريد، وماذا حدث؟

وكانت تغيب عن الوعي.

كانت ماه منظر تقف وسط باحة الدار مع حفيدة السيدة رفقاء التي كانت تأتي إلى حافة النافذة وتتكلم بصوت عال، وكانت تطلب إليها أن تذهبا العصر معاً لتتمشيا في " بوب كلوب " وتأكلا البوظة، وكانت تسبّ البستاني لأنه قد بلّل نعلها حين السقي بالرشاشة، وتشكو أنّ دلنواز فوضوية. كان ميرزا يسمع ويقطب حاجبيه، ويسمع ويمسح بيده على لحيته، ويسمع ويضغط على أسنانه لكنه لم يكن يقول شيئاً، عدا مرّة حين

خرج ورآها عارية الرأس أمام الباب، فأخذ السوط من يد المشهدي ودخل البيت غاضباً. أمسك بماه منظر التي كانت قد ركضت حين رؤيته إلى الدَرَج في زاوية باحة الدار، وراحت تصعد كلّ أربع درجات معاً. أمسك بها في الإيوان وسحبها إلى الغرفة، وقفل الباب ثمّ علا صوت السوط، أكانت هذه التي تصرخ ماه منظر؟

قفزت دلنواز من مكانها،و صعدت كلّ درجتين معاً، وقرعت بقبضة يدها على زجاج الباب. لم يكن حذاء والدها، لكن فردة نعل ماه منظر كانت قد سقطت هناك. لكن مهما ضربت بقبضتها لم يُفْتَح الباب، فقط كان يُسْمَع صوت انتحاب ماه منظر الخفيف الذي تحوّل بعد ذلك ضحكاً.

* * *

كان نور الحكماء يأتي كلّ يومين أو ثلاثة لزيارة السيّدة الأمّ. كان الألم لا يطاق، وحين كان ينقطع قولها " يا علي! " كانوا يزرقون لها المورفين، حينها كانت تستغرق في النوم؛ النوم الذي يقولون إنه صنو الموت. لكن حين وضعوا أجر نور الحكماء في الصينية آخر مرة، أعاده.

- لا ترسلوا في طلبي مرة أخرى! لا فائدة.

أخذت زبيدة تبكي.

- يا سيد... يا سيدي!

أمسك نور الحكماء زاوية جبته الزرقاء بيده، وأشار إلى الأعلى وهو يمرّ من باحة الدار:

- لم يعد في استطاعتي فعل شيء، توكلوا عليه!

ركضت زبيدة مضطربة إلى غرفة الجلوس، وانحنت على وجه السيّدة الأمّ ففتحت عينيها ونظرت إليها:

- ألا يلزمك شيء يا سيدتي العزيزة ؟!

طلبت السيدة مروحتها الحصيرية وقالت لها أن تفتح النوافذ، ثمّ سألت عن دلنواز. كانت دلنواز في المدرسة، وإلى أن عادت غابت السيّدة الأمّ عن الوعي مرة أخرى. لمّا وصلت دلنواز أخذتها زبيدة عند رأس السيدة، فنهضت السيّدة الأمّ فجأة وجلست، عانقت دلنواز وقبّلتها، ولم ترَ أن وجهها تجهم من رائحة القرح.

قالت إنها تريد الذهاب إلى الحمّام، وإنها ترغب في تناول الأرز المطبوخ على البخار مع الحبوب والمخلل.

ذهبت زبيدة ونادت ماه منظر وحورية، فأتتا وجلستا إلى جانب السيّدة، أحرقت زبيدة الحرمل والكندر، وسخّنت الماء وأحضرت الطست والطبق، طلبت إلى حورية أن تمسك تحت إبط السيدة، لكن السيدة لم تقبل بوجود غيرها. أرسلت زبيدة دلنواز والمرأتين إلى الخارج، وغسّلت السيدة بنفسها دون أن تنظر إلى قرح صدرها المفتوح.

بعد مدّة لبست السيدة المستحمة ملابسها الخاصة بالعيد كأنها قد أبلت من المرض، وكانت دائماً تبتسم. أتت دلنواز وتناولت الطعام معها، وعند القيلولة طلبت إليها أن تحكي لها حكاية. قالت زبيدة:

- سيّدة دلنواز...

كان لحن صوتها يفيض باللوم.

تمددت السيّدة الأمّ بهدوء، ونظرت إلى زبيدة:

- لا شأن لك بها، أريد أن أحكي لها قصة سارة.

تمدّدت دلنواز إلى جوارها، وكانت رائحة الحرمل تفوح في الجوّ. قالت السيّدة الأمّ:

- كانت سارة زوجة... حضرة إبراهيم... كان قلبها... يحترق... في حسرة الولد... كانت لديها خادمة، كان... اسمها هاجر... لمّا رأت... أنها لن تنجب و... أن زوجها... يريد ولداً... قررت أمراً صعباً... أعطت هاجر لإبراهيم ليتزوجها وتنجب له ولداً... إبراهيم أيضاً... تزوج هاجر... وأنجب منها صبياً... صبياً يدعى إسماعيل، لكن لمّا وُلِد الصبيّ اشتعلت نار الغيرة في قلب سارة وقالت... لا، لن أحتملهما أكثر من هذا... خذهما واذهب...فكّر إبراهيم كثيراً و... أخذ يناجي الله... يا إلهي ماذا أفعل؟... فجأة... نزل جبريل. لا تحزن يا إبراهيم!... سارة امرأة طيبة لكنها ضعيفة وكسيرة القلب، لا تنزعج منها... خذهما واذهب.

في أثناء حكاية السيّدة الأمّ للقصة خرجت زبيدة من الغرفة لتطلّ على حورية. كان خلف النافذة أصيص نرجس كان المشهديّ قد أحضره ليلة أمس لحورية. ذهبت إلى الغرفة، وكانت ستارة قد أسدلت وسطها، رفعتها زبيدة، كانت حورية جالسة تضمّ الخرز في الخيط. نظرت زبيدة إلى وجهها الذي أصبح لوزياً أكثر من ذي قبل، وإلى أسفل عينيها اللتين أصبحتا غائرتين.

- ماذا تفعلين يا بنت، أتريدين أن تعمى عيناكِ؟

سحبت الستارة إلى الخلف، فحدّقتها عينا حورية الخضراوان.

- أأذهب لأزور أمي؟

عبست زبيدة:

- في هذه الحال والأوضاع، لِمَ تريدين الذهاب إلى السيدة أمكِ؟

أسدلت حورية عينيها إلى الأسفل.

- لا تتدلّلي أمامي بلا سبب، إنّ سيدتي العزيزة ترفرف أمام عينيّ، ولا يدي ولا قلبي يستطيعان فعل شيء، أصبح رأسي كحجر يزن سبعة منّ[1]، فبدل أن تسانديني في وقت كهذا تحلمين برؤية أمك؟ يا للقسمة والنصيب!

قلبت حورية شفتها وانشغلت بإدخال الخرز في الخيط. أزالت زبيدة الرطوبة عن الأصيص بأطراف أصابعها وصبّت فيه القليل من الماء من الإبريق الموجود إلى جوار السماور، ثمّ رفعت غطاء الوعاء المخصص للكماج[2] الذي كان فوق موقد الطبخ وشمّت، فمذ كانت قد أحضرت حورية كانت تعطي طعامها وطعام المشهدي منفصلين.

ماه منظر أيضاً، حديثاً، لم تكن تنزل لأجل الغداء والعشاء، وكانت مضطرة أن تأخذ إليها صينية طعامها إلى الأعلى.

قالت السيّدة الأمّ: " لقد أصبح الجميع أقساماً ".

كانت لا تزال في الغرفة حين ركضت في إثر صوت صراخ المشهدي:

(١) وحدة وزن قديمة (المترجمة).

(٢) نوع من الخبز الحلو يصنع من الحليب والسكر والطحين والسمن (المترجمة).

- يا زبيدة!

كان المشهدي يقف مضطرباً حائراً في إطار باب الدار، مغطى بالرماد، بملابس كانت قد احترقت بقعاً بقعاً، جلده محترق، عيناه بلا أهداب، حاجباه محترقان. ضربت زبيدة بكلتا يديها على رأسها:

- يا حسين! ماذا حلّ بك يا رجل؟

قال المشهدي أسد الله بصوت لم يكن يشبه صوته:

- احترق؛ احترق المحلّ. لقد احترق الطرف الأيمن من السوق، من رحمة الله فقط أن النار لم تنشب في المخازن.

جلست زبيدة منكمشة على الأرض، هل كانت الأرض قد أصبحت مهداً تحت قدميها أو أنها هي التي أصبحت مهداً للأرض؟

كانت حورية تقف أمام باب الغرفة، والخرز الذي كان في ذيل ثوبها حتى لحظات مضت قد نُثِر على الأرض، أنّت زبيدة:

- أين السيد الآن؟

- حسناً أنه لم يصب بسكتة بعد.

- آه يا ولدي، ماذا أقول للسيدة؟

- أنت حرة.

بعد قول هذا ذهبت؛ ذهبت كأنّ شيئاً لم يكن. لو لم تكن حورية قد انحنت وأخذت تبكي لظنّت زبيدة أن ذلك كلّه خيال، كم استغرقت من الوقت حتى استطاعت أن تستجمع قواها؟

أرسلت حورية إلى الغرفة، أما هي فرشّت رأسها ووجهها بالماء وهي تمرّ من جانب البركة. عادت إلى غرفة الجلوس، وكانت السيّدة الأمّ نائمة

ودلنواز أيضاً مشغولة باللعب بالسيّدة گلي. ذهبت زبيدة وجلست على ركبتيها عند رأس السيدة، ألقت دلنواز نظرة إليها وقالت:

- هذه لا قلب لها.

كان صدر السيّدة گلي قد شُقّ وانسكبت منه النشارة، لم تقل زبيدة شيئاً، جلست دقائق عدّة ثمّ مدّت رأسها إلى الأمام وقالت:

- سيدتي... سيدتي العزيزة!

فتحت السيدة جفنيها ونظرت إليها دون أن تتكلم، فارتعش عمود زبيدة الفقري؛ " كانت امرأة ترتدي ملاءة تقف داخل بؤبؤي عيني سيدتها، وكانت تقول: فاطمة... فاطمة... يا بنتي... انهضي! فقد حان وقت الذهاب ".

* * *

كانت حورية ودلنواز تلعبان الصبّة حين انتهت السيدة؛ ففي غروب اليوم التالي الذي أتى فيه ميرزا أبو تراب إلى البيت منكسراً وحزيناً، لكنه أخفى نفسه عن السيّدة الأمّ، أغلقت السيدة عينيها وفتحتها، وسألت زبيدة التي كانت جالسة عند رأسها:

- ألم يأتِ ولدي ميرزا؟

قالت زبيدة:

- لا!

ثم غاب سواد عينيها، وقالت ثانية: " اقرئي القرآن! خذيني إلى الحمام وافرشي مائدة في الغرف، كبيرة، كبيرة كبيرة ". ثم رغبت في تناول الخبز

والريحان، لكنها مهما حاولت لم تستطع حتى أن تأكل لقمة واحدة، فقط أمسكت بعود ريحان في يدها وأبقته. كانت الرعشة قد بدأت من قدميها كأن أحداً ما قد جلس داخلها وأخذ يهزّها، ثم توقفت ساقاها عن الحركة وأصبح بطنها يتحرك كقربة ماء، ثم توقف البطن عن الحركة، وكذلك الصدر. وضعت زبيدة تربة في حلقها، وحين رأت تسليمها الروح ناحت، ووضعت قطعتين نقديتين نحاسيتين على عينيها اللتين لم تغمضا. هل فارقت الحياة ؟!

اتجه المشهدي إلى سيدته التي كانت قد استلقت متجهة إلى القبلة كأنها قد نامت مئة سنة، ثمّ ذهب إلى باحة الدار وناح:

- يا سيدي... يا سيدي... يا سيدي!

أخرجت ماه منظر رأسها من النافذة:

- نعم... ماذا تريد؟

خرجت حورية ودلنواز تركضان حافيتين، وهبط ميرزا بجلده المحروق ووجهه المتقرح ويديه اللتين تفوح منهما رائحة زيت السمك كل أربع درجات معاً، وتجمعوا كلهم عند نقطة واحدة. بعد ذلك، كأن يداً عزفت بريشة على أوتار عود، وريشة أخرى ومن جديد... إذ إنّ صدر كلّ من ميرزا أبي تراب ودلنواز وزبيدة... لم يكن يتسع لكل هذا الحزن.

* * *

كانت أشرف السادات والسيّدة صنم عائدتين من زيارة السيّدة الصغرى متعبتين كسيرتي القلب مغبرّتين، وكانت عينا السيّدة صنم

حمراوين ومتنفختين. لمّا وصلتا إلى " ميدان شاه "، حثّتها أشرف السادات على أن تنزل وتأكل شيئاً، فداخل العربة الكبريتية كانت كراسيها الخشبية تصدر طقطقة، وكان رأساهما يصطدمان بالسقف مع كل حركة. كانتا كحمل الزجاج الذي تكسّر وطُحِن. نزلتا وأخذت كل واحدة منهما سيخ كباب وريحان، وأكلتا هناك عند زاوية الشارع وقد أدارتا ظهريهما للمارّة، ووضعتا زاوية الملاءة أمام وجهيهما، بعد ذلك تناولتا كأساً من العيران، والآن وقد استمدّتا القوة كان يمكنهما السير أسرع.

- صدّقي، كأنّ حالها قد تحسن، ألم تري كيف شنفت أذنيها وكانت تستمع إلى كلامنا؟

كانوا قد سمحوا للمرة الأولى بزيارة السيّدة الصغرى في القسم العمومي من المصحّ، وكانوا قد حلقوا شعرها ثانية من جذوره، وقد ألبسوها رداءً أبيض مغلقاً من الأمام. وكانت قد لفّت أصابع يدها كلها بقماش قديم، وقد أجابت السيّدة صنم حين سألتها:

- لماذا ربطتِها يا بنتي؟

فقالت بملل وتثاقل:

- لقد لففت دلنواز.

وقعت عين السيّدة صنم على مُصلح خزف كان قد عرض بضاعته على طرف الشارع، وكان يصلح زبدية مكسورة، فقالت وهي تتقدم إلى جانب أشرف السادات :

- لنفترض أن العقل سيعود إلى رأسها، لكنّها لن تعود كما كانت؛ فالزبدية التي تصدّعت قد تصدّعت.

كانتا تسيران في شارع إسماعيل البزاز نحو المنزل حين قالت أشرف السادات:

- يا أختي! الكلام الذي سأقوله لك زنته وقلّبته كثيراً، لكني مجبرة على قوله لأني مسؤولة أمام الله:

التفتت السيّدة صنم إليها بعينين واسعتين:

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- كما تتوقعين.

توقفت السيّدة صنم لحظة.

أمسكت أشرف السادات ساعديها من فوق الملاءة وجذبتها:

- تعالي... تعالي لنذهب! أستحلفك بروح ابنتك ألا تنزعجي! أقول لك هذا فقط لتجدي حلًّا، فقد تحقّقت بنفسي من الكثيرين، زوجك في علاقة بنيمتاج محلاتي، تلك المرأة المستأجرة في بيت عمته. يقولون إنها كانت قد تزوجت من قبل زواجاً مؤقّتاً من رئيس رؤساء إدارة المعارف وقد عرفت زوجته وأقامت القيامة، والآن ذهبت لتخطط من أجل زوجك، فتحركي قبل أن يفوت الأوان!

انحنت ساقا السيّدة صنم وجلست في طرف جانب الحي، وجلست أشرف السادات مقابلها وأخذت تحرك الهواء أمامها بطرف الملاءة:

- لا تنحني، انهضي وخذي حقك!لديك خمس بنات، والزوج زوجك، فلِمَ تجلسين صامتة؟ طالما أنها عديمة الحياء تريده لنفسها. نهضت السيّدة صنم من مكانها:

- لنذهب!

قطعتا باقي الطريق لاهثتين دون كلام، ثمّ وصلتا أمام بيت العمة العجوز فقالت السيّدة صنم:

- أنتِ قفي هنا! إن أرادت الخروج من الباب فلفّي شعرها حول يدك ونادني لآتي.

فتحت الباب الذي كان أمامها بضغط يدها، فأنّت العمّة التي كانت مستلقية على الفراش لدى سماع صوت الباب:

- من؟

وحين لم يأتِ جواب، سألت:

- أهذا أنت يا أحمد عليخان؟

دخلت السيّدة صنم الغرفة:

- ليس أحمد عليخان العزيز، هذه أنا السيّدة صنم!

قالت العمة " يا ويلي "، ونهضت نصف نهضة، وحدّقت إلى وجهها الملتهب غضباً بعينين قد خرجتا من حدقتيها:

- ها! ماذا حدث؟ لِمَ خرستِ؟ تكلمي يا أمّ فولادزره[1]! تكلمي يا وِروِر الساحر!

---

(١) كلمة فولادزره لغوياً تعني الدرع الفولاذي، وفولادزره اسم جني في الحكايات الفارسية القديمة، وأم فولادزره ساحرة قوية جداً ذات جسد فولاذي كانت تصنع أسلحة لا تبلى بسحرها وطلاسمها، وأم فولادزوه كناية عن المرأة الشريرة القبيحة (المترجمة).

بقيت العمة محدّقة إليها وهي ترتعش:

- لِمَ أُصِبْتِ باللقوة؟ لِماذا لم ترتعشي حين خططتِ للقضاء على أسرتنا؟

نهضت العمّة بحركة غريبة، ونفضت مؤخرتها، ثمّ التصقت بالجدار. تقدمت السيّدة صنم، وأخذت الزهرية التي كانت على الرف ورفعتها فوق رأسها:

- تكلمي! قولي يا متسلطة! ماذا خططتِ لزوجي؟ أين هي تلك الأفعى الجميلة الخط والخال التي ربيتِها في كمّك لتسلطيها عليّ وعلى أولادي؟

اصطكت أسنان المرأة العجوز:

- يا نيمتاج...

كانت تتخيل أنها صرخت لكن صوتاً ضعيفاً فقط خرج من حلقها. ضربت السيّدة صنم الزهرية على الأرض.

- اصرخي!... نعم ناديها!... أنا أيضاً أناديها! أريد أن أرى هذه الغجرية التي أسكنتِها في بيتك وتوسطتِ لها... آها يا نيمتاج!

من الغرفة الموجودة في الناحية الأخرى من باحة الدار، خرجت نيمتاج تركض برأس عارٍ وقدمين حافيتين، وكانت ترتدي ثوباً أحمر رقيقاً مورّداً بكمين منفوخين وقد وضعت على وجهها الكريم المبيض والحمرة. لمّا رأتها السيّدة صنم وقفت صامتة لحظة وحدقت إليها:

- إذاً أنتِ نيمتاج محلاتي؟!

نظرت المرأة إلى الزهرية المكسورة والعجوز الخائفة، وفجأة ركضت خارج الغرفة. لحقت بها السيّدة صنم:

- توقفي لأرى أيتها المرأة ملعونة الأب، توقفي لأريكِ كيف سأجعل أمك تجلس في عزائك.

سحبت نيمتاج ملاءة عن حبل الغسيل ووضعتها على رأسها، وصعدت إلى السطح عن طريق الدرج الواقع في زاوية باحة الدار، ومن تلك الناحية قفلت الباب، ولحقت بها السيّدة صنم وأخذت تضرب الباب بقبضتها وتصرخ بكل قوتها، ثم استدارت وضربت نفسها بالباب بقوة ففتح المزلاج وقفزت إلى السطح. نظرت حولها بعد أسطح عدّة من الناحية الأخرى، كان سرب حمام قد طار ثم حطّ ثانية، فأرادت السيّدة صنم أن تعبر من فوق جدار طيني بين السطحين حين أمسكت أشرف السادات ساعديها:

- اتركيها يا أختي! يكفي هذا اليوم.

عادت السيّدة صنم نحوها بعينين متسعتين وفم جاف:

- سأقتلها، أقسم بألوهية الله سأقتلها.

كان عدد من الأشخاص قد اجتمعوا على الأسطح المجاورة، فأمسكت أشرف السادات يدها وسحبتها إلى الأسفل بالقوة.

- تعالي لنذهب، إن كان هناك دور آخر فسيكون دور زوجك.

نزلتا الدرج. كانت السيّدة صنم تترنح وقد أمسكتها أشرف السادات من تحت إبطها. لمّا وصلتا إلى الرواق كانت تريد الهجوم على غرفتها، لكن أشرف السادات منعتها، وكان صوت العمة الخفيف يصل إلى المسامع:

- أردت لاسم أحمد علي أن يبقى في الدنيا، والله زواج مؤقت. يا ويلي... يا ويلي... يا ويلي.

اجتمع حشد أمام باب البيت، وكان كلّ منهم يقول شيئاً. اتكأت السيّدة صنم على أشرف السادات وقد أسدلت ملاءتها على وجهها وسارت تجرّ قدميها إلى البيت. كانت من مكان إلى مكان تضع رأسها على جداران الحي الطينية، وكانت تقف تشكو وتنوح ثم تسير. لمّا وصلت إلى رواق البيت غابت عن الوعي، فركضت أشرف السادات إلى الحي لتحضر الطين المخلوط بالتبن.

* * *

كانت دلنواز قد جلست إلى جوار سجادة والدها في غرفة الجلوس، وكانت تكتب بشكل عمودي في دماغها كأنها تتمرن على أنموذج:

- أنت لن تموتي.

أنت لن تموتي.

أنت لن تموتي.

كان شعر ميرزا قد شاب في ليلة واحدة، فأمسك محسباً وأخذ يحسب. كان يضرب بظهر يده ويهز رأسه " أي نار كانت هذه التي نشبت في أرواحنا ومالنا؟ " كان يقول ذلك كل فترة بصوت عال. كان قد جلس في البيت منذ أسبوعين، منذ اليوم الذي أخذوا فيه السيّدة الأمّ إلى باغ طوطي ودفنوها. لا ضحكة، لا مسحة بأصابعه على ظهرها، ولم يكن هناك أثر لجملة " كيف أنت يا سيدة فشفشة ؟ ". كانت زبيدة أيضاً تمضي أوقاتاً

عصيبة، كانت إمّا تضع القدر على الموقد وتطبخ الطعام، وإمّا تدقّ اللحم بالهاون الحجري، وإمّا تفرغ ماء الأرز في البئر وهي تقول " بسم الله "، أو تسحق الزنجبيل وسكر النبات والزعفران وتعطيها للمشهدي لتسحب الرطوبة من جسمه.

كذلك كانت ماه منظر دائماً متجهمة، فكانت أكثر الأوقات تمكث في الطابق العلوي من العمارة ولم تكن تنزل من أجل الغداء والعشاء ، كما أنها لم تكن مستعدة لأن تتكلم كلمتين مع دلنواز، أو أن تطوّق خصرها بيدها وتدعها تتذوق دفء جسدها، فإن نادتها كانت تستدير وتقطّب حاجبيها وتضع يدها على خصرها وتقول:

- ماذا؟ ماذا تريدين، ها؟

ولمّا كانت تذهب، كانت زبيدة تقول:

- اتركي هذه الغجريّة!

سلّم ميرزا من صلاته وقبّل تربة السجود، ثمّ أغلق السجادة وأمسك ركبته بيده ونهض. كانت آثار الحرق لا تزال على رأسه ووجهه، فسألت دلنواز متعجبة:

- إلى أين يا أبي؟
- سأذهب إلى تلك الدار.
- هل آتي أنا أيضاً؟
- لا.

قال ميرزا ذلك وذهب. مدت دلنواز رأسها من شق الباب، فرأت أنه قد أخذ المفتاح من الفجوة الموجودة بين آجرّتين، وفتح القفل الخشبي وغاب خلف الباب.

لمّا أغلق الباب خلفه لم ترعيناه غير فراغ من نور البركة وضيائها، ومرّ من فوق العشب المتطاول من ثقوب الآجر الكازاخي، ثم دخل في دهليز ضيق. وصعد السلم الملتف الذي يصل الطابق الأول من العمارة بالطابق الثاني. كانت الغرف خالية جميعها وأصبحت مكاناً لجرار المربى والمخلل المكسورة والأثاث البالي الذي لا يفيد في شيء. أمسك العمود بيده، وباليد الأخرى أزاح شبكة العنكبوت. لقد أقيم عرس النساء في هذه الباحة ليلة عرسه على السيّدة الصغرى، وفي إحدى هذه الغرف سلّم أحدهما يده إلى الآخر. في إحدى هذه الغرف أيضاً كانت ثمّة قابلة منزليّة قد جاءت بدلنواز إلى الدنيا. وصل إلى الميلة التي تصل إلى السقف الهرمي بوساطة الدرج، فكان يسمع صوت هديل الحمام. وصل إلى السقف الهرمي وألقى نظرة إلى الداخل، كان المكان مظلماً كله عدا خط دقيق من النور الأحمر كان يضيء قسماً من السطح. حين دخوله تحركت عشرات الحمامات من مكانها وهطل مطر من الريش على رأسه ووجهه، فوضع ذراعيه حائلاً أمام وجهه وتقدّم. رأى الكيس في المكان نفسه الذي كان قد وضعه فيه قبل أشهر عدّة، أسنده إلى الجدار كإنسان برز بطنه، منذ أن كان يعطي النقود لزبيدة لتحتفظ بها لم يكن قد مرّ إلى هنا. " من أجل يوم العسرة... يوم العسرة ". كان ثمّة زوج من العيون الحمر المستديرة يحدق به، وتقدم أكثر. كانت حمامة ترقد فوق

بيضها، ولمّا رأته يقترب منها انتفخت وأخذت تبغبغ. كم كانت نظرتها شبيهة بنظرة السيّدة الصغرى حين أرادوا أن يأخذوا دلنواز من حضنها، مدّ يده وأطار الحمامة، وحمل البيض ووضعه على الأرض.

كانت عيناه قد اعتادتا الظلام الآن، فسحب الكيس إلى الأمام ليفتحه فتعجب إذ رآه مفتوحاً. هل بلي خيطه؟ مدّ يده إلى الكيس ليخرج النقود: "يا ويلي " ارتعش، أمسك رأس الكيس وسحبه على الأرض، وأحضره أمام فتحة السطح، ثمّ نظر إلى داخله، وانحنى وأمسك النقود. " يا الله... كلها مفتّتة ". أمسك أسفل الكيس، وأفرغ محتوياته بضربة. ركضت فأرتان كبيرتان رماديتان، وفأرة أخرى. ضرب أبو تراب رأسه بقبضة يده؛ ليس مرة واحدة بل مرّات عدّة.

- يا الله...

تردّد صوته تحت القبة المعدنية ورجع، كانت هذه " الآه " هي التي ذهبت بحياته وممتلكاته، فانتحب... إلى متى بقي هناك؟ عاد إلى نفسه في إثر صوت زبيدة وهي تحمل الفانوس وتقف في طريق الدرج وتناديه:

- سيدي... سيدي... سيدي!

هبط درجات السلم، فرأى دلنواز وقد التصقت بملاءة زبيدة، كم كان هذا الوجه اللطيف المليح قد أحيا تلك الذكرى البعيدة:

- أعطِني البشارة ياسيدي! بنت صغيرة بأسنان كاللؤلؤ، شعرها أشقر.

وهذه البنت كم كانت شبيهة بأمها، قال لزبيدة بصوت لم يكن مألوفاً حتى له:

- قولي للمشهدي أن يذهب الليلة إلى المعلم صالح البنّاء، أريد أن أصلح هذه الدار.

* * *

انعطفت زبيدة، وتحت إبطها علبة حلوى، وطرف ملاءتها في يد دلنواز، إلى حيّ " صفر القصّاب " الخالي ظهر يوم الخميس.

- حينما تعرف المسكينة الأمر فستسرّ جداً، ليكن الإنسان ذئب صحراء ولا يكون أماً.

رفعت دلنواز رأسها إلى الأعلى ونظرت إليها:

- من؟!

- أتكلم عن جدّتك، حينما تعرف أن أباكِ سيصلح البيت لابنتها فستسرّ إلى حدّ كبير.

حدّقت دلنواز إلى قمريّ كان قد أتى يبحث عن الحبّ وسط الزقاق، وركضت خلفه فرفرف الطائر وحط على المرتفعات والمنخفضات المتناوبة على سطح البيت:

- حسناً! أنا أيضاً سعيدة.

فتحت الباب لهما السيّدة صنم نفسها، وحين سماع صوت دلنواز تحلقت خالاتها حولها، حتى لمّا أحضرت السيّدة صنم شراب الكرز في كأس

بلورية ذات رسوم محززة لم تترك لعبة ذئبي في الهواء وكانيه[1] وتأتي لتحتسي شرابها.

كانت المرأتان تجلسان في الغرفة ذات الأبواب الخمسة وقد انشغلتا بالحديث:

- الآن؟ الآن بعد أن أحضر لابنتي ضرة، الآن يريد جبران ما فات؟

هل نسي كل تلك السنوات التي وضع في أثنائها قدم ابنتي في الحفرة والسلسلة، ومنع عنها الدواء والعلاج؟

طأطأت زبيدة رأسها:

- لم يكن لي تأثير يا سيدتي، لكن بالله لم يكن سيدي مستهتراً، كان يقول إن علاجها ودواءها يجب أن يكونا تحت إشرافه.

- إذاً، ماذا حدث حتى أصبحت السيّدة الصغرى للرمي بعيداً حين أتت العروس الجديدة؟ حسناً جداً... حسناً جداً، الأمر لا يحتاج إلى أن تدافعي عن سيدك بشدة. أقسم بالله لولا هذه الطفلة البريئة لصعدت إلى السطح وكشفت رأسي وقرأت القرآن، ونحت ودعوت حتى يسمع طائر آمين صوتي ويستجاب لي.

سألت زبيدة بخوف:

- على من؟

---

(١) لعبة للأطفال تتم بين مجموعتين حيث يذهب أحد لاعبي المجموعة الأولى على قدم واحدة إلى المجموعة الثانية ويحاول لمس أحدهم ثم يخرج من اللعبة (المترجمة).

- على من؟ عليهم كلهم، من صهري إلى الباقي.

قالت زبيدة كمن أرادت أن توقظ نائماً:

- أمه، غفر الله لها، كُفَّت يدها عن الدنيا.

ضحكت السيّدة صنم بسخرية:

- لقد وصلت الآن إلى جزاء أعمالها، لا تغفلي عن أن أول حساب هو إعادتها.

أمسكت زبيدة يدها:

- أنا خادمتك، أنا صغيرتك، حينما يمكن أن تجعلي قلبك بحراً، فلِمَ تجعلينه صحراء يا سيدتي؟

غصّت السيّدة صنم:

- هل يتركونني؟ هل يتركونني في حالي؟ يا الله... ماذا كنت أريد وماذا حدث؟ من ذاك الصهر، من تلك البنت، من تاج الرأس هذا أيضاً.

تسمرت نظرتها إلى صورة أحمد عليخان المرسومة، التي كانت قد وضعت فوق المدفأة. كورت قبضتها وضربت صدرها:

- إلهي تذهب هكذا ولا تعود، كالأسبوع الذي غبتَ وغربتَ فيه.

أدارت زبيدة نظرها:

- مع من تتكلمين يا سيدتي؟

- أقول لزوجي.

العالم والناس يعرفون، ولتعرفي أنت أيضاً فلستِ غريبة، إن امرأة حقيرة تسعى إليه، يا رب العالم! إلى أين ستصل الأمور؟ لمّا علمت بالأمر ذهبت إلى باب بيتها وأقمت الدنيا ولم أقعدها، فغابَ وغربَ أسبوعاً، لكن لمّا عاد أحضر قرآناً وطلب الأمان. قال إنها حامل الآن، دعيها تلد وسأفسخ الزواج منها. قلت إن قيمتك لم تعد تساوي ذرة لدي، إن كنت زوجي حتى الآن وتاج رأسي، فأنت منذ الآن خادم أطفالي وشوك تحت قدمي، وبعد هذا لا أنت ولا أنا، قل لتلك السليطة ألا تظهر في هذه الأنحاء . وإلا فكل ما ستراه ستكون السبب فيه. الآن يذهب صباحاً ويعود ليلاً، يضع على الرف مصروفاً ضعف ما كان يضعه سابقاً، ويحمل ويحضر إلى درجة أن من لا يعرف يقول انظر ما الأمر؟ أعلم أنه يريد أن يسكتني، لكن لم يعد يهم، لقد اقتلعت قدرة الله محبته من قلبي كأنه لم يكن في البداية أيضاً. وقت العصر أمسك أيدي بناتي وآخذهن إلى سيد ملك خاتون، ميدان أرك، سينما تمدّن. ليذهب إلى تحفة نطنز تلك لأرى إلى أين ستأخذه.

تأوهت زبيدة:

- ليت هذه المحبة الموجودة في قلبي لزوجي تزول، فأمضي وشأني، فأنا أيضاً في النار والماء لا أعرف أحوالي.

نظرت إليها السيّدة صنم وابتسمت بسخرية:

- لا قيمة لهم يا امرأة، يجب أن تقبلي.

نهضت ونادت دلنواز التي كانت منهمكة باللعب لتأتي وتحتسي شرابها.

* * *

كانت زبيدة تجلس على السرير إلى جانب البركة وترفو قميص المشهديّ، وكانت تعبق رائحة الدهان، فقد كان العمال قد ذهبوا منذ أيّام عدّة وأتى الدهانون.

كان البيت الصغير يجهّز لأجل السيّدة الصغرى، فبالتأكيد ستأتي سيدته بعد فترة أيضاً؛ السيدة التي كانت قد استغرقت في النوم منذ سبع سنوات، كبنت الملك تلك التي دخلت الإبرة في يدها وغفلت عن نفسها وعن كلّ شيء حولها سبع سنوات. لمّا عاد السيد من زيارة السيّدة الصغرى هذه المرة كان سعيداً جداً، وكان يقول يا زبيدة إن السيدة قد سألت عن حالك.

لمّا كانت تقلّب القميص دخل رأس الإبرة في يدها، فعضّت على شفتها ونظرت إلى بقعة الدم التي لوّنت اللباس بالأحمر، أكان من المقرّر أن تستغرق هي أيضاً في النوم؟

أخذ المشهديّ حورية منذ الصباح الباكروذهبا معاً لزيارة سيد نصر الدين، وكان من المقرّر أن يعودا قبل الغروب، لكن لم يظهرا حتى الآن، وكم كانت تشعر بالقلق.

كانت ليلة أمس قد طبخت لهما الحمّص المقشور، وكانت قد وضعته داخل الخبز، ووضعت أعشاب الأكل وحدها في منديل رطب ووضعته إلى جانب العشاء، حتى إنها كانت قد وضعت مخلل الأنبة والكشك واللواشك[1] الحامض في وعاءين منفصلين حتى يصل طعام وحام حورية

(1) فواكه تعصر ويجفف عصيرها، تشبه القمردين، ويصنع بشكل خاص من الكرز (المترجمة).

في وقته أيضاً، لِمَ كانت قد فعلت كل هذه الأشياء؟ من أجل ذاك الطفل الذي كان في بطن الفتاة؟ ذاك الطفل الذي تظنّ أن عينيه زرقاوان بالتأكيد وشعره أشقر؟ كم كانت قد أوصتها:

- احذري أن تتعبي نفسك! احذري أن تأخذي لقمة من يد أحد مجاملة وقت الغداء! احذري...

نهضت من مكانها وغسلت بقعة قميص المشهدي الحمراء داخل البركة. كم بقيت محدّقة إلى الماء؟ حتى توقف عن الحركة. هذا الوجه اللوزي، هاتان العينان الخاليتان من الروح، هاتان الضفيرتان اللتان كانت تفوح منهما رائحة الحناء، ولو كانت قد انزلقت إلى الأسفل أكثر: هذا الصدر الجاف الخالي من البركة لمن كان؟ زبيدة؟

قفزت من مكانها على صوت طرقات حوافر الحصانين. آه... جاءا، في النهاية جاءا. نهضت من مكانها وركضت نحو باب الدار، لقد كانا هما؛ حورية والمشهدي، لكن كأن المشهدي لم يسمع سلامها...ربما كان انتباهه منصبّاً على أن يضع الحمل الزجاجي على الأرض بالسلامة. وضع يده في يد حورية، وأنزلها وعبر النهر.

- أين كنتما إلى الآن؟ لقد ساورني القلق لغيابكما؟

ألقى المشهدي نظرة حادة إليها:

- قولي عافاكم الله في البداية، ثم اسألي عن أصول الدين!

خفضت حورية نظرها ودخلت الدار خلف المشهدي، وسارت زبيدة خلفهما.

- ألا تقول إنها يجب ألا تتعب؟ لأجل ماذا أركبتها العربة وسرت؟ تروق وتروق... تروق وتروق. افترض أن الطفل تلقى صدمة... حينها أي تراب سنحثوه على رؤوسنا؟

نزع المشهدي الذي كان قد وصل أمام باب الغرفة حذاءه وقال:

- واحد آخر.

تسمرت زبيدة في مكانها كشجرة يابسة أصابتها صاعقة. كم طال الوقت حتى سارت ودخلت الغرفة خلفهما؟ كان السماور الفحمي قد أخذ يغلي، فخمّرت الشاي. نزعت حورية ملاءتها وجلست متكئة على الفراش ومدت رجليها. كان ثوبها أصفر ذا ورد أخضر كبير، ربما لهذا السبب كانت عيناها تلتمعان إلى هذا الحدّ. ذهبت زبيدة لتتفقّد السماور ووضعت أمامهما قدحين من الشاي المخمّر للتوّ:

- اشربا ليزول التعب!

قال المشهديّ أسد الله:

- لا أريد شاياً، أعطني الوسادة لأستلقي.

نظرت إليه زبيدة بغضب:

- قل كلمتين! تحدّث! أخبر أين ذهبتما، ماذا رأيتما؟ ماذا فعلتما؟ ألن يأتي النوم؟

تثاءب المشهدي:

- لو كنتِ تريدين، تعالي أنتِ أيضاً!

- إلى أين؟

- للبحث عن غرفة؟

- غرفة؟

- كم هي أصول الدين؟ في الصباح ذهبنا للزيارة، عند الظهر أيضاً ذهبنا وفرشنا بساطنا في الصحن وتناولنا الغداء، نمنا قليلاً أيضاً، ثمّ تمشينا في تلك النواحي وبحثنا عن غرفة خالية.

- لماذا؟

- لآخذها. لا يمكن العيش هكذا، فمكانك ضيّق ومكان هذه ضيّق.

أخذت صينية الشاي التي كانت في يد زبيدة تصدر صوتاً جريق! جريق! جريق! كان زوجها يريد أن يذهب، يريد أن يأخذ البنت ويذهب، وكان يجب أن تدعهما يذهبان، أو تقف أمامهما وتقيم الدنيا. ربما لو رجعت إلى أعماق قلبها لما انزعجت، كانت ستقول مثل سارة " خذها!... خذها واذهب! " لكنها سمعت صوت المشهدي:

- عثرنا على غرفة؛ غرفة قبليّة.

ثمّ خفض صوته:

- يصبح مكانك أكثر اتساعاً، كاليوم الأوّل.

نهضت حورية وأزاحت الملاءة عن الفراش، وأحضرت وسادة ووضعتها إلى جانب المشهديّ. تنحى المشهدي جانباً.

- كلما أردتِ تعالي... تعالي لزيارتها.

وضعت زبيدة كأس الشاي أمامهما وقالت بصوت غير مألوف:

- الطفل... ماذا عن الطفل؟

كانت حورية قد خفضت رأسها تحت نظرة زبيدة، وملّست بكفي يديها الوسادة. استلقى المشهدي وقال:

- إن أتت بنت فسنسميها فاطمة، على اسم أمك؛ وإن كان صبياً أيضاً نسميه رضا... على اسم أبيكِ.

أظهرت زبيدة بيديها حجماً في الهواء:

- الطفل... ماذا عن الطفل؟!

تدحرج المشهدي على كتفه وأدار ظهره إليها:

- تعالي زوريها، هي أيضاً تأتي وتزورك...

لم تقل زبيدة شيئاً، وضعت يدها على ركبتها ونهضت، ونظرت إلى حورية التي كانت قد اتكأت على الفراش، وكانت تجلس أقرب إلى زوجها منها، وأسدلت الستارة وسط الغرفة.

- تمددي أنتِ أيضاً، إنك متعبة.

خرجت من الغرفة، ورفعت رأسها إلى السماء. كان القمر قد أصبح حلقة حمراء حمراء. لم تكن تعلم متى حلّ الليل.

* * *

كانت دلنواز تبكي كذلك، لأن زبيدة ألصقت آخر صفحة من كتابها بالغراء.

- لا داعي للبكاء يا بنتي العزيزة! اقتلعت، لتقتلع. أنتِ يجب ألا تذهبي إلى المدرسة ثانية...

لكنّ بكاء دلنواز لم ينقطع. كانت قد وضعت رأسها على يديها اللتين قد ركبتا إحداهما فوق الأخرى وانحنتا على الأرض، كأنها كانت تسجد لحزن العالم.

نظرت زبيدة إلى تلك الناحية من الدار في آخر يوم من فصل الربيع، كم كانت قد اكتست بالغبار! في صباح ذلك اليوم كان المشهدي قد أحضر عربة، وأخذ مجموعة أشيائه الرخيصة وذهب مع حورية. لم يكن قد سأل زبيدة أيضاً هل ستأتين أو لا؟! في اللحظة الأخيرة كانت زبيدة قد وضعت زاوية إيشاربها أمام فمها ووضعت رأسها على الجدار، وكانت قطرات الدموع تسيل بهدوء على وجنتيها، ولم تكن تبكي لأجل حورية؛ لأجل حورية التي كانت تنظر إليها من الأعلى كغزال شارد، لا، لم تكن تبكي لأجل ذلك الطفل

أيضاً؛ الطفل الذي لن تصل يدها إليه ولم يكن في بطنها هي، بل كان في بطن تلك الأخرى، ذاك الطفل الذي لا بدّ أنّه كان قد وضع إصبعه في فمه وبدأ يمصها، لكن حين كانت حورية قد احتضنتها وألصقت بطنها بظهرها لم تكن تستطيع ألاّ تبكي بصوت عال عال، وكانت قد التفتت وقالت:

- انتبهي للطفل!

كانت قد قالت هذا، وكأنّ الطفل في الحقيقة لها، لا، لم تكن منزعجة منها، بل كان انزعاجها من زوجها الذي كان كأنّه إله الأرض في عبوسه الغامض وأسنانه الضاغطة بعضها على بعض، وصدره الذي يدفعه إلى الأمام، كان قد وقف وأخذ يصيح:

- أتيتِ أم لا؟!

وكانا قد ذهبا، ولم تكن هي في فراغ الغرفة قد بكت فقط؛ بل أسلمت نفسها للبكاء حتى جعلته يهطل ذرة... ذرة... ذرة. متى كانت قد نامت؟ لمّا انتبهت كان ظل الأصيص الموجود على عتبة النافذة قد سقط من هذه الناحية إلى تلك الناحية، حينها نهضت خائفة. وضعت ملاءتها على رأسها وركضت إلى مدرسة دلنواز، وكانت قد مضت ساعة على انصراف الأطفال. وكانت تجلس على مصطبة أمام الباب وتنتظر. خطر في بالها هناك " إيه... طفلة بلا أم "، والآن أيضاً. كانت مطأطئة الرأس وتحدق في الأرض وتبكي بحرقة، فخطر في بالها " إي... طفلة بلا أم ". تقدمت ووضعت يدها تحت ساعدها:

- انهضي! يا هال وجوهر، يا حلاوة طرية، يا قرص القمر، يا خلية العسل، انهضي يا سيدة السيدات! نريد أن نذهب معاً إلى تقاطع مختاري ونأكل الفواكه المثلجة، وإن رأينا أيضاً صندوق الفرجة فسنقف ونشاهد.

أنهضتها من مكانها بأي شكل وأخذتها معها. لمّا ذهبت ألقت نظرة إلى نافذة غرفة ميرزا أبي تراب وماه منظر المغلقة. لمّا كانت النافذة مغلقة كانت الغرفة أيضاً فارغة تصفر، ألم تكن قد مضت ساعة على الوقت الذي كانت فيه زوجة ميرزا قد تزينت وتبرجت وذهبت مع آفاق ابنة رفقاء التي أتت إلى باب البيت من أجل الثرثرة، وكانتا قد سارتا وذهبتا معاً؟

نزّهت الطفلة مدّة حتى ابتسمت شفتاها، وفي أثناء العودة، وقعت عينها على ماه منظر وآفاق في دكان " نوفوتيه سازگاري " وهما مفتونتان بالبائع وتصغيان إليه بشوق، فتحركت وكتفها إلى كتف دلنواز حتى لا ترياهما، لكن خطر في بالها " سأخبر. سأخبر سيدي، إن تصدى لها ومنعها فما أحسن ذلك، وإلا فإني من سيؤدّبها "، ثمّ تأوهت بعمق ونظرت إلى الغيوم التي كانت بيضاء ذات حاشية حمراء، فتخيلت أن السيّدة الأمّ تنظر إليها من الأعلى بشعر منثور محنّى وتقول: " الحق معك يا زبيدة! رحم الله أباك! " ربما لهذا السبب ما إن جاء ميرزا أبو تراب حتى أخبرته زبيدة بكل مارأته، وسمع ميرزا كلامها بعصبية شديدة وصرخ:

- ماه منظر!

ومن دون أن ينظر إلى زبيدة وقف وقال:

- أخرجي الطفلة!

حين دخلت ماه منظر الغرفة خرجت زبيدة ودلنواز، وكان الباب نصف مفتوح فكان يأتي صوت ميرزا:

- ياسيدة! كم مرة يجب أن أقول لك أن تحافظي على اسمي وشرفي؟ لقد كبر أبي وأجدادي كلهم في هذه المحلة وعاشوا وماتوا، أنا إنسان ذو كرامة يا سيدة، ولن أسمح لأحد أن يقلّل من شأني، ولا سيّما إن كان هذا الشخص زوجتي.

جلست زبيدة على مصطبة المطبخ، وأجلست دلنواز إلى جانبها.

- ماذا كان كلامي معك منذ اليوم الأول؟ ألم تأخذ أمي، غفر الله لها، توقيعك قبل مراسم عقد القران على قطعة من الورق؟ ألم تطلب إليك أن تحسني إلى الطفلة؟ إن كان نعم، فما رعاية الأصول هذه التي ترعينها؟ إنك تزعجين ألفاً وتديرين وجهك، ولا تراعين حرمة المرأة التي تعيش معنا منذ سنوات وهي بمنزلة أمك، وتتسكعين في الشوارع والأزقّة، وتتصرّفين بخفّة ولا تراعين أنك زوجة ميرزا، زوجة ميرزا أبي تراب الذي يراقب أهل المحلّة كلّهم سلوك أهل بيته، إن معصيته هي التي ستذهب بك.

ثمّ سُمِع صوت ماه منظر وهي تتكلم بكلام غير مفهوم وممزوج بالبكاء. في هذا الوقت فُتِح الباب وخرج ميرزا وقد ألقى العباءة على كتفه ووجهه المتوهج. أسمع كلام دلنواز أم لا؟ ذهب إلى البركة وغسل وجهه

بالماء مرّات عدّة، ثمّ فتح النافورة وأغلقها وخرج من الباب. خرجت ماه منظر أيضاً من الغرفة، ولمّا وصلت عند زبيدة نظرت بغضب وقالت:

- ستنالين جزاءك مني.

وصعدت السلم الموجود في زاوية باحة الدار، وبعد ربع ساعة سُمِعَت طقطقة حذائها وتماوج ملاءتها. ركضت زبيدة خلفها:

- إلى أين؟

التفتت ماه منظر ونظرت إليها بحدّة:

- إلى منزل السيد شجاع!

وحين رأت أن زبيدة تنظر إليها دهشة قالت:

- إلى قبر أبي، ليرتاح بالك.

وضربت الباب بقوة وذهبت.

* * *

كان بيت ميرزا خالياً وأصبح أكثر خلوةً على الرغم من أنّ الدار الجديدة كان يزداد رونقها وجمالها يوماً بعد يوم، لكنّ الدار الكبيرة كانت تبدو أكثر صمتاً وبؤساً من ذي قبل. سكت أبو تراب حين علم بانزعاج ماه منظر، فنهض وصلّى وأخذ سجادته إلى الدار الصغيرة، وركضت دلنواز أيضاً خلفه. كانت طوال المدّة التي قضاها والدها وقد ألقى السجادة على الموزاييك المفروش حديثاً وانشغل بمناجاة الله، تحاول أن تضع الكرة

الصغيرة التي تشبه البيضة أعلى النافورة التي كانت تقفز إلى الأعلى والأسفل، لكنها لم توفق حتى انتهت صلاة أبيها، فكانت يداه هما اللتان ساعدتاها. ذهبا بعد ذلك لمشاهدة الغرف التي طليت، بيضاء... بيضاء... بيضاء. حتى جدران القبو الذي لم يعد بيتاً للجنّ أصبحت بيضاء. لمّا أحضرت لهما زبيدة البطيخة المقطّعة قال ميرزا:

- قولي للسيّدة صنم أن تأتي إلى هنا وتعطينا قائمة بكلّ ما ينقص لنشتريه، ولو أرادت أن تشرف على الشراء بنفسها فلا مانع.

قالت زبيدة التي أضاء وجهها، كما لو أوقدوا أمامها سراجاً، بعينين ممتلئتين باللهب:

- أعطاك الله العمر! أعطاك الله العمر والعزّ!

قال ميرزا أبو تراب:

- كلّ ما أفعله قليل، إنه أمان من نوم الغفلة، ما أخبار المشهديّ؟

طأطأت زبيدة رأسها:

- ماذا أقول يا سيدي؟... حينما يوصلك ليلاً يذهب إلى صباح الغد.

- عجباً! إن كنتِ تعرفين بيته، فاذهبي وقولي له إن كان في يده ماء فليرقه على الأرض ويأتي!

لمّا أتى المشهدي أسد الله نصحه ميرزا أبو تراب بتوعّد أولاً ثمّ باللين:

- ألا تخجل يا رجل؟ إن الله تعالى رسم خطاً حتى وسط حبة القمح، ألم تتّعظ من حالي وأيامي؟

دون أن يشعل المشهدي غليونه، سحق التبغ تحت إبهامه. قال ميرزا:

- يجب أن نأخذ إلى المصحّ صندوقين من التفاح السكري، صندوقين من العنب العسكري(1)، وعلباً و من الحلوى كلّ يوم.

- على عيني.

نهض المشهدي من مكانه، فقال ميرزا:

- ألا تريد شيئاً من السيّدة زبيدة ؟

قال المشهدي بهدوء:

- سأعود.

صباح الغد، ذهب المشهدي وميرزا أبو تراب إلى المصحّ محمّلين بالفواكه والحلوى:

- توزيع الفواكه والحلوى بعهدتك يا مشهدي، فقط واحدة منها لي.

أخذ ميرزا علبة حلوى، وسار في امتداد الطريق الرملي الذي يمرّ من أمام البناء الإسمنتي رماديّ اللون ذي النوافذ الكثيرة. كانت الشمس قد أشرقت للتوّ، وكان قد ضيّق عينيه حتى لا يرى المرضى الذين كانوا ينادونه من خلف ستائر التول. لكن للحظة، كانت ثمّة عينان تفيضان بالألم، ممتلئتان بالحديث تتكاثران خلف شبكة التول الدقيقة، جعلتاه يتسمّر في مكانه.

---

(1) نوع من العنب بيضوي الشكل، أخضر رقيق القشرة بلا بذور (المترجمة).

- السيّدة الصغرى.

نقل قدميه أسرع، ودخل القسم، ومن هناك وصل إلى الغرفة الصغيرة التي دلّوه عليها وهو يعدو. كانت السيّدة الصغرى ترتدي ثوباً أزرق منقّطاً بالأبيض، وتضع إيشارباً قطنياً أبيض على رأسها يغطّي شعرها المقصوص الذي أخذ ينمو. كانت تقف أمام النافذة وتشاهد ، في حين كان يمكن أن يُرى زقاق من الورد الأصفر وبنفسج الحقل من فوق كتفها. تعجّب ميرزا للحظة، كيف لم يرَ هذه الأكاسيا كلها حين قدومه؟ نظر إلى قدميها، لاتزالان عاريتين بحلقة زرقاء كانت ذكرى سفرها الطويل، سبع خطوات من العذاب؟ رمى علبة الحلوى على السرير، ووضع جبهته على الأرض وسجد لله. لمّا رفع رأسه كانت السيّدة الصغرى تتكئ على حافة العتبة أمام النافذة وتنظرإليه.

نهض ميرزا بعينين مبلّلتين، وذهب نحوها:

- ألن تسألي عن حال دلنواز؟

لمعت عينا المرأة وارتعشت زاوية شفتيها، ثمّ رفعت أصابع يدها اليسرى التي كانت خالية من أيّ زينة وصارت تقبضها وتبسطها:

- دلنواز.

تأوّه ميرزا.

- في المرّة القادمة سأحضرها؛ سأحضرها لترى كلّ منكما الأخرى.

سمع صوت أقدام، ثمّ فُتِح الباب ودخل رجل يحمل أقراصاً عدّة من الحبوب وكأس ماء، فلجأت السيّدة الصغرى إلى زاوية الغرفة. مدّ ميرزا يده وأخذ الأقراص والماء، وأغلق الباب برؤوس أصابعه ثمّ ذهب نحوها.

- تناوليها! ستجعلك تشفين.

أخذت السيّدة الصغرى الأقراص عابسة الوجه وتناولتها، ثمّ أمسك ميرزا يدها وأحضرها مرة أخرى إلى جوار النافذة.

- دعيني أنظر إليكِ جيداً!... كم تشبهك، هذه المرّة سأحضرها بالتأكيد... ربما أيضاً... سيخرجك الدكتور سريعاً، حينها سنذهب معاً من هذا الباب إلى الخارج.

عادت السيّدة الصغرى ونظرت إلى الخلف.

- من هذا الباب.

كل ما كان من تلك الزاوية كان ورداً، ورد الأكاسيا الكبير الأصفر والبنفسجي، وعليه قطرات كبيرة من العرق، والنافورة في دوران والفراشات في طيران، وكانت هناك سروتان إحداهما طويلة والأخرى قصيرة.

فكّ ميرزا خيط السللوز عن علبة الحلوى، وأمسك بها وأوقفها:

- من هذا الباب.

* * *

- العفو من شيم الكبار، أنت بعظمتك اعفُ عنها، صدّق أنّها لازالت طفلة، جاهلة... غرّة. أعطها فرصة! إن شاء الله سينصلح أمرها على يدك.

كانت مرواريد وجواهر قد جاءتا للوساطة، وكان ميرزا أبو تراب قد أطرق رأسه وأخذ يحرّك حبّات السبحة، وكانت دلنواز تجلس إلى جواره، وتدير مروحة صغيرة في صينية نحاسية، والمروحة تدور وتنقلب.

- الإنسان نقي بفطرته، صدّق أنّها في غضون هذه الأيام القليلة لم تضع الطعام في فمها كما يجب، ولم تغلق جفناً على عين لتنام كما يجب، أنت صاحب الأمر الآن، وأمرك مطاع في كلّ ما تقوله.

هزّ ميرزا رأسه وقال ببرود:

- حسناً جداً، قولوا لها أن تأتي!

نهضت مرواريد بشوق من مكانها وهي تدلّك قدمها المخدرة، وذهبت تعرج إلى الغرفة المجاورة. بعد قليل عادت مع ماه منظر التي ظهرت عند محور الباب، وكانت تضع ملاءة سوداء دون تبرّج، وجفناها منتفخان، ونظرها إلى الأسفل. تحرّكت دلنواز لرؤيتها وتوقفت يدها عن الحركة، ثمّ نظرت إليها طويلاً إلى أن التقت عينا ماه منظر بعينيها، فأجابتها بابتسامة، ووضعت مرواريد يديها خلف ماه منظر ودفعتها إلى الأمام. جلست ماه منظر، وبإشارة من جواهر أخرجت دمية من تحت ملاءتها، دمية ترتدي ثوباً من التول؛ تول أبيض وأزرق وقد خيط البرّاق في أماكن عدّة

من ذيل الثوب، وكان وجهها من الجنس الصيني بعينين فيروزيتين وأهداب سود تفتح وتغلق، وكان شعرها الكثيف يصل إلى خصرها. مدّت ماه منظر يدها نحوها، ومسح ميرزا أبو تراب على لحيته.

- أحضروها لك يا بنتي.

تقدّمت دلنواز قليلاً ومدّت يدها لتأخذ الدمية، فسحبت ماه منظر يدها قليلاً إلى الخلف. تقدّمت دلنواز أكثر، فسحبت ماه منظر يدها مرة أخرى. تحرّكت دلنواز حركة ثانية، وهذه المرة أمسكت ماه منظر معصمها وأجلستها على ركبتها، فضحكت مرواريد وجواهر من خلف الملاءة. ألقت دلنواز نظرة على وجه أبيها ونظرة إلى الدمية ثمّ طوّقت بيدها عنق الدمية، وضغطت ماه منظر الاثنتين إلى صدرها. من أين كان يأتي صوت هذا البكاء كلّه؟

* * *

كانوا قد زيّنوا زقاق الأكاسيا بالمصابيح. كانت أواخر الصيف، وثمّة ريح خفيفة قد جعلت بيادر النسرين الأحمر والزهريّ ترتعش على أكتاف الجدران. نظّفوا النهر وسط الحي بأمر ميرزا أبي تراب ووضعوا الدحاحل بدل حبات الرمل. الآن أصبح الماء الزلال كدمع العين يمرّ من فوقها. كأنّ آلاف العيون، العيون التي كانت تنتظر قدوم السيّدة الصغرى، قد سافرت لتحدّق إلى الطريق برفقة جميع المنتظرين ، متى ستأتي؟

لقد ربطوا اللؤلؤ وشكل عين حول عنق الخروف، ووضعوا على جبينه مرآة ليضحّوا به مع مجيء السيّدة الصغرى. كان الزقاق يموج بالحشود، من جيران زقاق الأكاسيا إلى أقارب ميرزا أبي تراب والسيّدة الصغرى وأسرتيهما. فقط كان مكان السيّدة صنم خالياً حيث كانت قد أرسلت رسالة:

- ليس لي القدرة على رؤية ضرّة ابنتي، حينما تأتون بالسيّدة الصغرى إلى بيتي فستكون قدمها على عيني.

لمّا أتى خبر وصول عربة المشهديّ أسد الله إلى ناصية الحي، تقدّم الجمع مسافة كبيرة للاستقبال مصحوبين بالسلام والصلوات ودخان الحرمل والكندر وصوت الدفّ والتصفيق، وفي النهاية ثغاء الخروف الذي ذبح عند قدمي السيّدة الصغرى.

دخلت السيّدة الصغرى، التي كانت تغطي الملاءة وجهها، باحة الدار ويدها بيد ميرزا أبي تراب، وكانت زبيدة تذرف الدموع وهي تدير المنقل المملوء بالحرمل في الهواء، أمّا دلنواز فترتدي ثوباً أبيض رسمت عليه عناقيد صُفر وبنفسجيّة، وكانت قد أخفت نفسها تحت شجيرة الورد تنتظر الفرصة لتأتي أمها. لمّا وصلت ركضت نحوها وغرقت كلّ منهما دقائق في حضن الأخرى.

تفرّق الجمع شيئاً فشيئاً، وذهب الأبعدون إلى بيوتهم، ودخل الأقربون الدار الكبرى لتناول العشاء. مدّت زبيدة فراشاً لسيدتها في إحدى

غرف الدار الصغيرة؛ وجلست السيّدة الصغرى، التي كانت متعبة، وأسندت رأسها إلى الوسادة. أحضرت حورية، بأمر زبيدة، شراب السفرجل بالليمون. كان وجه ماه منظر قد أصبح شاحباً، وعيناها مخمورتين، كأنّ سلسلة خفيّة كانت قد أغلقت أهدابها على بعضها.

كانت المصابيح الملونة المعلّقة بين أوراق أشجار الحديقة القديمة وأغصانها تضيء وتنطفئ، وكانت دلنواز ترى أمها بين عشرات اللوزات السحرية. دخلت زبيدة الغرفة بمنقل وأدارته حول رأس سيدتها، وبحركة سريعة سحبت الإيشارب عن رأسها. كان شعرها قد وصل إلى شحمتي أذنيها مستقيماً وبلا تجعيد. وضعت السيّدة الصغرى يدها على رأسها وغطّت دلنواز عينيها بيديها.

قالت زبيدة:

- جُعِلْتُ فداكِ يا سيدتي! جميلة، هكذا أيضاً جميلة.

وأدارت المنقل ثانيةً حول رأسها.

لمّا خرجت من الغرفة رأت ماه منظر من خلف ستارة باب الغرفة المقابلة المزاحة وقد جلست إلى جانب عدّة الشاي والشراب. نظرت إليها زبيدة وهي تملأ أواني الشراب بالمغرفة، فركضت بسرعة إلى الدار الكبيرة. وجدت ميرزا أبا تراب إلى جانب قدور كبيرة موضوعة على شعلة النار في زاوية الدار.

- تعال يا سيدي. بالله عليك يا سيدي تعال وقل للسيدة بنفسك.

أعطى ميرزا أبو تراب المغرفة للطباخ وقال:

- سأعود الساعة.

عادت زبيدة أيضاً تجري بصحبته، ورأت من فوق كتف ميرزا السيّدة الصغرى تضم بالخيط ورد الياسمين الذي قطفته دلنواز من الأصص التي صفّت في عتبة الغرفة وأعطته لها. حين رؤية ميرزا أبي تراب مدّت السيّدة الصغرى يدها وسحبت إيشاربها على رأسها. اختلس ميرزا أبو تراب نظرة إلى دلنواز وقال:

- انظري ماذا تريد زبيدة منك!

نهضت دلنواز من مكانها وخرجت برفقة زبيدة، لكنها سحبت يدها من يدها وذهبت إلى باحة الدار. ارتفعت على أصابع قدميها ونظرت من خلف زجاج النافذة إلى داخل الغرفة، كان ميرزا يتكلم بهدوء وهو يتكئ بيده اليسرى أمام المدفأة، وكان قد أسند رأسه إليها. كانت السيّدة الصغرى أيضاً جالسة تضم زهر الياسمين، فرفعت دلنواز نفسها أكثر لكنها لم تسمع كلامهما. خرج ميرزا من الغرفة، وعاد بعد قليل مع ماه منظر. كانت ماه منظر ترتدي ثوباً أصفر من قماش التفتة وخفّاً كان قد خيط عليه برّاق، كانت الملاءة قد انزلقت عن رأسها، وكانت قد جمعت طرفيها تحت إبطها.

لمّا وصلت مقابل السيّدة الصغرى توقفت قليلاً وتراجعت، نظرت إلى ميرزا، فهزّ ميرزا رأسه. جلست بهدوء على ركبتيها أمام السيّدة الصغرى. رفعت السيّدة الصغرى رأسها وحدّقت إليها، تردّدت عدة ثوان

ثمّ رفعت الخيط الذي كانت قد ضمّت فيه أزهار الياسمين ووضعته حول عنقها وعقدت طرفيه. أبعدت دلنواز وجهها عن الزجاج، ورفعت رأسها إلى السماء.

كان القمر المكتمل يتلألأ. لم تكن ولم تقل... لكن لو كانت، لكانت ستقول:

" هل الشمس أيضاً؟ ".

النهاية

راضية تجار

- كاتبة إيرانية؛
- أمينة سر جمعية القلم الثقافية في طهران؛
- يعد هذا العمل أهم رواياتها.

د. ندى حسون

- مترجمة سورية؛
- حائزة شهادة الدكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها من جامعة طهران.
- أستاذة في قسم اللغة الفارسية وآدابها – جامعة دمشق.
- من أعمالها المترجمة:

• أسطورة العشق (مجموعة قصصيّة).
• أسطورة السعادة (مجموعة قصصيّة).
• أزرق ولكن بلون الغروب (مجموعة قصصيّة).

٢٠٢٤ م

تحكي الرواية قصة نساء من شرائح اجتماعية متنوعة في زمن إيران الشاه وما تعرضن وكابدن من قساوة الرجال وظلمهم، فاستسلمن لواقعهن من دون إبداء أيّ ردّة فعل. تعكس الرواية مشاهد من المجتمع الإيراني القديم وتقدم لمحة عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في ذاك العصر. أبطالها عائلة السيد ميرزا أبي تراب وما يكتنفها من أحداث ومواقف، إذ عمدت الكاتبة إلى تصوير حياة أفرادها ومشكلاتهم ومعاملاتهم اليوميّة واختتمت بنهاية جميلة، إذ ينالُ كل ذي حقٍّ حقه.

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٤ م